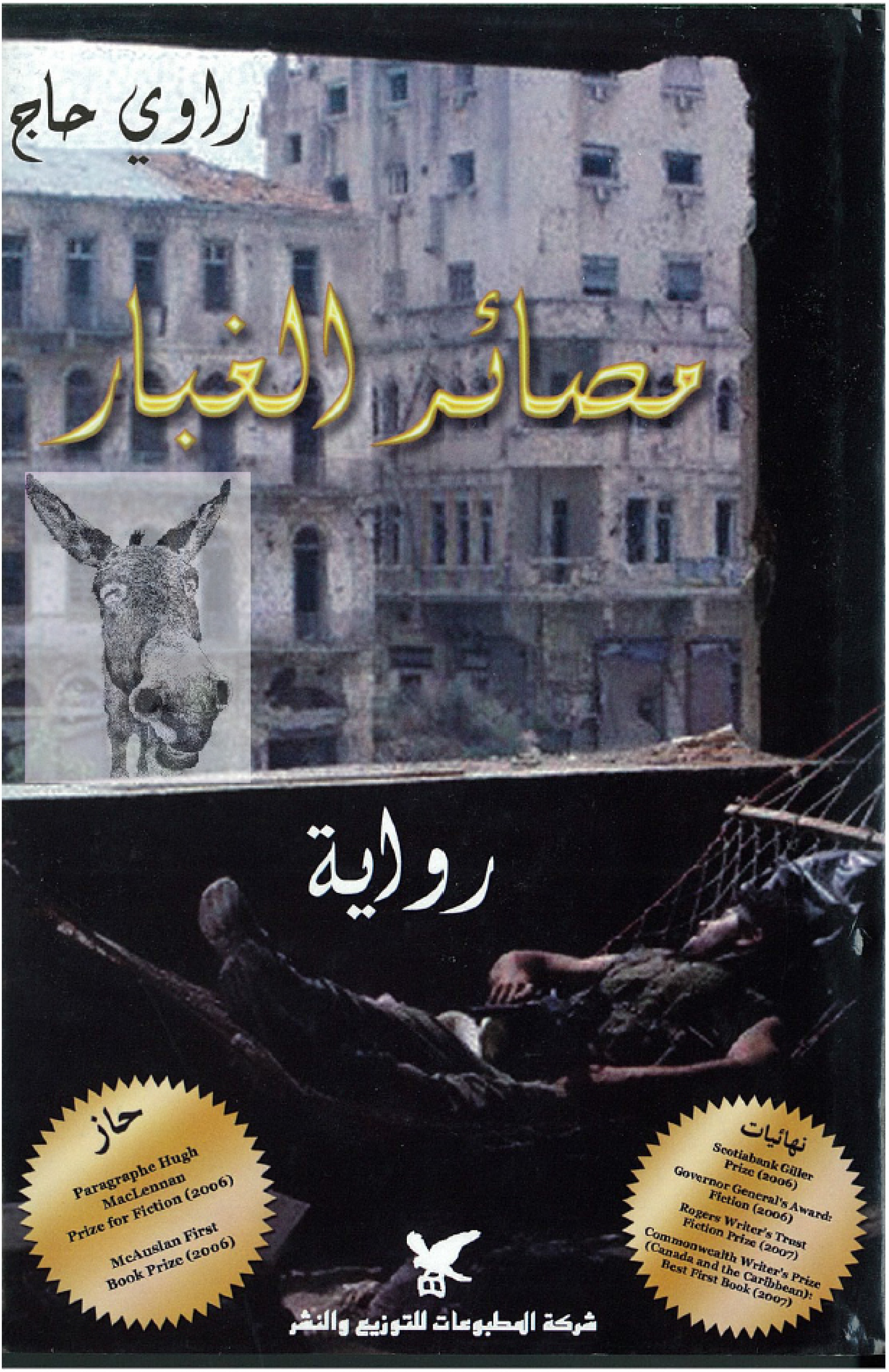
راوي حاج
مصائر الغبار
رواية
حاز
Paragraphe Hugh MacLennan Prize for Fiction (2006)
McAuslan First Book Prize (2006)
نهائيات
Scotiabank Giller Prize (2006)
Governor General's Award: Fiction (2006)
Rogers Writer's Trust Fiction Prize (2007)
Commonwealth Writer's Prize (Canada and the Caribbean): Best First Book (2007)
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

راوي حاج

مصائر الغبار

التدقيق اللغوي: روحي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Copyright © All Prints Distributors & Publishers

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل، سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

ISBN: 978-9953-88-081-5

Copyright © 2006 by Rawi Hage

Published by arrangement with House of Anansi Press, Toronto, Canada

المترجمة المشرفة: رنا الصيفي

تر مة: فداء يونس

تصد الغلاف: برنار يوسف

الاخر 'فني: بسمة تقي

صورة حاج على الغلاف: Babak Salari

Canada Council for the Arts
Conseil des Arts du Canada

شكر خاص للمجلس الكندي للفنون

الذي دعم نشر هذه الرواية بالعربية والذي استثمر خلال العام

الفائت ٢٠,١ مليون دولار لدعم الكتابة والنشر في جميع أرجاء كندا

الناشر

We acknowledge the support of the Canada Council for the Arts which last year invested $20,1 million in writing and publishing throughout Canada.

The Publisher

روما

١

عشرة آلاف قذيفةٍ تساقطت وأنا أنتظر جورج.

عشرة آلاف قذيفةٍ استهدفت بيروت، المدينة المزدحمة وأنا مستلق على أريكة زرقاء سُترت بأغطية بيضاء لتقيها الغبار وآثار الأقدام المتّسخة.

قلت في نفسي حان وقت الرحيل.

كان مذياع والدتي دائراً. لم يزل كذلك منذ بداية الحرب، مع بطّاريات «رايوفاك» التي تعيش آلاف السنين، وغطاء بلاستيكيّ رخيص، أخضر اللون، تعلوه الثقوب وما علق من طبخ على أصابع أمي، وغبارٌ تغلغل إلى داخل مفاتيحه فقبع هناك.

لم يستطع شيءٌ إيقاف أغاني فيروز الكئيبة تلك، التي تنوح من ذاك المذياع.

لم أكن أهرب من الحرب، بل من فيروز وأغانيها.

حلّ الصيف بحرّه الشديد، فألهب الأرض وكذلك شقّتنا والسقف. أسفل نافذتنا البيضاء، قططٌ مسيحيّةٌ تتمشّى في

الشوارع الضيّقة بلا مبالاة، لا تصلّب أبداً ولا تنحني حتى للكهنة المتشحين بالسواد. كانت السيّارات مركونةً على جانبي الطريق. سيارات علت الأرصفة معيقةً مرور المشاة المرهقين والمختنقين بأقدام متعبة ووجوه متجهّمة، والذين ما برحوا يلومون أميركا ويمطرونها باللعنات مع كلّ خطوةٍ يخطونها، ومع كلّ نفسٍ يأخذونه في حياتهم التعيسة.

اشتدّت الحرارة وهبطت القذائف، وتخطّى الزعران الصفوف الطويلة للحصول على الخبز، وسرقوا الطعام من الضعفاء واستقووا على الفرّان وهم يتحرّشون بابنته. لم يقف الزعران في الصف يوماً.

وصل جورج وزمّر.

تصاعد الدخان الأسود كالموت من دراجته النارية حتى بلغ نافذتي، كما اخترق صوتها المزعج غرفتي. نزلت، وفي طريقي لعنت فيروز، «يا لهذه المغنّية المنتحبة التي تحوّل حياتي جحيماً».

نزلت أمي من السطح بيدها دلوان سرقت ماءهما من خزّان الجيران. قالت لي إنّ المياه قد نفدت. فهي لا تتوفّر إلا ساعتين في اليوم. ذكرتْ شيئاً عن الطعام كالعادة، إلا أنني لوّحتُ مودّعاً وهرعتُ لأهبط الدرج.

اتخذت لي مكاناً على الدراجة خلف جورج.

انطلقنا على طول الطريق الرئيسيّة حيث وقعت القذائف،

حيث تعرّف الدبلوماسيّون السعوديون إلى فتيات هوى فرنسيات، حيث رقص الإغريق وغزا الرومان وشحذ الفرس سيوفهم وسرق المماليك طعام الفلاحين وأكل الصليبيون لحم البشر، واستعبد الأتراك جدتي.

الحرب للزعران، وكذلك الدراجات النارية، للمراهقين ذوي الشعر الطويل أمثالنا، الذين يدسون مسدساتهم تحت قمصانهم ويسرقون البنزين، ولا وجهة محددة لهم.

توقّفنا عند شاطىء المدينة، في أسفل الجسر. فقال جورج:

ـ «عْمِلت مشكل».

ـ «شو صار».

ـ هذا الرجل، أظنّه يدعى شفيق الأزرق، يوقف سيارته أسفل منزل خالتي نبيلة. حين يغادر يحجز المكان. أزلتُ الحاجز حتى تتمكّن خالتي من إيقاف سيارتها، وصعدنا إلى منزلها لتناول القهوة. شفيق هذا قرع الباب وطلب إليها أن تبعد سيارتها قائلاً إن المكان له. فأجابته: المكان عام... أهانها... فصرخت... شهرت مسدسي في وجهه وطردته من المنزل. هبط الدرج وهددني من الأسفل، لكننا سنريه، أليس كذلك يا صديقي؟

استمعتُ إليه وأومأتُ برأسي، ثم ركبنا الدراجة مجدَّداً ومضينا تحت وابل الرصاص بلا وعي. مضينا في ظلّ أناشيد الجيش وأصوات آلاف محطات الراديو التي تنادي بالنصر.

حدقنا إلى تنانير المحاربات القصيرة مضينا إلى جانب أفخاذ فتيات المدارس.

كنا نسير بلا هدف. مجرد متسوّلين وسارقين. عربيَّيْن هائجين: شعر مجعّد وقميص مفتوح، وعلبة «مارلبورو» مخبّأة في الكم. غير متعلّمين، عديمي القيمة، فاقدي الرحمة، نحمل مسدساتنا وأنفاسنا الكريهة، ونرتدي الجينز الطويل الأميركي الصنع.

أوصلني «جورج» إلى المنزل، وقال «سأراك الليلة في وقتٍ متأخّرٍ»، ثم انطلق بدراجته مبتعداً.

انتصف الليل وملأ صوت دراجة جورج النارية الحي بأكمله. توجهت نحو الزقاق حيث يجلس الرجال على شرفاتهم الصغيرة لمشاهدة الفيلم المصري الذي يُعرض ليل الجمعة، ويدخنون ويعبّون البيرة والعرق و«يفقّون» اللوز الأخضر الطازج ويطفئون بأصابعهم الصفراء القذرة، السجائر الأميركية في منافض عادية.

داخل المنازل، نسوة أفقرتهن الحرب، يسكبن بحذرٍ واقتصادٍ على أجسادهن السمراء الملقية في أحواضٍ تركية قديمة، مياهاً من دلاءٍ بلاستيكيةٍ حمراء، ليغسلن بها الغبار والروائح وبقايا البقلاوة ولؤم القيل والقال حول فنجان القهوة الصباحي، وفقر أزواجهن وعرق أباطهن غير الحليقة. كن يغتسلن تماماً كما تغتسل القطط المسيحية الموسوسة بالنظافة، وهي تلعق أكفّها تحت محركات السيارات الأوروبية الصغيرة، التي يتسرب منها نفط المصانع. نفط استخرج بفضل عرق العمّال النيجيريين

المستغلّين، ينقّبون عنه تحت الأرض حيث تهيم الشياطين وتقتات الديدان جذور الأشجار اليابسة، أشجار خنقها دخان المصانع وجشع أنفاس المهندسين ذوي البشرة البيضاء. كانت هذه القطط الخمولة تستلقي تحت السيارات القذرة، تراقب مرور الأحذية الإيطالية والأظافر المطلية وثنيات البنطلونات الملونة والممزقة والأحذية ذات الكعوب العالية المسننة والمشايات البلاستيكية والأقدام الحافية المثقلة، تراقب مرور الكواحل الشهية المكشوفة التي قد تمسك بها الأيدي الغليظة وتدعها متسللة إلى أعلى، لتتلمس ذاك السائل الدافىء متمهّلةً، جاعلة منه سيلاً غزيراً يفيض ببشاعة رائحة الإنقليس والسمك الأحمر وماء الورد.

مضينا سريعاً نحو منزل خالة جورج. حين وصلنا أشار إلى مكان سيارة شفيق الأزرق. شهر مسدّسه. دستُ على دواسة البنزين فزأرت الدراجة وأطلق جورج النار على إطارات سيارة شفيق الأزرق فأفرغها من الهواء. صوّب نحو الأعلى قليلاً وأصاب أضواء السيارة والباب والزجاج الداكن والمقعد، حتى طيفه في المرآة. أطلق النار بهدوءٍ ورقص بسكونٍ حول السيارة، ثم أطلق النار مجدداً. ثقوب صغيرة خرقت المعدن فأحدثت ضرراً. كان ذلك عملاً انتقامياً مسلياً وقاتلاً. وقد راق لي.

حين انتهى كلّ شيء، فررنا من المكان. قدت الدراجة عبر أحياء نائمةٍ تمتد فيها الأبواب الخشبية بلا نهاية. شعرت بمسدس جورج يلامس ظهري. وصلنا إلى طريق عام فهللت قمصاننا

القطنية للهواء الذي راح يتحرش بجسدينا ويداعب آذاننا. قدت بسرعة وتهورٍ فاخترق الهواء عيني ونفذ عبر أنفي إلى رئتي.

عبرت شوارع مصابيحها مكسورة وجدرانها مثقّبة بآلاف الرصاصات، وأرصفتها المغبرة والمهملة تملأها الدماء التي أضحت بقعاً داكنة. تابعت وشعرت بعطشٍ في شراييني وبنسيمٍ عليلٍ ونقيّ يلفح صدري. كان جورج يلهث كالكلب المسعور وراء كتفي ويعوي بانتصارٍ مطلقاً ضحكةً شيطانية.

كوكتيل! صرخ في أذني، لنتناول الكوكتيل! فانعطفت بسرعة كسائقٍ منغوليّ. مالت دراجة جورج على الطريق وبرم الإطار الخلفي ساحقاً في طريقه حصى الشارع الدقيق مُثيراً سحابة من الدخان الرمادي. استدرت وتوجهتُ مباشرةً نحو محلّ العصير الذي يفتح طوال الليل، محل يقع على الطريق العام، مقابل المدينة، في المقاطعة الأرمنية بعيداً عن الأتراك الذين استعبدوا جدتي.

مررنا بجانب «سينما لوسي» حيث يأتي الشبان وممارسو العادة السرية المزمنون لمشاهدة الشاشة الكبيرة التي تعرض نسوة أميركيات بنهودهن العارمة، يضاجعهن رجال فحول، يرتدون ملابس رعاة البقر أو المدرسين، ويسرحون شعورهم على طريقة «الأفرو» أو تسريحات السبعينيات. يضاجعونهن على حافة حوض سباحة فاخر على أنغام موسيقى الجاز وترافقهم خادمات يرتدين مآزر بيضاء، بعد أن تركن تنانيرهنّ في الكواليس، على باب المخرِج أو على مقعد سيارة المصور، ويهززن مؤخراتهنّ

المتحررة كأيام السبعينيات على كراسيّ بلاستيكيةٍ طويلة، وهن جاهزات لتقديم كوكتيل كحولٍ أحمر مع مظلات ورقية صغيرة.

في محل العصير، شربنا أنا وجورج عصير المانغو مع القشطة والعسل والمكسرات. جلسنا وشربنا الكوكتيل ولعقنا أصابعنا ونحن نتحدث عن المسدس وعن مدى سكونه.

٢

عشرة آلاف قذيفة شطرت الرياح، وكانت أمي لا تزال في المطبخ تدخّن سيجارتها الطويلة البيضاء، يلفّها السواد من رأسها حتى أخمص قدميها حداداً على والدها ووالدي. غلت الماء على الغاز، وقطَّعت اللحم على اللوح ثم نفخت دخان السيجارة على حائطنا المهدَّم وزجاج نافذتنا المهشّم. هنا في مطبخها، وقعت قذيفة أحدثت فجوة كبيرة في الحائط، فاتحة لنا باب السماء الواسعة. ولم نكن لنصلحه حتى قدوم الشتاء، حتى تمطر، لتغسل تربة جثث من دفنّا.

هنا، في هذا المطبخ، توفي والدي، في حين أن والدها مات ناحية الشمال أكثر.

حين زار جورج خالته في اليوم التالي، كانت قد ركنت سيارتها في موقف سيارة شفيق الأزرق.

قالت له خالته وهي تعبث بشعرها المصبوغ بالأحمر إن شفيق الأزرق قد أتى ذلك الصباح واعتذر منها عارضاً عليها مشاطرته الموقف. كانت الخالة نبيلة في الأربعينيات من عمرها،

وهي تعمل في مصرف. لم تتزوج قط، مغازلة وشهوانية، ترتدي التنانير الضيقة والأحذية ذات الكعوب العالية. تزيّن وجهها بألوانٍ زاهيةٍ وترتدي قمصاناً تكشف عن نهديها المقتحمين.

كانت تدعو جورج بـ «جرجورتي» وهو لقب يزعجه منذ الطفولة. لطالما مررت بمنزلها لأبحث عنه. وغالباً ما كانت تفتح لي الباب برداء النوم والسيجارة تتدلى من شفتيها المستديرتين. كان يراودني خيال جامح هي بطلته: تدعوني إلى تناول القهوة، ثم تقدم لي الماء على طاولة المطبخ، تجثو تبجيلاً تحت سرّتي، تعمد إلى فتح سحّابي الياباني الصنع لتلتهم إفرازاتي، ثم تقول لي بصوتها الحنون العابث إنّ جورج ليس هنا.

كانت لتسأل: أليس في العمل؟ جرجورتي في العمل!

كان جورج، صديق الطفولة، يعمل في ملهى وضيعٍ لآلات البوكر. وكان يقبض المال من المقامرين القابعين طوالَ النهار أمام تلك الآلات التي تومض شاشاتها الصغيرة بضوء أخضر لامع. كانوا يضغطون الأزرار ليخسروا مجوهرات زوجاتهم ومنازل وأشجار زيتون آبائهم وملابس أولادهم. كلّ ما لديهم.. تمتصه تلك الآلات. كل ما يملكون تستخرجه من بوليستر جيوبهم الأصوص والجواكر الساخرة. كان جورج يأخذ منهم أموالهم ليحيلها إلى الآلات. يبيعهم الويسكي والسجائر وينظّف الحمامات ويفتح الأبواب، يخفف تبريد الصالة، ويزيل الغبار، ويفرغ المنافض ويحمي المكان. وحين يأتي رجال الميليشيا،

كان يضع المال في أكياسٍ مغلقةٍ ويقدّمها إليهم ليتوجّه بعدها إلى منزله راكباً دراجته النارية.

في إحدى زيارتي له، أفضى إليّ بما كان يساوره. لا بد من إيجاد طريقة لاقتناص بعض المال. «هل توافقني؟»

ـ إن أمسكَنا أبو نهرا نسرق أمواله فسوف يقطع رأسينا لا محال.

ـ أجل، الخطر قائم، لكن لا بد من طريقة.

ـ تريدنا أن نعبث مع الميليشيا؟

هزّ جورج كتفيه باستهجانٍ ثم راح يدخّن حشيشةً سوداء، زيتية. أغمض عينيه واحتفظ بالدخان داخل صدره الهزيل، قبل أن يخرجه ببطء وهو لا يزال مغمض العينين. مد ذراعه فبدت كنصف صليبٍ وناولني الحشيشة من بين إصبعيه.

كانت القذائف تنهمر كالأمطار الموسمية التي تهطل في بلاد الهند البعيدة. كنت يائساً وقلقاً لا يهدأ لي بال، بي حاجة إلى عملٍ أفضل ومال أكثر. في المرفأ حيث عملت سائق رافعة، كنا نفرغ السفن من الأسلحة المختومة بأرقامٍ عبريةٍ وإنكليزيةٍ وعربية. وانطوت بعض الشحنات على زيت توجَّبَ علينا إفراغه في براميل الشاحنات.

أما الفاكهة فكانت تأتي من تركيا، وكذلك الخراف بأنوفها السائلة، بأصواتها المذعورة وبالدوار الذي يعتريها. كنا نفرغ كل شيء، وحين نتسلّم شحنات الأسلحة، كانت جيبات الميليشيا تطوّق المنطقة بأكملها، بانتظار عملية تفريغها التي لا تتم إلا في

ساعات الليل، في ظلمة تامة يُمنع تمزيقها حتى بوهج سيجارة. بعد النوبة الليلية، كنت أعود إلى المنزل وأنام طوال النهار، بينما تطهو أمي وتتذمّر. المهام القليلة التي كنت أقوم بها في المرفأ لم تكن تكفي لشراء السجائر، ولا لإرضاء أمٍّ متذمّرة ولا حتى لتأمين الطعام. إلى أين أذهب؟ من عساي أسرق أو أخدع أو أتوسل إليه، أو أغريه أو أعرّيه أو ألمسه؟

كنت أجلس في غرفتي أتأمل الجدار المكسو بصور أجنبية، ملصقات باهتة لمغنين مراهقين، لشقراوات ذوات أسنان بيضاء متلألئة، وللاعبي كرة قدم إيطاليين. قلت في نفسي: لا بد لروما أن تكون مكاناً جيداً يتجول فيه المرء بحرية. فالحَمَام في ساحاتها يبدو سعيداً وسميناً.

فكرت في عرض جورج وفي آلات البوكر، فقررت زيارته في العمل.

مشيت في الأزقة الصغيرة وأنا في طريقي إلى الكازينو. مررت بالقرب من أم سامي، الخياطة التي تركها زوجها من أجل خادمةٍ مصريّة. كانت تغرز الإبر في فستان زفاف عروس شابةٍ ستتزوّج في كنيسة صغيرةٍ، أجراسها ليست سوى تسجيل لقرقعةٍ بائسةٍ تصرّ كأسطوانةٍ تعود إلى العام ١٩٣٠. ارتضى والدها مهندساً كنديّاً في مقتبل العمر صهراً له. وانشغلت والدتها بتحضير العجين وتجميع الكراسي وتقطيع البقدونس لليوم الكبير. وراح شقيقها يخطط لإطلاق النار في الهواء احتفالاً بفض بكارة شقيقته رسمياً، وتولّى قريبها إيصالها بسيارته الطويلة الملمعة إلى

الكنيسة ومنها إلى السفينة لتركب البحر الأبيض المتوسط، ذاك البحر الممتلىء طغاةً وحطاماً من سفينة قرصانٍ وعظام عبيد ومياه بواليع متدفقة وفوط نسائية فرنسية.

قبالة الخياطة، كان البقال أبو دولي يلوّح ليبعد الذباب عن وجهه، فتجذبه على الفور خضره العفنة. أما أبو عفيف، فكان يلعب النرد مع ابن شقيقه أنطوان. كانت كلود لا تزال تبحث عن زوجٍ لها، لكنني لن أكون ذاك الزوج! لن أكون!

كانت السماء مصبوغةً بلونٍ أزرق داكن، ومنها تساقطت الرصاصات والقذائف عشوائياً. مشاهدة السماء تعلو أرضنا كانت بمثابة رؤية الموت متوجهاً ناحيتك أنت. أنت، بقعة الماء على شارعٍ ملتوٍ، البحر المالح بسمكاته الحمر، الترمبولين الذي يتقافز فوقه الأولاد؛ أنت، الثياب الداخلية المزخرفة التي ترتديها ذوات الأصابع المطلية، الغطاء الماسيّ لخنجرٍ مقوّس، أنت...

كنت ماراً بالقرب من منزل نبيلة حين قررت زيارتها. فتحت لي الباب. ابتسمتُ ووقفت جامداً لم أنطق بأي كلمة، كنت أتنفَّس فقط.

ـ أتبحث عن صديقك مجدداً؟

ـ كلّنا أصدقاء هنا.

ابتسمت، ضحكت، وهزت رأسها ثم دعتني إلى الدخول.

جلستُ مثاراً كتلميذ مدرسة على وشك بلوغ النشوة.

ـ أتريد قهوة؟

قلت نعم وأنا أنظر إلى فستانها الشفاف، الذي تتخلّله فخذان مكتنزتان مستديرتان، وأطراف ملابس داخلية ترسم الحدود ما بين مؤخّرتها الرائعة ووركيها.

دخلت المطبخ فتبعتها.

ـ سأذهب لرؤية جورج.

ـ في العمل؟

ـ أجل.

إن كنت تعلم أنه في العمل، فَلِمَ جئت إلى هنا؟

ـ فكّرت في أنك قد تودّين إرسال شيءٍ إليه، كشطيرة مثلاً أو تفاحة.

اقتربت مني وقرصت خدي الأيسر ثم قالت:

ـ زيارتك لخالة صديقك المفضل وهو في العمل ليست بهذه البراءة أيها الشاب!

أمسكتُ بيدها فحاولَتْ سحبها. ظللت ممسكاً بإصبعها الصغيرة وسحبتها ببطء نحوي. ابتسمَت. قبّلتُ عنقاً تفوح منه رائحة كريم التجميل والحليب وسيجار موظفي المصارف المكتنزين. تركتني أجول بشفتيّ على عنقها، ثم بسطت كفّها على صدري ودفعتني بلطف بعيداً عنها.

ـ القهوة على النار وعليك بالمغادرة أيها الشاب.

كان جورج ينتظرني. توجهت نحوه وأنقدته خمسين ليرة.

خاطبته همساً:

ـ تظاهر بأنك لا تعرفني.

ـ أيّ آلةٍ تختار؟

ـ ماذا تقصد؟

أجاب وشيءٌ من الغضب يعتريه:

ـ أيّ آلة؟ سأحوّل المال إلى تلك الآلة.

ـ آه حسناً. أريد رقم ثلاثة.

توجّهت نحو الآلة رقم ٣، حيث كان في انتظاري، على الجانب الأيمن في أعلى الشاشة، رصيد بقيمة خمسين ليرة.

لعبت بـ ٢٠ ليرة وخسرت. عدت إليه وأخبرته بأنني أريد استعادة رصيدي المتبقي، أي الليرات الثلاثين.

أعطاني إيّاها.

عدت إلى المنزل وفكرت في ضرورة إيجاد طريقة.

تساقطت عشرات آلاف القذائف كالكلل على أرض المطبخ، وكانت والدتي لا تزال تطهو.

أما والدي فكان لا يزال مطموراً في التراب، المسيح وحده الذي قام، حقاً قام، هكذا يقولون. لم أعد أتوقع ظهوره عند الباب ليتوجه بهدوءٍ وسكونٍ إلى المطبخ ويجلس إلى المائدة منتظراً والدتي لتقدم إليه السلطة مع الخبز الرقيق، فالأموات لا يعودون.

عشرات آلاف القذائف جعلت أذنيّ تصفران، ومع ذلك رفضت النزول إلى الملجأ.

قالت لي والدتي: «سبق أن خسرت العديد من أحبائي. انزل إلى الملجأ».

إلا أنني لم أفعل.

عشرات الآلاف من السجائر لامست شفتيّ والملايين من جرعات القهوة انصبت في حلقي الأحمر. كنت أفكر في نبيلة وفي آلات البوكر وفي روما. وكانت تراودني فكرة مغادرة المكان. أشعلت آخر شمعةٍ وشربت من الإبريق. فتحت البراد وأغلقته مجدداً. وجدته فارغاً دالفاً. كان الهدوء يخيّم على المطبخ فمذياع أمي مدفون في الملجأ، يسلّي الجرذان والعائلات المكدّسة.

حين تساقطت القذائف، أمسى الملجأ بيتاً، قصراً من الحلوى ومخيّماً يلعب فيه الأولاد. أضحى مزاراً، مطبخاً ومقهىً. أصبح مكاناً صغيراً معتماً وحميماً مع فرنٍ وحاشياتٍ من المطاط الإسفنجي وألعاب. لكنه كان محشوّاً، وكنت أفضّل الموت في الهواء الطلق.

سقطت قذيفة في الزقاق المجاور. سمعت صراخاً. لا بد أن أنهاراً من الدماء تسيل الآن. تقول القاعدة أن ننتظر ريثما تسقط القذيفة الثانية فانتظرت. القذائف تنهمر أزواجاً، كالسياح القادمين من غرب أميركا إلى باريس. وقعت القذيفة التالية فخرجت من الشقة على مهل. هبطتُ الدرج وعبرت الزقاق الخلفي، يقودني

العويل ورائحة البارود والحجارة المبعثرة. وجدت الدماء بالقرب من فتاة صغيرة. كان طوني المقامر قد وصل قبلي بسيارته استعداداً للانطلاق. كان نصف عارٍ ويقول متأتئاً يا عذراء يا والدة الله. يا عذراء يا وـ ا ـ ل ـ د ـ ة الله. ظلّ يكرّر كلماته بصعوبةٍ، بنفسٍ متقطّعٍ، وبجسدٍ هامد. حملت الفتاة الصغيرة. كانت والدتها تنتحب. تبعتني بهستيرية إلى مقعد السيارة الخلفي. خلعتُ قميصي ولففتُه حول ضلوع الفتاة الدامية. قاد طوني سيّارته نحو المستشفى بسرعة البرق. أطلق العنان لزمور سيارته. كانت الشوارع خاليةً وبدت المباني غريبة وغامضة. سالت دماء الفتاة على إصبعي ومنها إلى رجليّ. كنت أسبح في الدماء، دماء حمراء داكنة، أكثر نعومة من الحرير، وأكثر دفئاً على اليدين من مزيج الماء الفاتر والصابون.

غدا لون قميصي بنفسجيًّا ملكيّاً. صرخت منادياً الفتاة، لكن قميصي كان يمتصّ دماءها. لو أنني عصرته لملأت به البحر الأحمر وغطّستُ فيه جسدي، طالبت بملكيّته، مشيت على شاطئه وجلست تحت أشعة شمسه. كانت يداي تضغطان على جرح الفتاة المفتوح. غابت عن الوعي، انقلب جفناها واستحالت عيناها وسادةً حالمةً ناعمةً بيضاء.

كان رأسها متّكئاً على ثدي والدتها الممتلىء، وقد اعتمدَت صلاة طوني نفسها فراحا يردّدان: يا عذراء يا والدة الله. يا عذراء يا والدة الله. فكرت في نفسي أن الصغيرة ستذهب إلى روما، روما. يا لها من فتاةٍ محظوظة. وأطلق طوني نفيراً حزيناً في وداعٍ لفّ الشوارع الخالية.

في الصباح التالي، كنت سألتقي جورج عند الزاوية، قرب اللحام شاهين. كانت النسوة في طابورٍ، ينتظرن اللحمة. في الداخل، عُلق الماعز بعد أن سُلخ جلده، فتناثرت شرائح من اللحم الأبيض والأحمر إلى الأعلى. شرائح قطّعت، سحقت، ضربت ثمّ قطعت مجدداً، هرست، وضعت في أكياسٍ من الورق وسلّمت إلى النسوة الواقفات في الطابور. نسوة يرتدين الأسود، وجوههن حزينة كلوحات زيتية ميلودرامية. يقفن بخشوع روّاد الكنائس، بهول عيد الوجوه المقنّعة، بجوع الوحش البشري ينهش جسد المسيح، بتشنّج القديسات العذراوات الحائضات، وبوضعيّاتهن المنغلقة المحكمة، جاثيات على ركبهنّ تحت رحمة السكاكين واللّحامين الأميّين.

الذباب ذو الرأس الأحمر يحوم في كل مكانٍ، دماء الحيوانات مراقة على الأرض، وسكاكين اللحام مغروزة في الجدران الصفراء الملطّخة. توقّف القصف فخرجت النسوة من جحورهنّ ليجمعن اللحم الطريّ لأزواجهن العاطلين عن العمل، كي يغرزوا فيه أسنانهم الملطّخة بالنيكوتين ويتخموا به بطونهم المنتفخة.

كان جورج يمشي متجهاً صوبي. حين رأيته، لوّح لي. أوقفه رجلٌ في بدلة ميليشيا خضراء. تصافحا وطبع جورج على خدّه ثلاث قُبَل.

وأنا في انتظاره، راقبت الذباب يستريح فوق الفسيفساء التي تشكّلت على الأرض ويقتات على قطرات دماء مشبعة.

سألته: من هذا؟

ـ خليل. وهو يعمل مع أبي نهرا.

ـ قد لا يكون مستحسناً أن يرانا معاً.

قلت ذلك وأنا أفكر في آلات البوكر.

ـ نادراً ما يأتي إلى الكازينو. لا تقلق.

ـ ثمة طريقة ممكنة «لجني» المال، وقد تكون مهمّةً سهلة. سآتي لأدفع لك المال وحوِّله أنت إلى رصيدٍ في الآلة وأنا ألعب. هل تحتفظ الآلة بسجلات؟.... أعني إن ربح أحدهم، هل تحتفظ بسجلٍّ للضربة الرابحة في مكانٍ ما؟

ـ لا. لا أظنّ ذلك.

ـ علينا التأكّد. سأمرّ نهار الإثنين. يمكننا المحاولة. أضف الرصيد وأنا ألعب. أضف مبلغاً صغيراً فقط، من باب المحاولة.

ـ تعالَ في الصباح الباكر... فالكازينو يكون خالياً في هذا الوقت.

ـ أرتئي أن نتوقّف عن اللقاء علناً.

حضرتُ مأتم الفتاة الصغيرة. تلك الفتاة التي كانت في طريقها إلى روما. كانت أمّها تنتحب، ونسوة محجبات يملأن الزقاق الصغير. حضرت أمي المأتم أيضاً وهمست لي بنبرة واعظٍ: «يحضرون مأتمنا ونقوم بالمثل».

عاد والد الفتاة من السعودية حيث عمل في حقول الرمال

والنفط الحارة. توجّه إلى الأمام وهو يعقد يديه الغليظتين، ووجهه الذي لفحته الشمس يتصبَّب غضباً، وعيناه القاتمتان مغرورقتان بالدموع. وراح يجرّ قدميه جرّاً على الغبار والرمل. حمل أقرباء الفتاة وجيرانها تابوتها الصغير الأبيض ومشوا طويلاً نحو المقبرة. لمع الصندوق الخشبي الأبيض، حين غمرته أشعة الشمس. برق الخشب والمعدن؛ وبكى الجميع. حتّى أنا.

على مهل مشى رجالٌ في بزّاتٍ رماديةٍ وربطات عنق سوداء ومرّوا بالقرب من المخازن المقفلة وأحنوا رؤوسهم المثقلة على الأرض.

كان طوني ورائي، يخبر قصة عن القيادة والموت والمستشفيات بتأتأة. وجوهٌ أليفةٌ يلفّها الحزن تحيط به. ووراءنا كانت الأمّ تغيب عن وعيها، وتتمسّك بأذرعة النسوة، اللواتي يدفعنها إلى الأمام ويصفعنها ثم ينثرن ماء الورد على وجهها وهن يضربن على صدورهن، وينشدن أغاني الزفاف والوداع. كن ينتحبن ويلوّحن بمناديل بيضاء عالياً في الهواء، نحو برج بيزا المائل.

٣

توجهت صباح الإثنين إلى مكان عمل جورج. لم أجد أحداً سواه. دفعت له المال وأنا ألعب فزاد الرصيد في آلة البوكر. نجحنا! أخذت المال وغادرت.

وفي المساء، التقينا على درج الكنيسة. قلت له: لننتظر ونرَ إن لاحظوا شيئاً ما. فقد تكون لديهم طريقةٌ ما. إلا أنّ المبلغ ليس بهذه الأهمية وإن اكتشفوا الأمر، نقول لهم إنه مجرد خطأ.

أخذت حصتي وافترقنا.

في طريق العودة مررت بمنزل نبيلة. كان منزلها يغوصُ في الظلام، بل المدينة بأكملها. ولا مياه باردة، حتى المثلّجات ذابت في البرّادات المكعّبة الشكل. كما أن الرجال المسنين شربوا الويسكي بلا ثلج. رأيت رنا جارتنا. لم أعرفها للوهلة الأولى.

ـ «بونسوار».

ـ «بونسوارين». إلى أين تمضين في هذه العتمة والشال الحريري يلفّ كتفيك؟

ـ إلى المتجر لشراء الشمع.

ـ لك هذا الوجه ويلزمك شمع؟

ضحكت وقالت:

ـ عد إلى منزلك واحذر التعثُّر على الدرج. فالظلام دامس.

ـ هنالك قمرٌ قريب.

ـ لكن الظلمة لا تزال حالكة.

ـ يمكننا إضاءة شمعة.

ـ أين؟ في منزل والدتك أم في منزلي؟

وضعت يديها على وركيها المستديرين وانسدلت ضفائرها على كتفيها. انتظرت ردي، وهي تحدّق إليّ بعينيها السوداوين الواسعتين.

ـ في روما.

ـ ماذا؟

لم أجبها ومضيت إلى الجهة المقابلة من الشارع.

حظيَ جارنا سعد بفيزا إلى السويد.

أقام حفلةً في الليلة التي سبقت مغادرته. قرع بابنا ودعاني إلى حفلة الوداع، وقال لي وهو يهزّ رأسه:

ـ سأذهب إلى ستوكهولم. أجل إلى هناك.

في تمام السابعة من تلك الليلة، ذهبت إلى منزله والجوع

يجتاحني. كانت والدته قد حضّرت المازة، فقطعت الخبز وغمّست أصابعي في صحونٍ صغيرةٍ مستديرةٍ بنية اللون. كانت الكهرباء لا تزال مقطوعةً إلا أن الشموع مضاءة والمصباح الذي حامت حوله ذبابات أتت من عند اللحام، فاحترقت. حضر الحفل شقيقه شاكر، الذي رأيت فيه الحماقة والغرور، وأيضاً قريبته مريم ووالداه وبعض من أقربائه وأصدقائه وجورج الذي كان يشرب ويدخّن بسكون.

نظرت إلى جورج فابتسم لي.

ألقى بعض الحاضرين دعاباتٍ عن السويد وعن النسوة السويديات الشقراوات والطقس البارد.

وراح رجل ذو يدين قرويتين غليظتين وعنق صلبة، يغني بلهجة جبلية.

انضم إليه أفراد عائلة سعد فشرعوا يغنّون أغنيات غريبةً عنّي. أغنيات قروية لم أسمعها قط، عن الوداع والعودة والزفاف، أغنيات تحذِّر من الزواج بنسوة أجنبيات: نساؤنا هن الأفضل في العالم، لن يطعنّ بكرامتك. أرضنا هي الأخصب. ارحل لجمع المال، ثم ارجع... وستكون في انتظارك.

لكن من يغادر لا يعود أبداً. هكذا غنّيت في قلبي.

شرب جورج كثيراً. ضحك وتغزّل بقريبة سعد ممّا أثار غيرة شاكر وغيظه لأنه سبق أن طلب يدها للزواج ولكنّها رفضت. كانت في مقتبل العمر، لها وجنتان حمراوان وساقان طويلتان.

ما بين القيم الريفية تحاول جاهدةً التباهي بالتصرّفات المدنية التي اكتسبتها مؤخّراً. فسعد وعائلته لاجئون فرّوا من بلدةٍ صغيرةٍ بعد أن تعرَّضت لهجوم عصابة مسلحة قتلت عدداً من قروييّها وفلاحيها.

بدا جورج ثملاً في وقتٍ متأخرٍ من ذلك الليل. جررته على الدرج، فالشارع، فتقيّأ على حافته.

جرّب الوصول إلى درّاجته، لكنني منعته، فحاول لكمي. أمسكت بيديه وتكلّمت معه لعلّني أهدِّئه، طالباً إليه عدم الصراخ. سحبته إلى منزل خالته. تركته مستلقياً أسفل الدرج وهرعت إلى منزل الخالة نبيلة. طرقت الباب ففتحت مذعورةً.

ـ من هناك؟ هل جرجورتي بخير؟ من؟ يا مريم العذراء، ساعدينا! من هناك؟

ـ لا أحد ولم يمت أحد. لكن جورج ثمل قليلاً ومريض.

ـ أين هو؟

ـ تحت.

هبطت نبيلة الدرج، لا تكاد يدها تلمس الدرابزون.

كانت نصف عاريةٍ والخوف يسكنها. ربّتت بلطف على وجنتيّ جورج، ثمّ لثمت أطراف أصابعه.

حملناه معاً على الدرج. نظَّفَتْ وجهه ويديه، وخلعت عنه القميص والبنطلون وتركته ينام على سريرها الخاصّ، وغطّته ببطانيّة قديمة.

جلستْ على الأريكة وشرعت تبكي.

ـ أنا دائمة القلق عليه. يرنّ الهاتف في وقتٍ متأخرٍ من الليل، فيتراءى لي أن أحدهم قد مات. إنه يحمل مسدّساً. لِمَ؟

ـ يلزمه في العمل.

ـ عليه أن يرجع إلى الدراسة، وأنا أدفع القسط. اطلب إليه العودة إلى المدرسة.

عرضت عليّ ارتشاف القهوة فقبلْت. توجّهَت إلى المطبخ وهي تمشي على رؤوس أصابعها. صبّت الماء في الركوة ثمّ أضافت القهوة والسكّر بملعقةٍ صغيرة. جعلت القهوة تغلي ثلاث مراتٍ وأحضرتها على صينيةٍ من القصدير. تركتها ترقد قليلاً، كالنبيذ، قبل أن تصب بعضاً منها في فنجانٍ صغيرٍ لي.

شربتُ القهوة ونبيلة تراقبني.

ـ هل هي حلوة كفاية؟

ـ نعم.

ـ قرأتُ فنجان جورج ذلك اليوم. كان مظلماً. مظلماً للغاية. دعني أقرأ فنجانك.

أجبت همساً:

ـ لا أؤمن بهذه الأمور.

حملَت فنجاني ونظرَت إلى داخله، فرأت أمواجاً وأرضاً بعيدةً وامرأةً وثلاث إشارات.

ـ الخرافات المعتادة.

ـ لا! فأنا أراها. تعال إلى هنا. أترى؟ هذه هي الطريق وهوذا البحر وتلك هي المرأة. أرأيت؟

ـ لا، لكن...

كانت رائحة الليل تفوح منها. وضعتُ يدي على ركبتها فحملتها ودفعتها إلى صدري.

ـ لا يا بسّام. اذهب إلى منزلك.

ثمّ قبَّلت يدي وكأنني طفلها.

ـ اهتمّ بجورج، واطلب إليه أن يعود إلى الدراسة. وعليك أنت أيضاً العودة إلى الدراسة، فأنت ولدٌ ذكيٌّ وتحب القراءة. كنت في صغرك تتلو القصائد مع عمّك.

ـ تصبحين على خير.

ـ اهتمّ بجرجورتي.

تبعتني إلى الباب.

مضيت إلى منزلي، واستسلمت للنوم. استيقظتُ وكان سعد قد سافر إلى السويد.

سقطت القذائف وتعارك المحاربون وأكل الناس فتكدّست النفايات عند ناصية أحد الشوارع. كانت الكلاب والقطط تقتات

عليها فغدت أسمن. غادر الأغنياء بلادهم إلى فرنسا، وتركوا كلابهم تهيم في الشوارع. كلابٌ يتيمةٌ، ثمينةٌ، ومدرّبةٌ على قضاء الحاجة. كلاب بأسمائها الفرنسية وقلاداتها الحمراء التي لها شكل الفراشات. كلاب زغبة الفراء، تتحدّر من سلالاتٍ أصيلة، كلابٌ صينيةٌ، معدّلة جينيّاً، تتزاوج وتسير معاً في زمرٍ تغطّي الشوارع بالعشرات؛ وقد تجمعت بإمرة كلبٍ مهجّنٍ جميلٍ بثلاثة قوائم. أغلى قطيعٍ من الكلاب البرية يجوب بيروت والأرض، وينبح للقمر الكبير ويأكل من جبال النفايات القائمة على نواحي الشوارع. مشيتُ على مقربة من تلال النفايات، فدفعتني رائحة العظام ورؤية كل ما هو عفن ومقزّز أن أهرع بلا هدفٍ نحو محطة البنزين، حيث تقبع صفوف طويلة من السيارات تنتظر ملء خزّاناتها بالوقود.

رأيتُ خليل، صديق جورج، في جيبٍ للميليشيا بلا سقفٍ أو نوافذ. قاد مباشرةً نحو المحطة المكتظّة وأوقف سيّارته. ترجّل منها وأطلق رصاص بندقيته في الفضاء. صرخ في الناس ولوّح بيديه آمراً إبعاد سياراتهم عن الطريق. أطلق المزيد من الرصاص مبعثراً العربات أمامه. اقترب من المحطة بسيارته، فملأها ورحل.

في تلك الليلة، صعدت إلى السطح. لم يكن هناك قذائف تنفجر كالنجوم المتصادمة. تأمّلت ظلام السماء الهادئة التي أحسست وكأنها تمركزت فوق رأسي مستنقعاً مقلوباً عكر المياه وبأن كل شيءٍ سيقع، وكأن كلّ شيءٍ سينثر العتمة ويغرق. كان على السطح خزان مياهٍ ضخمٍ تعوّدت أن أخبّىء تحته بعض

أشيائي. سحبت من تحته قطعة من خرطومٍ، لففتها حول خصري وانتظرت قدوم جورج.

كان القمر بدراً يطوف فوق المدينة.

شاهدنا أنا والقمر أنوار الشموع تتلألأ بسكونٍ داخل غرف الفتيات العذراوات، وهنّ يرتدين ملابس النوم ويصعدن على أسرتهنّ المفردة لتريح كل منهن رأسها وشعرها المسرّح على وسادة من ريش الإوزّ، حشتها جدّتها التي تحمل اسم جميلة أو جورجيت. عذراواتٌ غطين شعور عاناتهنّ بالقطن وشراشف الحرير، وحلمن برجالٍ ذوي بشرة بيضاء خالية من الشعر، يقودون سيّاراتٍ رياضية ويرتدون بذّاتٍ بسيطة ويخبروهنّ سرّاً، قصصاً خيالية بلغةٍ أجنبيةٍ، جاعلين أصابعهنّ الصغيرة تلتفّ تحت الأغطية فرحاً، بعيداً عن عيون أمهاتهن.

شريكي في هذا هو القمر البذيء فهو الذي يشعّ نوره وأنا أشاهد.

وصل جورج. مضينا إلى سرسق، وهو حيّ بورجوازيّ قديمٌ فيه خادمات يعملن لدى ربّات منازلٍ ثريّاتٍ يرتدين الفساتين الفرنسيّة ويملكن الخزانات الكبيرة التي تستطيع التجوال فيها لتجدها مليئةً بالأحذية الجلديّة. يملكن أيضاً شققاً في باريس، وأزواجاً يستوردون السيجار والمستوعبات وقطع السيارات ويسعلون في المصارف السويسرية أمام مكاتب من خشب الموهوغوني، يشغلها أبناء أشقاء وشقيقات أصحاب مصانع الشوكولاتة، وأحفاد مالكي حقول كاكاو أفريقيّة، يعمل فيها

عمال بأصابعٍ متورّمة يكدّون تحت حرارة ألف شمسٍ، يكدّون حتّى أيّام الجمعة والأحد.

يتناول هؤلاء الأزواج الطعام في مطاعم فاخرة، وينزلون فنادق فخمة فيها أسرّةٌ واسعةٌ ومنظّفاتٌ برتغالياتٌ ومناشف سميكة. ينفثون دخان السيجار الكوبي السميك، ويستطلعون الوقت على ساعاتهم المستديرة الذهبية. يتفوّهون بكلمات نجسة على غرار «شحنات» و«فواتير»، حول كؤوسٍ من الكونياك، وفي مصاعد تنبعث الموسيقى منها. كلمات ترتدّ عن المرايا وعن رؤوس السقاة الصلع، مع مومسات يتقنّ عدة لغات تتراقص أقراطهن الفضية الطويلة على بذّات كبار الموظفين، بينما ترتسم المرارة والضجر على محياهنّ.

قلتُ لجورج:

ـ السيّارات الأميركيّة الصنع ليس على خزّاناتها أيّ أقفالٍ. وهي الأفضل لتفريغها من البنزين.

توقّفنا قرب سيارةٍ من نوع «بويك» بيضاء اللون. سحبت الخرطوم من خصري ونفخت فيه فأصدر صفيراً. ضحك جورج. أعدت الكرّة مرّاتٍ عديدة وحدث الأمر عينه. فتحت غطاء خزّان البنزين فيما طرح جورج درّاجته على جانبها. أدخلتُ الخرطوم في خزان البنزين فانزلق داخله بيسر تماماً كما تنسلّ الأفعى داخل جحرها. وضعتُ شفتيّ على آخر الخرطوم وامتصصت منه البنزين الذي تدفق إلى أسناني. وجّهت الدفق ناحية خزّاننا

وملأناه. زحفنا، من ثَمَّ، ولذنا بالفرار، واختفينا في ليلٍ من ضباب وندى. جعلني طعم البنزين في حلقي أشعر بالغثيان، فتوقّفنا عند متجرٍ، وابتعت بعض الحليب وشربته، وما لبثت أن تقيّأتُ خبزاً وسمّاً بين سيّارتين تآكلهما الصدأ.

صباح الخميس، مررتُ بجورج مجدداً. أعطيته بعض المال ووقفتُ على مسندٍ للقدمين قبالة آلة البوكر ولعبت. رأيت رصيدي يزيد على الشاشة. وعلى بُعد آلتَين مني رجل مسنٌّ غير حليق يدخّن سيجارةً ممّا جعل أجفان عينيه المغضَّنة ترتعش. كان يضغط الأزرار حتى دون أن ينظر إليها.

حاولتُ تقليده في سرعته وسلوكه اللامبالي وخبرته بالقدر والحظّ وعدم اكتراثه للخسارة وصمته ورباطة جأشه. كان يقف على المسند وكأن جسده المهزوم مشدودٌ بحبال تتدلّى من الأعالي، وترفع يديه، ثمّ تدعهما تقعان لاشعوريّاً على الأزرار البلاستيكية المستديرة.

قابلتُ جورج في منزله ذاك المساء. كان يعيش وحيداً، بالقرب من الدرج الفرنسي، داخل منزلٍ حجري قديمٍ لا يزيّنه إلا القليل القليل من الأثاث وصورة لوالدته المتوفّاة تحت سقفٍ عالٍ وفراغ. لم يأتِ على ذكر والده قطّ. قيل إنّ والده فرنسيّ جاء إلى أرضنا، زرع بزرته داخل رحم أم جورج الشابّة، وعاد أدراجه شمالاً كالعصفور المهاجر.

سحبت المال الذي جنيته في الصباح، وأعطيته نصفه.

جلسنا في غرفة الجلوس، على أريكة قديمةٍ بين الجدران التي تتقاذف الصدى. تكلّمنا عن الدسائس همساً، وتبادلنا المال. شربنا البيرة، ولففنا الحشيشة داخل ورقٍ أبيضٍ دقيقٍ، وأثنيتُ على روما.

ـ روما؟ اذهب إلى أميركا. فلا مستقبل في روما. نعم هي جميلة، لكن أميركا أفضل.

ـ ماذا عنك؟ هل ستبقى هنا أم سترحل؟

ـ سأبقى. فأنا أحبّ المكان هنا.

أدار الموسيقى، فغنّينا مع الأغاني وشربنا.

ـ عليّ إصلاح درّاجتي وإبدال العادم. مُرَّ بالكازينو صباح الثلاثاء، يمكنك أن تلعب مجدّداً. فلن يضرّنا المزيد من المال. وخذ وقتك، ذلك أنك بدوتَ المرّة الماضية وكأنك تلزم جانب الحذر. لا تقلق إن أتى أبو نهرا أو أحد رجال الميليشيا. وإذا ما حدث أي طارىء أحضر لك ويسكي بلا ثلج وستكون ذلك إشارة لتغادر. أفهمت يا رجل روما؟

كنا مخدّرين، نشعر بالنعاس وبالثراء.

نمت تلك الليلة على أريكة جورج ونام هو على سرير والدته.

استيقظتُ حين نشر الفجر شعاعه على عينيّ البنّيتين، وفتح جفنيّ ليحثّني على المغادرة.

كان جورج لا يزال نائماً، مسدّسه مرميّ على الطاولة، والمال مخبّأً قابع تحت ثقله. قلت في نفسي: لن تستطيع أعتى الرياح أن تزحزح المال من مكانه. حين غادرت منزله كانت المدينة هادئةً، تفرش شوارعها غبائر الصباح، والسيّارات المتوقِّفة. كانت كل المتاجر مغلقة ما عدا صافي، الفرّان الذي يفتح مبكراً. ابتعتُ منقوشةً منه وأكلتها. لم تكن سيّارات الأجرة قد بدأت بالتدافع بعد، كما لم تكن المخازن قد فتحت أبوابها المعدنيّة، ولم تكن النسوة يغلين القهوة، ولم تُحمّل الخضر على العربات. ولم تكن الأحصنة تركض ولا المقامرون يراهنون. ولم يكن المحاربون ينظّفون مسدّساتهم.

كان الجميع نياماً. بيروت المدينة، كانت لا تزال آمنةً حتّى الآن.

٤

سقطت عشرة آلاف قذيفةٍ وأنا أنتظر قدوم الموت ليغرف حصّته اليومية من الأوصال والدماء. نزلتُ إلى الشارع تحت وابل من القذائف فلم أر أحداً. مشيتُ فوق بشرٍ يختبئون في ملاجىء أشبه بمستعمرات جرذانٍ تحت الأرض. مررت بصور شبابٍ غادروا، معلّقة على أعمدة الكهرباء الخشبية، وعلى مداخلِ الأبنية تحتضنها مزارات صغيرة.

كانت بيروت أهدأ مدينةٍ إطلاقاً خلال حرب. مشيت وسط الطريق وكأنها ملكٌ لي. مشيتُ عبر أهدأ مدينةٍ، عبر مدينةٍ خاوية أحببتها.

يجب إفراغ كلّ المدن من البشر لتسكنها الكلاب.

سقطت قذيفةٌ على مقربة. بحثتُ عن أثرٍ للدخان وانتظرتُ تعالي النحيب والصراخ لكن شيئاً لم يحدث. قد أكون من أصابته القذيفة. ربّما كنتُ الميت المُلقى على مقعد السيّارة الخلفيّ. وربّما كان دمي هذا الذي يتدفّق ينابيع صغيرةً فرحةً تجفّفها ثياب غريب. ربما كان دمي هذا الذي يعبّه أحد سادة الحرب، أو إلهٌ لن يُروى غليله أبداً.

إلهٌ قبَليّ تافه، إلهٌ غيورٌ يحتفل بأشلاء قبيلته ودمائها، إلهٌ يفضّل خادماً على آخر، إلهٌ خياليّ، مجنون، ووحيد سمَّمته أوانٍ من الفضة والرصاص، وألهته طقوسٌ عربيدةٌ إلهيةٌ وزيجاتٌ مدبّرة، إلهٌ يمزج النبيذ والماء ويشحذ سيفه ليسلّمه لأكباش المحرقة من أنبيائه الكثر، ولقدّيسيه وللمتآمرين المخصيّين.

على شرفة منزل امرأةٍ عجوزٍ رأيت عصفوراً داخل قفص، يستلقي تحته على الأرض قط. ورأيت كلباً جائعاً يبحث عن جثثٍ ليغرز فيها أنيابه الصريحة النسب، يبحث لينتزع اللحم عن ذراعٍ طريةٍ أو رجلٍ غضّة.

اللحم البشريّ ليس ممنوعاً علينا نحن الكلاب، فهذه القوانين لا تنطبق إلا على البشر. هذا ما قاله لي يوماً كلب بودل غير حليق. فأومأتُ له موافقاً. تابعت سيري. سمعتُ أصوات البندقيات ودوي المزيد من القذائف، إلا أنّها كانت متّجهة نحو المسلمين هذه المرة، لتوقع جرحى، وتزيد من نزف مزيد من الفتيات الصغيرات. صوت القذائف وهي تنطلق من مواقعها يدوّي أكثر مما يدوّي وهي تسقط.

وقفتُ وسط الشارع ولففتُ سيجارةً. نفثتُ الدخان فتصاعد من فمي مكوّناً حجاباً واقياً ارتدّت عنه القذائف المتوجّهة نحوي، وفرّت واثبةً على طول السماء لترحل إلى كواكب بعيدة.

خيّم الليل كما يفعل دائماً. قرّرنا، أنا وجورج، التوجّه إلى الجبال. توجَّهنا صعداً نحو برمّانا، وهي قريةٌ مرتفعة، تحوّلت إلى ملاجىء مترفة للأغنياء. كانت الحانات والمقاهي تنتشر هنا

وهناك مع طاولاتها المستديرة والندل الذين يلبّون الطلبات بسرعة. نسوة أشباه عارياتٍ مطليّات الوجوه تتمشّين على طرقات القرية الضيّقة. ورجال الميليشيا يقودون على مقربة سيارات مرسيدس تتدلّى من مراياها الصلبان. صدحت المطاعم بموسيقى الرقص العالية. دخلنا أنا وجورج نادياً ليليّاً، واتخذنا لنا طاولة. شاهدنا الأزواج يرقصون والناس يشربون، لكن من دون أن ينبسوا ببنت شفة. لا أحد لديه ما يقوله. ألا تعرف أنّ الحرب تنشر الصمت وتقطع الألسنة وتسطّح الحجارة؟

هذا ما قاله المشروب لي.

كانت رائحةُ مزيل الروائح ورائحة القمصان الحريريّة والساعات المزيّفة وكريم الحلاقة، تفوح منّا أنا وجورج. أشار إلى امرأةٍ ترتدي فستاناً أزرق.

ـ أريد هذه.

طلبتُ كأسَيْ ويسكي، بينما راح يبتسم للمرأة التي أدارت رأسها نحو صديقتها. ثمّ نظرتا كلتاهما إلينا، وضحكنا.

ـ هيّا بنا.

قال جورج، ثمّ وقف وتوجّه نحوهما. بقيتُ عند الطاولة وراح هو يتكلم مع المرأة ذات الفستان الأزرق.

دفعتُ ثمن المشروبين واحتسيتُ الويسكي وراقبتُ الجميع. كان جورج يلوّح بيديه ويلقي بصدره على كتفي المرأة. على حلبة الرقص كانت النسوة يقذفن أوراكهنّ على وقع أنغام

الموسيقى العربيّة. وضع رجلٌ ذو شاربٍ كثيف يديه على كتفيّ قائلاً:

ـ لا شيء في العالم يا صديقي. لا شيء في العالم يستحقّ العناء. استمتع بحياتك، فقد نموت كلّنا غداً. وهذا نخبك!

دق كأسه بكأسي، ثمّ دخل حلبة الرقص وهو يلوّح بيديه في الهواء بإحداهما كأس فارغة، وسيجارة تتدلّى من شفّته السفلى.

عاد جورج إلى طاولتنا وانحنى نحوي هامساً:

ـ لمَ لم تتبعني؟ صديقتها وحيدة كما أنهما قد سألتا عنك بالفرنسية حبيبي، بالفرنسية! أخذتُ نمرة هاتفها. هل هذا مشروبي؟ كان عليك أن تأتي فهما ثريّتان وستغادران الآن. لو أن لدينا سيارة لاصطحبناهما إلى شقّتي.

شربتُ، وتوجّه جورج إلى حلبة الرقص ليرقص وحده. شرب كثيراً ورقص.

أخيراً عاد إلى الطاولة ونادى النادل. أخرج المال من جيبه، دفع له، وتابع الشرب.

ـ فليذهبوا إلى الجحيم!

ـ من؟

ـ الدنيا بملائكتها!

كان قد أصبح ثملاً للغاية وهذيانياً وعنيفاً. أخرج مسدسه وصرخ:

ـ فليذهبوا إلى الجحيم!

أمسكت بيده وسحبتها أسفل الطاولة، ووجّهت فوهة المسدّس إلى الأرض، ثمّ هامسته بلطف:

ـ أرجوك بحق قبر والدتك... أنا، شقيقك، شقيقك الذي يريق الدماء من أجلك، أرجوك أن تعطيني المسدس.

قبّلت وجهه، وأحطت كتفيه بيدي في محاولةٍ لتهدئته؛ وسحبتُ المسدس بهدوء من يده، وخبّأته تحت أثمن قميصٍ حريريٍّ أملكه.

حضضته على الرحيل إلا أنّه قاوم. توسّلته مجدداً وأمطرته بأحلى الكلام وأعذب الإطراء وألطف القبلات.

ـ سيذهبون جميعاً إلى الجحيم لاحقاً. لا تقلق أبداً فسنقوم غداً بتحطيم سيّاراتهم ومراياهم وإطاراتهم الدائرية. لكن دعنا نذهب من هنا بحق الله ويسوع وملائكته.

غادرنا، وكان جورج يشتم الناس ويدفعهم ويصرخ على الطرقات.

ـ ليس لديّ لا أب ولا أمّ ولا إله يا «ولاد الشرموطة»! لديّ مال لأدفع لكنّ جميعاً يا عاهرات!

أخرج المزيد من المال من جيبه ونثره في الهواء. أبعدتُ جورج عن الطريق العام، وسحبته نحو الطريق الجانبيّ حيث تحوّلت أكواخ القرية الصغيرة إلى مقاهٍ وبيوت دعارةٍ فخمةٍ

داخلها أرائك مخمليّة، وخارجها لافتات مضيئة تتلألأ باللون الورديّ.

أوقفتُ شابّاً كان يهرول مسرعاً نحو مصدر الموسيقى، وطلبتُ إليه أن يدلّني على مكانٍ نبيت فيه أنا وجورج. فدلّني على نزلٍ توجّهنا إليه.

تركتُ جورج في الخارج يتّكىء على حافة الطريق ودخلت المكان لتأمين غرفة. وهكذا كان. صعدتُ أنا وجورج إلى الغرفة، واستلقى على السرير ونام.

كان الظلام لا يزال حالكاً في الخارج، والشوارع لا تزال مفعمةً بالضجيج. كانت اللافتات المضيئة في تلك القرية لا تزال تتلألأ جاذبةً الفتيان إليها. تجاهلت كلّ هذا الإغراء وأخذت دراجة جورج وتوجهت نحو المدينة.

أبقتني الرياح مستيقظاً، وكنتُ أقود كالرياح التي أبقتني مستيقظاً، بل أسرع من الرياح التي أبقتني مستيقظاً. كنت أهرب من المكان والزمان كالرصاصات المتطايرة. الموت لا يقترب منك حين تواجهه، فهو خائن جبان لا يلاحق إلا الضعفاء، ولا يحل إلا على العميان. كنت أطير على الطريق الملتوية منزلقاً على الطرقات الجبلية الوعرة ماراً بأضواء السيارات والأشجار المنسية والأزهار البرية التي تتسكّر ليلاً. كنت القوس مع السهم الفضيّ، حربة إلهٍ، كنت البائع المتجوّل، واللصّ الليليّ. كنت أطير على متن آلةٍ جبّارةٍ تبعثر الرياح وتلهب الأرض من تحتي. كنت الملك.

وجّه ولد صغير بندقية من عيار ٤٧ نحوي.

ـ أرني أوراقك.

أعطيته شهادة ميلادي التي دوِّن عليها سنّي ومكان ولادتي وتاريخ ميلاد أجدادي ولون عينيّ ومذهبي، والتي تحمل صورة لي وأنا أبتسم للمصوّر الأرمنيّ ناظراً إلى آلة تصويره بقياس ٤x٥ التي جاء بها والده من روسيا، وحملها عبر الصحراء السورية، بينما ذبح الأتراك الفتيان أقاربه عند المداخل، ووجَّهوا بندقياتهم نحو الصلبان العالية، وقتلوا كل الماعز، وغنوا الأناشيد العصرية المجيدة.

ـ من صاحب هذه الدراجة؟

ـ إنّها لصديقي.

ـ ارفع ذراعيك.

ففعلت، وفتّشني الولد. وحين لمس مسدّسي وضع يده على حلقي وأخذه منّي بسرعة. تراجع خطوةً، ووجّه بندقيّته نحوي قائلاً:

ـ ترجّل عن الدراجة ببطء واستلقِ على الأرض.

أطعته.

ـ من هو صديقك؟

ـ اسمه جورج ولقبه «دي نيرو».

ـ هل تحمل رخصةَ حمل سلاح؟

ـ لا.

ـ انتظر هنا وابقَ على الأرض. لا تتحرّك شعرة وإلا أطلقتُ النار عليك.

نادى على مسؤوله، فأتى نحوي رجل ثلاثيني له شاربان ولحية، يرتدي قميصاً أسود وينتعل حذاءً خاصاً بالجيش. حمل مسدّس جورج بيده ولوّح به وكأنّه ملكه.

سألني، وهو يوجه المصباح إلى وجهي.

ـ هل هو مسروق؟

ـ لا.

ـ ما اسمك؟

ـ بسّام.

ـ أين تقطن؟

ـ في الأشرفية.

ـ ماذا تعمل؟

ـ أعمل في المرفأ.

ـ إذاً أنت لصّ.

ـ لا.

ـ بلى. تعمل في المرفأ وتسرق الأشياء، أليس كذلك؟ أنت لصّ.

ـ كلّنا لصوص في هذه الحرب.

ـ أتجيبني بوقاحة؟!

صفعني وجرّني ودفع بي داخل سيارة الجيب الخضراء. كان يلهث كالضبع، وهو يلوّح بالمسدس فوق الرمال والأرض.

مرّت ثلاث ساعاتٍ وأنا لا أزال أنتظر في المقعد الخلفي من الجيب. عند بزوغ الفجر، عندما محت شمس الصباح الباكر آثار الليل، راسمة السماء بألوانٍ زاهيةٍ، قاد فتى الميليشيا الدراجة مبتعداً وتوارى وراء التلال. تفكّك حاجز التفتيش، وإذا بي داخل جيبٍ متحرّكٍ، أشعر داخله بهواء الجبل العليل، وبالجوع يسيطر عليّ.

كان رجل الميليشيا الجالس في الأمام يقود كالمجنون، وكأنه يسرع ليوصل جريحاً إلى المستشفى. طارت السيّارة في الهواء فطار جسدي معها وارتطم بالمقاعد. تعلّقت بالقضيب المعدنيّ كالقرد الذي يتشبّث بالغصن، فتأرجحت، بينما طارت قدماي وكأنّهما حوافر حصانٍ راقص. قاد رجل الميليشيا عكس السير عابراً طريقاً ضيّقة باتجاه واحد، ممّا أجبر السيارات الأخرى على التراجع في هلع. داس على المكابح فصرّت الإطارات على الأسفلت، وانزلقت يداي عن القضيب، وطرتُ عن المقعد الخلفي، الأمر الذي جعلني أئنّ من الألم. خرج رجل الميليشيا من الجيب وشهر مسدّسه مصوَّباً إلى أعلى، وأطلق النار في الهواء. شرعت السيارات القادمة نحوه بالتراجع وهي تطلق نفيرها بذعر. وقف في وسط الطريق مباعداً بين قدميه، مسدّسه في

الهواء، كتفاه منخفضتان، ورأسه في اتجاهٍ واحدٍ، وكأنّه صفّ من القرميد. أسدل ذراعه وانتظر. ثم رفعها مجدداً وأطلق المزيد من الرصاص. حين أصبحت الطريق سالكةً، صعد مجدداً إلى الجيب وشتم كلّ القدّيسين المسيحييّن في جملةٍ مختصرةٍ واحدةٍ، وقاد صُعُداً إلى التلّ، نحو قاعدةٍ عسكرية. اقتادوني إلى مكتب علّق على جداره صورة القائد الأعلى المعروف باسم «الريّس»، استطعتُ رؤية شجرة أرز وعلم خلفها.

ـ اجلس. لمن هذا المسدّس؟

دار رجل الميليشيا حولي وأردف:

ـ من أين حصلت عليه؟ وممّن سرقت الدراجة؟

ـ جورج الملقّب بدي نيرو. هو صديقي ويعمل مع أبي نهرا. المسدس والدراجة كلاهما له، فأنا لم أسرق شيئاً.

ـ أبو نهرا القائد؟

ـ أجل.

ـ سأتّصل به. لكن لم تحمل مسدّس صديقك؟

ـ كان ثملاً فأخذته منه.

ـ سأتأكّد من الأمر من أبي نهرا. إن كنتَ تكذب عليّ فسأزجك في السجن حتى تتعفن. مفهوم؟ ما اسم صديقك مجدداً؟

ـ جورج. إن قلت للقائد إن اسمه دي نيرو فسيعرف عمّن أتكلم.

ـ وما هو لقبك؟ آل باتشينو؟

قادني سجّاني إلى غرفةٍ خاليةٍ فيها فراش مطاطيّ فنمت. حين استيقظت تأمّلت الجدران المكسوة بالإسمنت. كان الغطاء مليئاً بالثقوب بفعل السجائر. أخرجت علبة سجائر من جيبي فكانت مسطّحةً جرّاء ثقل جسدي. فتشت عن كبريت فلم أعثر على عود، فطرقت على الباب. ولم يجب أحد. وضعت أذني على الباب. وجُلّ ما استطعت سماعه صوت موسيقى يتصاعد من مذياع بعيد، عرفت فيه فيروز وصوتها المنتحب عبر الأروقة.

في اليوم التالي، جاء دي نيرو ومعه أمرٌ بالإفراج عني من أبي نهرا، فأطلق سراحي.

ركبنا أنا وجورج الدراجة ومضينا على الطريق العام. كانت الحرارة لا تحتمل وكان السائقون العموميّون ينتظرون داخل سياراتهم المرسيدس القديمة عند زوايا الشوارع في ظلال جدرانٍ متّسخة. دخلنا زحمة السيارات وسرنا على الأرصفة والأزقة ووسط الممرات الضيقة وعبر الطرقات المغبرة وغير المرصوفة.

تطاير الغبار إلى واجهات المتاجر، واستقر على الأفخاذ الناعمة الحريرية المكشوفة. غبار تنشّقه الجميع، واستطاع الجميع الرؤية من خلاله. غبار آتٍ من معول الحانوتي، ومن الدمار، والجدران المتصدعة ومن جباه المسيحيين نهار الخميس المقدس. كان الغبار ودوداً وأحبّنا جميعاً. كان الغبار صديق بيروت.

قلت لجورج:

ـ فلنأكل.

ـ منقوشة أم كنافة؟

ـ كنافة.

توقّفنا عند متجرٍ بابه من المنخل، وجلسنا إلى طاولةٍ مستديرة. بقع تلطّخ المرآة المعلَّقة فوقنا حجبت طيوفنا عنا وعامل يقف وراء المنضدة ذو شاربين كثيفين، يستخدم العديد من السكاكين ببراعةٍ وحرفة. شربت ماء، وأشعل جورج سيجارة. دخلت المتجر امرأة تحمل طفلاً بين يديها، وفي نشرة الأخبار قتيلان وخمسة جرحى. ديبلوماسيّ عربيّ وآخر أميركيّ في زيارةٍ إلى بيروت.

كان القمر بدراً. عليه علم الدبلوماسي، وقناص ليس من هذه الأرض يستخدمه ليتدرَّب على التصويب.

تناولنا الكنافة في صحون. شاهدت الطفل يلعب ويقضم برفقٍ مسدساً بلاستيكياً. كنت في حاجة لأحلق وأستحم. وكنا جميعاً في حاجة إلى المياه. أعطيت جورج المسدس من تحت الطاولة. وكانت سيجارته تحترق في المنفضة. أما سيجارتي فكانت لا تزال في علبة جورج. ذكّرتني عيناه الحزينتان بأن والدته قد توفيت، وبأن والده قد غادر، وبأنّ والدي قد توفي أيضاً. تذكرتُ كيف كثرت زيارات عمّي نعيم بعيد وفاة والدي. كنت أراه أيام الآحاد يعطي مالاً لأمي، وأمي تأخذه وتدسّه في

صدرها، وعيناها لا تبارحان الأرض. كان نعيم يصحبني في نزهاتٍ طويلةٍ ويشتري لي الثياب والكتب. وحين أقول له إن والدي في عهدة الله، يرد علي قائلاً أن لا وجود لله، وأنه ليس سوى اختراع بشريّ.

انتهيت من تناول الكنافة، فأعطاني جورج سيجارة. فكرت في والدتي التي تطهو طوال اليوم وتتذمّر، وتطلب المال من عمي الاشتراكي. في إحدى الليالي، هرب إلى المنطقة الغربية، فجاء رجال الميليشيا يبحثون عنه. وطرقوا باب والدتي في منتصف الليل، وسألوا عن نعيم الاشتراكيّ.

تأمّلت الذباب الذي يتوق إلى دخول المتجر، لكن الباب يحول دون ذلك. فوحده الغبار هو الذي يدخل ويخرج كما يحلو له. راودتني فكرة أنّ بيروت هي مدينة روما العتيقة. فهنالك مدينة مدفونة تحت أقدامنا. الرومان أيضاً تحوّلوا غباراً. حين فتحت الباب لأغادر، تدافع الذباب للدخول.

أوصلني جورج إلى منزل والدتي. واستسلمت للكرى فوق روما العتيقة، رحت أحلم، بينما كانت المدينة لا تزال تتنفّس غباراً.

٥

كانت نسوة بنايتنا تجمعهن القهوة مع بزوغ كل فجر، فيتكلّمن عن أسعار الخضر واللحم والفواكه، ويكرّرن كالببغاء الملوّن الواقف على ظهر سفينة قرصانٍ، ما سمعنه في نشرة الأخبار.

أيقظني صياحهن، نهضت وغسلت وجهي ونظفت أسناني. سمعت إحداهنّ تنادي باسم رنا، فارتديتُ بنطلوني القصير وتوجّهتُ إلى غرفة الاستقبال. حييت النسوة، وبالمقابل ردَّدن اسمي وطلبت إلي سلمى جارتنا قبلةً بقولها:

ـ هيا تعال وأعطِ خالتك سلمى قبلة. فستظلّ صغيرنا مهما كبرت.

قبّلتها ومضيت إلى رنا، التي تورَّدت خجلاً، فيما كتمت النسوة أنفاسهنّ، وابتسمت والدتها.

نظرتُ إليها وقلت:

ـ ماذا تفعلين هنا مع العجزة؟

فصاحت النسوة ساخرات:

ـ لأ أحد عجوز هنا أيها الشاب!

أردفت عبلة:

ـ أستطيع قتل زوجي والحصول على رجلٍ أصغر سناً متى شئت.

فضحك الجميع إثر ذلك.

احمرّت رنا خجلاً مرة أخرى. فابتسمت وصبَّت لي والدتي القهوة، والابتسامة تعلو وجهها. راحت أصواتنا جميعاً تعلو. قرأت إحداهنّ فنجان رنا التي بدت رائعة في تنورتها القصيرة، وثدييها اللذين كانا يهبطان ويعلوان مع كل نفسٍ تأخذه، وعينيها المكحّلتين بالكحل الأسود. جلست ولفّت رجلاً على رجل حماية لعذريّتها من أعين المفترسين وألسنتهم وأسنانهم غير المستقيمة.

غادرتُ الغرفة وانتظرت على الدرج عند مدخل بنايتنا. نزلت رنا ووالدتها بعد قليل. مرت والدتها بقربي فأومأت لها مودّعاً. ووصلت رنا التي مشت بتثاقلٍ خلفها، أمسكت بمعصمها وسألتها:

ـ بم تنبَّأت قارئة الفنجان لرنا اليوم؟

ـ أحدهم سيطلب يدي للزواج.

ـ من هو؟

ـ الشخص الذي سيسافر.

ـ للأسف.

ـ لا. ليس إن غادرت أنا أيضاً.

ـ سأمرّ لأصطحبك عند السادسة مساء.

ـ أنا مشغولة.

ـ بمَ؟

ـ مشغولة فقط. أرجوك اترك يدي يا بسام الآن. فالناس ينظرون. فتحت يدي وغادرت.

قال لي جورج:

ـ طلب إلى أبي نهرا أن أنضم إلى الميليشيا.

فحذّرته قائلاً:

ـ لا تنضمّ يا جورج.

ـ هم في حاجةٍ إلى رجالٍ في الخط الأماميّ.

ـ ارفضْ.

ـ وسيُحيل عملي إلى شخصٍ آخر.

قال ذلك وهو يصبّ الويسكي، وينظر في عينيّ، فأردفتُ قائلاً:

ـ علينا المغادرة، ويجب أن نكون منظّمين لنقوم بعملية كبيرة ونغادر. علينا أيضاً أن نتحيّن الفرصة لنتمكّن من تغطية عملية الربح الكبيرة. حين يكون هنالك مال كافٍ، أعلمني بالأمر.

نظرتُ إلى عينيه.

ـ ماذا يجري بينك وبين رنا؟

ـ كيف عرفت أمرها؟

ـ الجميع يعرفون كل شيء هنا. لقد كبرَتْ.

أومأت له إيجاباً.

ـ تستطيع أن تلتقيها هنا. سأعطيك مفتاح شقتي. والدتي لن تكون فيها. نظر إلي وابتسم.

شربنا، ونحن جالسان على شرفة منزله. من هناك استطعنا رؤية أسطح المنازل المكسوة بالغسيل الأبيض وهوائيات التلفزيونات وخزانات المياه الفارغة. كانت تصل بين المنازل كلّها أسلاك كهربائية مرخيّة معقودة على أعمدة خشبية، مالئةً بذلك المدينة الإسمنتيّة التي تخلو من الأشجار لشنق يهوذا عليها، ومن المروج ليهيم فيها الغزاة، فلا تملؤها سوى الأسطح المستوية والفانين الذين ينتظرون أدوارهم للحصول على الخبز والماء.

كانت دراجات الأولاد موضوعة على رصيف يعجّ برسوم الأطفال. أما منازلنا من الداخل، فتقف النسوة في مطابخها لتحضير الطعام. ومن الأسفل تستطيع سماع صوت مذياعٍ ووالدة تنادي ابنها، كذلك صوت بعض السيارات التي تعبر ببطء شارعنا الضيّق.

كان يخيّم ذلك الصمت، ذلك الهدوء الذي يسبق سقوط

القنابل وتكسّر الأسنان. سكونٌ يسبق تبوُّل الأولاد في بنطلونات أشقائهم الأكبر سناً، وحدوث طمث الفتيات قبل أوانه، وتهشّم زجاج النوافذ الذي ينغرز في جلودنا الداكنة مولِّداً جروحاً بالغة.

قال لي جورج:

ـ «جوني ووكر» هو أفضل ويسكي. مع ثلجٍ أو من دونه. هذه هي الحياة يا صديقي.

ثم رفع كأسه وقبّلها.

انتظرتُ رنا أسفل الدرج لكنَّها لم تأتِ. فناديت داني، ابن نهلا الذي كان يقود دراجته من نوع «فيل أموس».

ـ تعال. اذهب إلى منزل آل داموني، ادخله لتعطي رنا الرسالة من دون أن يراك أحد. أفهمت ما قلته؟ يجب ألا يراها أحد. لا... ارجع إلى هنا! أفهمتني؟ لا أحد!

أومأ الولد موافقاً.

ـ ستحصل على ما تحبِّه لاحقاً. والآن اذهب ولا تتأخّر.

ابتسم داني وانطلق كالسهم على الدرج، وطار كالحمامة باتجاه منزل رنا.

التقيتها عند الدرج الفرنسي. كان الظلام قد خيم، ورأيتها تنزل عن المنحدر وتمشي بين السيارات مختبئة بين ظلال الجدران. رأتني من بعيد فلوّحت لي بحذر.

أمسكت بيدها ومضيت إلى خلف المبنى. هناك، اتكأتُ على جدارٍ وجذبتها نحوي فقالت معترضةً:

ـ كُفَّ عن الإمساك بيدي بهذه الطريقة.

ـ لا أحد ينظر.

فأجابت مداعبةً:

ـ عليك أن تطلب الإذن.

ـ ممّن؟

ـ منّي.

ـ منذ متى؟

ـ منذ أن ربحت ذلك العراك وصارعتك حتى رميتك أرضاً، وجعلتك تعض التراب.

ضحكت.

قبّلتها على وجنتها وخاصرتها. أعادت لي يدي وأبعدتني ببطء عنها وقالت:

ـ ليس هنا.

ـ تعالي معي.

أمسكت بمعصمها وصعدنا الدرج معاً. تمكنت من بلوغ باب شقة جورج في الظلمة. بحثت عن القفل وأنا أتحسّس مكانه كالأعمى في ليلة زفافه، وكالأسد في عرين ثعلب. أدخلت

المفتاح وأدرت يدي بحركةٍ سلسةٍ بطيئة. أمسكت بيدها وجذبتها إلى الداخل. قاومتني لكنني قبّلتها على عنقها. أقفلت الباب وبحثت عن شمعةٍ أضيئها. وحين أشعلت عود كبريتٍ جاعلاً النار ترقص على أطراف أصابعي، نفخَتْ عليها فأطفأتها قائلةً:

ـ لا. من دون ضوء.

قبّلتُ جسدها عشرة آلاف قبلةٍ تحت شلال ناعم من القنابل المتساقطة. كانت ثيابنا مرمية على الأرض كأنّها سجادات للمصلّين، وجسدانا مستلقيان على السرير كأنهما جثتان ترقصان.

قبّلتها ألف قبلةٍ زيادة، وتساقطت القنابل مدويةً بشكلٍ أعلى وأقرب. تسلّلت يدي تحت تنّورتها إلا أنها أمسكت بها وقاومتني. أدخلت خلسةً يدي الأخرى لأصل إلى نهدها فسمحت لي بذلك. عندها فككت إثارها متحسِّساً حلمتيها السوداوين الناعمتين البارزتين اللتين تفيضان أمومةً.

مرَّرت لساني على جسدها حتى وصلت إلى سرّتها فأبعدتني عنها وقالت:

ـ توقف: أرجوك توقف يا بسام. لا بد أن والدتي تبحث عني، فقد قلت لها إنني ذاهبة لرؤية ندى. علي المغادرة.

ـ سأمشي معكِ.

ـ تمشي أم تركض معي؟

اخترقنا القنابل المنهمرة. حين وصلنا إلى منزلها، نزلت رنا إلى الملجأ. أما أنا فصعدت الدرج فوق الأرض.

أبو نهرا خمسينيٌّ، أشيب وله سن ذهبية. ترك تدريس اللغة العربية ليصبح قائداً أعلى في الميليشيا المسيحية. أصلع، ذو جسدٍ مستدير، يحمل مسدساً على خصره دائماً، ويضع على عنقه سلسلة طويلةً وسميكةً تضم مجموعة من الأيقونات والصلبان، ضاغطةً على شعر صدره الضخم. كان مسؤولاً عن المقاطعة الجنوبية لغربي بيروت، وكان يقبض المال من نظام الضرائب الذي وضعه لجمع المال من المنازل ومحطات البنزين والمتاجر بهدف تمويل الحرب. أقام مجموعة كازينوهات صغيرةٍ وآلات بوكر تجمع أموالاً طائلة. كان يقود سيارةً ضخمةً من نوع رانج روفر وتتبعه دوماً سيارتان للحماية. خلال زحمة السير، يعمد حرّاسه الشخصيون إلى إخراج أسلحتهم من النوافذ، وإطلاق النار في الهواء لإفساح المجال أمام سموّه. الجميع عرفوا أبا نهرا الذي كان يصب جُلّ اهتمامه على الديانة المسيحية والمال والسلطة. التقاه جورج عن طريق خالته نبيلة التي كان أبو نهرا «يغازلها» في ذلك الوقت. طلبت إليه أن يؤمن لابن أختها العزيز عملاً ففعل. لكن حين تركته اهتز وضع جورج في العمل.

ـ هنالك دائماً ثمن علينا دفعه. يريدني أن أنضم إلى الميليشيا. ففي ذلك اليوم أرسل إلي خليل ليسألني إن كنت أود الذهاب معه إلى الخط الأخضر أم لا.

ـ وماذا قلت له؟

ـ قلت له إنني لا أستطيع ترك الكازينو، فقال إنه سيمرّ بي

بعد موعد الإغلاق، وإن بمقدورنا الذهاب بعض الوقت لإطلاق الرصاص وتصفّح بعض المجلات، ومقابلة الرجال، ونعود، فلن يطول الأمر. انتظرته، ولم يأتِ قط. لكنني متأكّد أنه سيأتي غداً.

ـ سآتي معك. أعطه موعداً ولا تذهب وحدك. سآتي معك وأبقِ مسدّسك ملقّماً.

ـ أتظن أنهم يعرفون عن مخططنا في الكازينو؟

ـ لا. ولكن أبقِ مسدسك محشوّاً من باب الحيطة فقط. لو علموا بالأمر لأمر أبو نهرا بقتلنا. سآتي معك. عليك فقط أن تحدِّد لخليل مكاناً للقاء.

رأيتُ الولد داني يلعب بالكلل على رقعةٍ من التراب. ناديته فركض إليّ:

ـ هل سلَّمت الرسالة إلى رنا في ذلك اليوم؟

ـ نعم.

ـ وماذا فعلت؟

ـ قرأتْها وابتسمت.

ـ خذ.

أخرجت من جيبي بعض قطع النقود وقلت له:

ـ اذهب واشترِ المزيد من الحلوى لك ولأصدقائك.

ركض إلى رفاقه فراحوا جميعهم يركضون ويقفزون نحو متجر أبي فؤاد.

على سرير جورج كانت رنا مستلقية على بطنها. دفعت كاحليها في الهواء، وسوَّت أصابع رجلها، ووضعت يدها على صدري.

ـ أتحبّني؟

قبّلتها على فمها، فأعادت سؤالها بصوتٍ أعلى:

ـ أتحبّني؟

ـ أجل بالطبع.

أجبتها ونفثت الدخان الذي طمس كلماتي بين طيّاته. دفنت ذقني بين أصابعها ونظرت في عينيّ.

ـ انظر إليّ هنا. في عينيّ. أتحبّني؟

ـ أجل.

حاولت تقبيل نهدها، إلا أنها دفعت وجهي نحو الوسادة وقالت:

ـ إن كنت تكذب علي يا بسام الأبيض فسوف أحطّم وجهك! أنا أعرفك لا تستطيع خداعي أبداً. فهذه أنا رنا أتذكر؟ سأطلق النار عليك أسمعتني. أقسم بالصليب أنني سأفعل.

ضحكتُ وأمسكتُ بخصرها. بقيت صامتةً تنظر إلى السقف العالي. قبّلتني، أصلحت فستانها وإثارها، وطلبت إلي أن أغلق لها السحاب. قبّلتها على كتفيها ورَحَلَتْ.

كنت أنا وجورج حين التقينا خليل قرب مبنى شركة

الكهرباء. كان خليل يقود سيارة جيب وعلى المقعد الخلفي رجل ميليشيا آخر يلقب بـ «أبي حديد» يحمل بيده اليسرى سلاحاً تشيكياً من نوع كلاشينكوف.

أقدم جورج على تقبيل خليل، عرَّف أحدنا بالآخر تحدّثنا قليلاً، ووجدنا أن بيننا معارف مشتركين، وتكلّمنا أيضاً عن السيارات والأسلحة. قال «أبو حديد» إنه يعرف شخصاً يدعى شربل ويعمل في المرفأ معي.

جلس جورج إلى جانب خليل في الجيب. أما أنا فتبعتهم على الدراجة النارية. عبرنا شوارع فارغةً ومررنا بأبنية دمّرتها القذائف. مررنا أيضاً ببعض الحواجز من دون متاعب، فالجميع يعرفون خليل.

حين وصلنا إلى المقرّ، تعرَّفت إلى شابَّين كانا معي في المدرسة، هما جوزيف شيبان وكميل الأصفر.

كان كل منهما قد أطلق لحيته، وكان التعب والقذارة باديين عليهما. كان جوزيف يحمل كلاشينكوف حفرت على مقبضه الخشبي صورة مريم العذراء. أما كميل فكان يحمل قناصة.

حين رآني جوزيف صوب نحوي وقال لي:

ـ لايسمح بدخول الطلاب المشاغبين.

وسرعان ما ابتسم وتصافحنا.

جلسنا على أكياس رمل وعلى براميل. أخذني جوزيف إلى جهةٍ، ودلّني على مكان الأعداء.

ـ هناك. أترى الخزان الكبير؟ إنهم يختبئون خلفه. اسمع!

فصاح:

ـ حسن. . . يا ابن الكلبة!

فأجابه رجل من الجهة الأخرى، وتبادلا الشتائم. توجَّه جوزيف إلى كميل قائلاً:

ـ هل شتم شقيقتي للتوّ؟

ـ ليس لديك شقيقة.

ـ ولكنه أهان شرفي.

لقّم جوزيف بندقيته وصوَّبها ناحية حسن، وأطلق الرصاص، وهو يتكلّف التبسُّم. التهبت المنطقة بأكلمها إثر ذلك، وتطاير الرصاص شمالاً ويميناً ومن الجهتين.

اختبأتُ وراء أكياس الرمل، فحطّ رصاص فارغ دافئ من سلاح جوزيف، عند قدميّ. حين توقف الجميع عن إطلاق النار، سمعنا صوت حسن من الجهة الأخرى. كان يقول شيئاً عن العاهرات وعن الأمّهات المسيحيّات، فضحك الجميع.

خرج جورج من مبنىً مجاور وبيده بندقية. كانت الابتسامة العريضة محفورة على وجهه، وكان يضحك مع خليل الذي وضع يده على كتفي جورج، ليبتعدا معاً.

انتظرتُ. . واستمعت إلى جوزيف وهو يخبرني عن الليلتين الماضيتين، وعن ضراوة المعارك خلالهما. أخبرني كيف انهمرت

القذائف كزخّات المطر، وكيف اضطرّوا إلى البقاء في أماكنهم. لم يستطيعوا التحرك، ولم تصل شاحنة الطعام فقبعوا بلا طعام ولا سجائر. بدأت الذخائر الحربيّة تنفد، ولم تهتمّ المجالس بإرسال المزيد من الرجال. تذمّر ونفث الدخان وقال إنهم غير منظمين، ثم أرشدني إلى داخل المبنى وأعطاني سيجارة.

قال وهو يضحك:

ـ أتذكر معلّمتنا سعاد؟ كانت تملك ساقين طويلتين جميلتين.

ـ لقد سافرت إلى فرنسا.

ـ نعم، عرفت ذلك، فقد تزوّجت ذلك الأستاذ الفرنسيّ. جميعهنّ يرغبن في الزواج بالرجال الفرنسيّين.

أخرج مسدسه وأعطاه لي قائلاً:

ـ خذ وأطلق بعض الرصاص. قد يحالفك الحظ وتصيب حسن في مؤخّرته. أخفته شرّ خوف في ذلك اليوم. كان يتغوّط في الجهة الأخرى وكنتُ في الطابق الثاني. حين رأيته هرعت وأخذت القناصة من كميل، وأطلقت النار ما بين رجليه. راح يركض وبنطاله مُسدل بين رجليه.

ـ ألم تقتله؟

ـ لا، لا. فقد تواعدنا أن نلتقي للشرب بعد انتهاء الحرب.

رفضتُ أخذ المسدس منه، فهزّ جوزيف رأسه وقال:

ـ لطالما كنت صامتاً. أنت رجل هادىء... لكن أذكر أنك،

حين تعاركت مع أخوة بعليني في المدرسة، كنت شرساً ولم تسمح لأحد بالتعاطي معك. لكن ما الذي تفعله هنا؟

ـ قدمت مع جورج لرؤية خليل.

ـ هل ستنضمّان؟

قلت: لا، وأنا أهزّ رأسي.

ـ كانت القوّات تتألف كلها من متطوعين. أما الآن فعليك أن تشترك وتتقاضى أجراً. أضحينا جيشاً أكثر منه ميليشيا، إذ بات لزاماً ارتداء البذات النظاميّة. كنا نرتدي الجينز في البدء. لدى القائد الأعلى «الريّس» خطّة عظيمة. مرّوا بنا من وقتٍ إلى آخر.

في طريقنا إلى منزل جورج، سألته عما يريده خليل، فقال:

ـ لا شيء.. لا يريد سوى التكلّم.

ـ فقط؟

ـ خليل يعلم.

ـ بماذا؟

ـ بلعبتنا.

ـ هل يعلم أبو نهرا بالأمر أيضاً؟

ـ لا. خليل يريد حصّة.

ـ كيف علم بالأمر؟

ـ كان يعمل في نادي المقامرة، فبدأ الشك يساوره حيال الأمر. لقد خدعني. في البدء قال إنه يحمل رسالةً من أبي نهرا وأنه يعلم بالأمر. وقال أيضاً إن للآلة عداداً. ثم عرض أن يتكلم إلى أبي نهرا بالنيابة عنّي. فإن أعدت المال إلى الميليشيا يسامحونني وينسون الأمر برمّته. وحين قلت له إنني لم أعد أملك المال، بدَّل الحديث وقال لي إنه الوحيد الذي يعلم بالأمر، وإنه يريد حصّة.

ـ أين يقطن؟

ـ عند أسفل الجسر.

ـ أين؟

ـ فوق متجر «آبو» المتجر الذي يبيع اللحم بالعجين.

ـ هل يعيش بمفرده؟

ـ نعم.

ـ حسناً، قل له إننا سنعطيه حصته.

مشيتُ نحو منزل خليل وراقبتُ منزله.

دخلتُ المتجر الذي يقع تحت منزله، وطلبت قرصَي لحم بعجين وأكلتهما، وشربت العيران. ثم صعدتُ الدرج أبحث عن اسم خليل على الجرس الكهربائيّ. لم أجد اسمه في أي مكان، فعدت إلى منزلي على الفور.

في اليوم التالي وعند الثانية عشرة ظهراً، أتى جورج إلى

منزلي. قدمت له أمي الأرمنية الطعام. قبّلته على وجنتيه وأخبرته عن أمّه:

ـ كانت أمك سيدة رائعة. فليرحمها الله. سيدةً رائعةً بحقّ. كم كانت ستفخر بك وهي تراك رجلاً وسيماً وحيداً يا جورج.

سألته أمي عن خالته نبيلة وعن خاله البعيد وعائلته. سكبت الكثير من الطعام في صحن جورج طالبةً أن يأكل جيداً، وهي تردِّد كلمات مألوفة:

ـ أنتم لا تعرفون استخدام التوابل مثلنا نحن الأرمن.

كان جورج ينادي أمي «تانت». قبّل يدها وأكل جيداً.

بعد الطعام، توجّهنا إلى غرفتي، حيث استلقى جورج على السرير، وأنا على الأريكة.

ـ كم يريد خليل؟

ـ يريد النصف، ويُبقي ربعاً لكل منّا.

ـ النصف؟ هل يعرف أنني مشارك في الأمر أيضاً؟

ـ يعرف أنّ أحدهم مشارك في الأمر.

ـ قل له أن يلتقيك تحت الجسر.

ـ لن يأتي، فهو خبيثٌ كالثعبان.

ـ حسناً إذاً. قل له إننا سنراه عند الخط الأماميّ.

في وقتٍ متأخرٍ من تلك الليلة، هجم كلب شيواوا على

رجلٍ يدعى سمير الأفهميّ، وهو في طريقه إلى منزله. كان سمير الأفهميّ رجلاً محترماً، امتلك ذات يوم مكتب محاماة في وسط بيروت المدمَّر. أما الآن فهو عاطل عن العمل، وكبرياؤه يمنعه من العمل بأي شيء آخر، وهو يعيش على المبلغ الضئيل الذي يرسله إليه ابنه من كنتاكي.

داهمه قطيع الكلاب حين مر قرب جبل النفايات. الكلب الذي هجم عليه كان يوماً ملكاً للسيدة خرزي التي هربت إلى باريس على عجل؛ ركبت سيارة أجرة إلى الحاجز الذي يفصل بين شرق بيروت وغربها. ومن هناك، وبواسطة بعض معارفها الأثرياء غرب بيروت، أقلّها إلى المطار كولونيل مسلم سابق في الجيش كان يعرف زوجها قبل الحرب. هجم الكلب الصغير على السيد سمير بأمرٍ من رئيسه ذي القوائم الثلاثة.

في اليوم التالي، ذهب السيد سمير إلى مركز الميليشيا التابع للجناح اليميني حيث تحدّث عن هجوم الشيواوا، وعن قطيع الكلاب الذي اجتاح شارعه. حذّرهم من طموح الكلاب بالاستيلاء على المقاطعة المسيحيّة، مستخدمة قوة أسنانها الحادة وتقنية ترهيب متطوِّرة جيداً تسمى هريرا، يدعمها جبل من النفايات لإمدادها بالطعام المرة تلو الأخرى، إلى أن يجعل داء الكلب عيونها حمراء ولعابها يسيل من لثتها غير المفروكة.

صُرف السيّد سمير، صرفه قائد بهيمي محلي، يمشي برجلين مفتوحتين كالبطة، وينتعل حذاءً ثقيلاً، في الطقس الحار وفي الطقس البارد، وتفوح منه رائحة كريهة للغاية، هي إهانة لأنفك.

أما سرقته التافهة للخُضر والدواجن فتذكُّرك (بسرقة الصليبيين لراهبٍ من القرون الوسطى يصادفونه على طريقهم).

رفع السيد سمير نظارته، هذا المحامي الذي تلقى دروس اللغة الفرنسية والنظام على أيدي كهنةٍ يسوعيّين متّشحين بالسواد، يسجّلون أدق التفاصيل بوسوسةٍ؛ وتوجّه مباشرة إلى منزل نبيلة. صعد الدرج وقرع بابها.

فتحت نبيلة الباب حافية ببنطلون قصير بل شديد القصر، جاعلاً فخذيها أكثر استدارةً وإغراءً من قبل. عدَّلت صوتها وشعرها لدى رؤية السيد سمير بجسده الضخم ومنزلته القضائية، وبذيله الذي شرع يهزّه غضباً، وفي تلك اللحظة، إثارةً. أحنى رأسه احتراماً لها، وانطلق بحديثٍ طويلٍ يليق بقاضٍ فاسدٍ وبقطيع من الضباع، يجلس على مقاعد المحلفين في انتظار ما تخلِّفُهُ لبوة تحوم حولها أشبالها الجائعة تحت شجرةٍ أفريقية.

ـ عذراً سيدة نبيلة، لكن عليّ إطلاع الجميع على ما يجري في حيّنا. لا شك في أنك على علم بالهجوم الذي شنّه علي أجمل قطيع من الكلاب في الليلة الماضية. طبعاً قد نموت جميعاً في أيّ لحظةٍ جراء القذائف والرصاص المتطاير. لكن إن أصابتنا هذه الكلاب الثمينة بداء الكلب فيجتاحنا الوباء. جئتُ خصيصاً إليكِ لأنني أعرف أن ابن اختكِ يملك مسدساً، وأن له أصدقاء في الميليشيا، وقد يعرف أحداً من ذوي الشأن يستطيع أن يفعل شيئاً. ولو كان معي مسدس، أو لو كنت أعرف كيف يستخدم لتخصلتُ من الكلاب كافة، لأنها قد تهجم على

الأولاد والنسوة. فضلاً عن وقوع كومةٍ من النفايات على مسافةٍ قريبةٍ من منزلكِ، وقد تهجم عليكِ أنتِ أو على أيّ شخص.

ـ يا إلهي. نعم بالطبع سيد سمير. علينا القيام بشيءٍ حيال الموضوع، فالكلاب ترعبني.

ـ نعم.

ـ تفضّل أرجوك.

ـ في الواقع.. حسناً.

ـ من أين جاءت؟ لم نرَ كلاباً برية بهذا الشكل من قبل.

ـ حسناً. لا حكومة ولا قانون ولا نظام بعد الآن. كما أنّ الناس جميعهم يرمون بالنفايات في الشوارع، حتى أن بعضهم يرميها عن الشرفة. في اليوم الفائت... قام الذين يقطنون فوق منزلنا...

ـ ساعدنا يا إلهي... أي حياة هذه التي نعيش!!

ـ تغيّرت الأمور سيدة نبيلة. تغيَّر كل شيء... انعدم الاحترام في هذه الحرب...

ـ هل ترغب في ارتشاف القهوة أستاذ سمير؟

ـ لا. شكراً لكِ.

ـ بلى... علينا ارتشاف القهوة، فقد تهدِّىء أعصابك.

ـ حسناً إذاً، لكنني أريدها بلا سكّر من فضلكِ... علينا التخلص من الكلاب سيدة نبيلة، ومن كل بدّ.

ـ سأخبر جرجورتي بالأمر. كيف حال ابنك؟

ـ إنّه بخير. شكراً على اهتمامك.

ـ هل هو في أميركا؟

ـ نعم في كنتاكي. ولكن الاتصالات صعبة للغاية. تعرفين الخطوط... إنه يحاول الاتصال بنا، فهو دائم القلق علينا... يشاهدون الأخبار هناك... ولا نستطيع الاتصال به. تحاول زوجتي لساعاتٍ وساعات...

ـ إنّها أميركا سيد سمير. كل مشكلاتنا تنبع من هناك.

ـ نعم. إنّها خطة كيسينجر الحقير، سيدة نبيلة.

ـ النفط سيّد سمير! فهم يسعون وراء نفط المنطقة.

ـ نعم سيدة نبيلة! أنتِ محقّة. بالمناسبة، أود القول إن قهوتكِ لذيذة للغاية.

ـ «صحتين». كيف حال زوجتك؟

ـ في الواقع لا تكفّ عن التذمُّر طوال الوقت سيدة نبيلة. فمنذ رحيل زياد، وهي في بكاءٍ متواصل.

ـ زوجتك سيدة رائعة سيد سمير. رأيتها البارحة في الشارع، لكنني لم أتوقف للتحدث معها... أنت تعرف سيد سمير أننا لم نعد ندري متى سيبدأ حمام القذائف. أصبحنا في عجلةٍ دائمة...

أستمع إلى الأخبار طوال اليوم...

ـ عذراً. عليّ المغادرة سيدة نبيلة.

ـ كما تشاء. رافقتك السلامة.

ـ يجب التخلُّص من الكلاب.

ـ سأتكلّم مع جرجورتي.

ـ "Au revoir".

رفعت نبيلة سماعة الهاتف، واتصلت بأبي نهرا.

ـ الكلاب؟! هل الوقت مناسب للتكلم عن الكلاب الآن؟ ألهذا اتصلت بي؟

ـ أتعرف ما داء الكلب يا أبا نهرا؟ يجعلك تنبح كالكلب، سيضعون في فمك قطعةً من الخشب لتعضّها. أجل ستقود سيارتك الرانج روفر الكبيرة وفي فمك قطعة من الخشب... حسناً، قد لا تكون فكرة جيدة... أبا... افعل شيئاً... قدّم إليهم خدمة، إلى جانب قتلهم وسلب أموالهم.

أقفلت نبيلة السماعة، وأشعلت سيجارةً. لاحظت أنها وحيدة في منزلٍ فارغ، وحيدة في حربٍ والكلاب تحيط بها.. كلاب بشرية.. كلابٌ تضع أقنعةً بشرية.. كلاب مع مسدساتٍ.. كلاب في بذات مصارف.. كلاب تبول على أريكتكِ وتنفث لهاثها القذر على صدركِ. كلهم كلاب، الرجال. خصوصاً الرجال. فهم ليسوا سوى كلابٍ خائنة.

في وقتٍ متأخرٍ من الليلة التالية، سمعنا أصوات طلقات نارية قريبة في حينا. نزل الرجال في ملابس النوم، وبأيديهم مسدسات وسكاكين طويلة.

إنّهم يقتلون الكلاب! تسارعت كلمات المسيحيين من شرفةٍ إلى أخرى. قامت سيارتا جيب فيها سبعة من رجال الميليشيا بمحاصرة الكلاب.

بدأت مجزرة الكلاب! مذبحة الكلاب! أُعدمت كلبة صيدٍ أفغانيةٍ بتهمة الخيانة، في حين أن صاحبتها العزيزة في باريس منحنية على أطرافها الأربعة فوق ملاءة سريرٍ من الحرير. تدعم حبيبها السري بيير، الرسام الفرنسي، في مساعيه الفنية. وكلب سبنيلي آخر يطارده محارب سمين، في حين أن والدته تشتري الفيلي مينيون في الشانزيليزيه لأمسية نبيذ وفسق. وكلب من نوع راعٍ ألماني تم ذبحه كالخروف في قصة ذئبٍ، بينما يعب أهله بالتّبني البيرة على منضدة طويلة في حانةٍ نروجية تعج برجالٍ يؤدّون أغنياتٍ بافارية. أما الشيواوا فقد تمكَّن من تفادي طلقات الرصاص مرتين، بسبب حجمه الصغير. لكنه أصيبَ أخيراً وعلى مسافة قريبةٍ. وهو يحاول الاختباء تحت سيارة، في حين أن والدته، في فينيسيا، تناقش أصل الحرير وهي تجلس في صالون فخمٍ مع فنجان الإسبريسو. أما الكلب ذو القوائم الثلاثة فقد ماتَ وحيداً، يتيماً فوق جبلٍ من النفايات تسنده قطعة من المعدن، وبعض علب الحمص الفارغة وصندوق من المطهر البلجيكيّ.

وقف سمير المحامي خلال المجزرة قرب سيارة الجيب، يدل بإصبعه، ويتلو بصوتٍ مرتفع أوامر الإعدام، ويغلق عيون الكلاب المفتوحة. ربط قوائمها بأرسانٍ جلديةٍ طويلةٍ على صلبانٍ

حملها جنود رومان يرتدون التنانير والصنادل المفتوحة؛ وضع السجائر بين أنيابها الرخوة. وراح يستلّ سيفه ثم يغمده تناغماً مع كل طلقة رصاصٍ. صاح بهذيان ولعابه يسيل فوق وجبة الكلاب:

ـ الكلب الصغير! اقضوا على الصغير! إنه تحت السيارة... وخطير... أعطوني المسدس، سأقوم أنا بذلك... اقضوا على الكلاب كلها... يجب أن تفنى عن بكرة أبيها!

صاح في تلك الليلة، وهو يرتدي ملابس النوم. صاح في ليلةٍ عرفت منذ ذلك الوقت بـ «ليلة البدر والنباح الأخير».

غمرت دماء الكلاب شوارعنا في أنهارٍ من العظام والبول الجاري. ربح المسيحيون المعركة. معركة المئة كلب.

أتى جورج في اليوم التالي ليقلّني. مضينا نحو الخط الأخضر لنلتقي خليل، ونعطيه المال الذي أحضرناه. في طريقنا وسط شارعٍ مقفرٍ، توقّفنا تحت جسرٍ لنتوارى عن القنّاصة ونظراتهم الحادة.

وضعنا المال في كيس، وقال لي جورج:

ـ سأريه المال.

عند أحد الحواجز، أوقفنا رجال تحيط بهم أكياس الرمال. سألني شاب صغير يحمل بندقيةً عن وجهتنا، فقلت له إننا ذاهبان لرؤية خليل الديك.

جعلنا ننتظر، بينما أجرى اتصالاً مع أبي حديد، ثم أخلى سبيلنا.

قال لنا الشاب:

ـ حين تمرّون بتلك الطريق الرئيسية التي يتوسطها باص محترق، انطلقوا بأقصى سرعة، فالقناص يستطيع رؤيتكم من ذلك البرج.

قبل أن نذهب إلى شارع الخطر، توقف جورج وقال:

ـ تمسّك بي جيداً..

أوقف الدراجة على إطارٍ واحدٍ، ثم قاد بسرعة نحو المجمّع مباشرة.

قابلنا جوزيف. صافحته، بينما ذهب جورج للبحث عن خليل. وحين وجده اختفيا داخل مبنى خالٍ.

تكلّمت مع جوزيف الذي كان يعاني ألماً في أسنانه. قال لي، وهو يضغط بيده على خده الأيسر:

ـ شربتُ العرق لأخفّف من حدة الألم.

أرشدته إلى طبيب أسنانٍ يعالجه مقابل مبلغ معقول؛ فردّ بأنه يعرف أحدهم أيضاً، لكن المشكلة في الكهرباء.

ـ لا كهرباء... آخر مرةٍ قصدت فيها طبيب الأسنان، انقطعت الكهرباء فجأةً وجلست أنتظر على المقعد متألّماً.

ـ كيف حال حسن من الجهة الأخرى؟

ـ فلنرَ.

ناداه بصوتٍ عالٍ، فأجابه حسن بسيل من الشتائم العاطفية القذرة. قلت لجوزيف ممازحاً:

ـ لقد طعن بشرف شقيقتك مجدَّداً.

ـ نعم. خذ أطلق عليه النار واحفظ عرضي يا شقيقي.

ضحك بصوتٍ مرتفع، وأعطاني بندقيته. أمسكتها بيمناي ويسراي. صوّبت في العراء وأطلقت النار باتجاه حسن. وراح جوزيف يلعن الرحم الذي خرج منه حسن.

أطلق حسن النار علينا من الجهة الأخرى، فاختبأنا. أخرجت البندقية من فتحةٍ بين أكياس الرمل، وأطلقت النار مجدَّداً. وقف جوزيف ونادى حسن واعداً إياه بأن يحوله إلى «كبّة». اشتعل الخط الأمامي بأكمله، وراح الجميع يطلقون النار. جاء أبو حديد راكضاً وهو يحمل سلاحاً عيار ١٠ مليمتر. أنشد كلمات دنسة وهو يطلق من حزام الرصاص الذي غطى كتفيه القويتين. كان جوزيف يبتسم طوال الوقت. انتزع البندقية من يدي بدَّل مخزنها، وصرخ في أذني:

ـ أرى أنك تستمتع بهذا!

في تلك اللحظة، تصاعد صراخ من المبنى. صراخ يستغيث.

كان صوت جورج. ونحن نركض إليه، سمعته يصرخ:

ـ لقد أُصيب! لقد أُصيب.

كان خليل مرمياً على كتفي جورج، ينزف والدم يقطر من أطراف أصابعه. ركض أبو حديد نحو جورج وحمل خليل ووضعه على المقعد الخلفي للجيب. صعد جورج وجلس إلى جانبه. أما أنا فركبت الدراجة النارية وركب جوزيف خلفي.

مضينا كالمجانين إلى المستشفى، وأيدينا على الزمّور طوال الطريق. استطعتُ رؤية جسد خليل المصاب وهو يثب داخل السيارة. حمل جورج رأس خليل بين يديه وتمسَّك به، وهو يشيح بناظريه عنه. تجاوزنا الجيب، بينما قام جوزيف، من خلفي، بإطلاق النار في الهواء ليخلي الطريق.

حين وصلنا إلى جناح الطوارىء، حمل أبو حديد خليل وهرع إلى الداخل. وضع جسده المرخيّ على السرير النقال وصرخ طالباً الطبيب. حين لم يأتِ أحد، أخرج مسدسه وأطلق النار في الرواق، موقعاً بعضاً من الطلاء الأبيض وقطعاً من قشرة السقف على وجهه المحمّر غضباً. هرعت ممرّضتان وأدخلتا خليل إلى أروقة المستشفى.

فارق خليل الحياة.

ونحن في طريقنا إلى المنزل، قاد جورج الدرّاجة ببطء. من الخلف فتحت الكيس الذي يحوي المال، وقسمت المال وخبّأته لئلّا يطيّره الهواء، ثم دسست حصة جورج في جَيب سترته الداخلية، قرب المسدس.

قلت له في اليوم التالي ونحن جالسان في مقهى ندخّن ونرتشف القهوة:

ـ ستجري مراسيم دفن خليل نهار الأربعاء. هل ستأتي؟

ـ لا.

أجابني وهو يرمقني بنظراتٍ حادة.

ـ فأنا لا أقتل القتيل وأمشي في جنازته.

ذهبتُ نهار الأربعاء إلى الشارع ووقفت تحت الجسر. رأيت في طريقي صورة خليل ملصقة على باب صانع أحذيةٍ، وعلى الجدران الإسمنتية. «البطل خليل الديك. شهيد الجبهة الأمامية وهو يدافع عن وطنه الحبيب». هذا ما كتب على الملصق. أكملت طريقي وصعدت إلى سطح مبنىً مقابلٍ لمنزل خليل. جثمت هناك كالنسر، أراقب الرجال يدخلون المبنى، وأسمع نواح النساء الملتحفات بالسواد وهن يرتِّلن في غرفة تعجُّ بأمهاتٍ غائباتٍ عن الوعي وشقيقاتٍ بعيونهنّ المحمَّرة بكاء، وجدّاتٍ تقيّات. أما الشوارع فقد ازدحمت برجال الميليشيا.

رأيت أبا نهرا يترجَّل من سيارته ويمشي مباشرةً نحو التابوت. صافح بعض الأيدي، وهو لا يزال يضع نظارته. أردتُ رؤية عينيه.

أنا أرى أن مراسم الدفن متشابهة. الرجال والنساء مقسمون. يستقبل منزل المتوفَّى النسوة، ويفتح منزل الجيران أبوابه لاستقبال الرجال. بقيت على السطح، نسراً يراقب من فوق ولا يهبط إلا ليقتات.

اشتدّ عويل النسوة حين نزل التابوت عبر الدرج الضيّق، يحمله شباب صغار تعاركوا حول مسكاته المعدنية الذهبية ورفعوه على أكتافهم ليعيدوه إلى التراب. عجّت شرفات الحي بالناس، والأسطح بالأوجه الصامتة الفضوليّة. وقف أفراد كتيبة خليل في صفٍّ. صوّبوا بندقياتهم نحو غيمةٍ عابرةٍ وأطلقوا النار في الهواء، تحية للتابوت النازح ببطء.

مشى الرجال خلف التابوت، ولوّحت النسوة له. أما أنا فشاهدت المسيحيين من فوق، وهم في طريقهم إلى الجحيم.

٦

جفّ حلقي من شدّة الحرّ وأنا مستلق بملابسي الداخلية أفكر في رنا.

ارتديتُ بنطلون الجينز. ونزلت إلى الشارع قاصداً منزلها. ما إن وطأت قدماي الشارع الملتهب حتى قرعت نواقيس الكنائس.

ـ إنّها معجزة! إنها معجزة!

صاحت وفاء وهرعت نحو الأصوات، بينما هرش عصام رأسه. أما بطرس فراح ينظر إلى السماء. ذهبت إلى الكنيسة ورأيتُ الحشودَ أمام بابها: نسوة طاعنات في السن متشحات بالسواد، ويضربن على صدورهن المترهّلة. أمسكت صلاح السمكري بيده، وسألته بصوتٍ خافتٍ عمّا يجري، فأجابني:

ـ شابةٌ صغيرةٌ رأت مريم العذراء تطوف في السماء. فتحت ثوبها لتقينا من القذائف المسلمة المتساقطة علينا. كما أن يَديها ترشحان زيتاً مقدّساً.

ازدحمت الكنيسة بالمصلّين، فتداخلت غمغماتهم بالصلوات واندمجت صلواتهم بالمياه المقدسة مشتعلةً في الشموع وتصاعدت تراتيل جماعية نحو السماء.

تسلّلتُ نحو الحشد كمن يزحف بجلده الرطب، وشققت طريقي نحو الجهة الأمامية من الكنيسة، مفرّقاً بين المقعدين وأمّهاتهم، والعميان وعصيّهم، بين الأوجه الباكية وراحات الأيدي التي تكفكف الدموع.

مشيتُ إلى الأمام فوق الرؤوس المحنيّة خشوعاً، ونحو الأيقونات الذهبية. ثم وقفت جانباً وراقبت: كانت هناك، واقفةً كالتمثال.. شابةٌ صغيرةٌ لم أرَها في حياتي. تنظر إلى السقف فاتحةً يديها اللامعَتيْن. فتاةٌ في أول صباها، عيناها تبرقان جنوناً ومراوغةً، والبسمة الصغيرة المُفتعلة مرتسمةٌ عند زوايا شفتيها فبدت غامضةً مخيفة.

راح الكاهن يدفع مبخرته نحو الفتاة، فبدأ الناس يصلّبون. وهرعت امراةٌ طاعنةٌ في السن إلى الأمام ولمست يد الفتاة، إلا أنّ الكاهن سحبها وأبعدها، ممّا دفع بالحشد إلى التقدُّم والوصول إلى الفتاة. تدخّل بعض الرجال وأبعدوا المتجمهرين إلى الوراء، مكوّنين حجاباً واقياً لحماية المرأة الصغيرة التي أُخذت إلى ما وراء المذبح. جعلتني الهمهمات الخافتة والبكاء الهستيريّ، والأيادي التي تحاول الوصول إلى الفتاة، والضرب على الصدور، وضباب البخور، والصرخات المؤمنة بالخرافات، ورؤية الأجساد الخاشعة منحنيةً على الركب، والحرارة التي لا تحتمل، جعلني كل ذلك أنشد الأبواب المفتوحة. في طريقي إلى الخارج، أمسكتُ بالمرأة التي لمست يديّ الفتاة، ورفعت أصابعها نحو أنفي لأشمّ رائحة الزيت المقدس، إلا أن المرأة حررت يدها من قبضتي ودفعتني إلى الوراء صارخةً بي:

ـ الإيمان! الإيمان!

شققتُ طريقي خارج الحشد كحربة محاربٍ في فترة الاستسلام. بقي الناس لأيام يندفعون إلى الكنيسة أفواجاً أفواجاً يجيئون من أنحاء المدينة كلِّها. فكتم قرع النواقيس دويّ انفجار القذائف. أصمّني الصوت المزعج المتصاعد من مذياع والدتي ومن طنين أجراس الكنائس.

مساءً، غادرتِ الشمسُ السماءَ ليحلّ محلها بدر منوَّر حام فوق مريم العذراء، جاعلاً فستانها الأزرق يشع بياضاً، مكوّناً هالةً حول رأسها. وفي الأسفل، هرع الناس حشوداً نحو الكنيسة داخلين بجلبةٍ، تنضح وجوههم بالماء المقدس، ليتراجعوا في النهاية عن جدرانها كالمد والجزر.

كنا، أنا ورنا، عاريَيْن في غرفة جورج: يداها جافتان ودافئتان، وفخذاها مبلَّلان كالملاءات الحريرية المغمسة في الزيت المقدس. غطّت جسدها واستمعت إليّ وأنا أحلم بالحمام في روما:

ـ هل تودّ الذهاب إلى روما؟

ـ أفكر في الأمر.

ـ ماذا إذن؟ ستتركني هنا؟

ـ لا. تستطيعين القدوم معي.

ـ ماذا سأفعل في روما؟

ـ تدرسين وتجوبين الشوارع، ثم تعودين إليّ.

ـ وكيف نستطيع تحقيق ذلك؟

ـ أنا أعمل على تحقيق الأمر.

نهضت رنا وذهبت إلى المطبخ حيث تراكمت الأواني المتسخة في المجلى. عصرت الصابون السائل على إسفنجةٍ وصبّت ماء الدلو في المجلى وغسلت الأواني.

ـ لا أستطيع تحمّل الأواني المتسخة. فذلك يقودني إلى الجنون. اخرج وانظر إن كان من جارٍ فضوليٍّ يقف على الدرج. فعليّ الذهاب إلى المنزل.

فتحتُ الباب ونظرت إلى الخارج. قلت لرنا: لا أحد هناك، فارتدت ملابسها وهرعت على الدرج. همست بعنف: وهي في طريقها إلى أسفل:

ـ أغلق الباب وادخل! أغلق الباب فقد يراك أحدهم.

أبقيتُ الباب مفتوحاً وأنا أنظر إليها مبتسماً.

في وقتٍ لاحقٍ من تلك الأمسية، قصدني جورج في شقّته.

رأيته من الشرفة يقود سيارة جيب. كان يرتدي بذلة نظاميةً لميليشيا حاملاً سلاح M-16 في يده. حين ترجّل من الجيب، نقل سلاحه من يدٍ إلى أخرى. قرع باب شقّته وسأل:

ـ ألا تزال رنا في البيت؟

ـ لقد رحلت. أراك بملابس جديدة؟

لم يجبني ووضع بندقيته على الأريكة وخلع حذاءه وقال:

ـ اتصل بي أبو نهرا.

ـ أكمل.

ـ سألني عما يجري في الكازينو. أظنه على علمٍ بشيءٍ ما.

ـ أشكّ في الأمر.

ـ حسناً. طلب انضمامي إلى صفوفه، وحدَّق إلى عينيّ مباشرةً قائلاً: إن ذلك أفضل للجميع. بالطبع تعلم ما الذي يعنيه، أليس كذلك؟

ـ إذن ذُعرت وانضممت؟ ربما عنى أنك قد تخسر عملك.

ـ لا، أعلم ما الذي عناه. لقد كنت هناك.

ـ وأين يعيش أبو نهرا؟

ـ يحيطه حرّاسه الشخصيّون طوال الوقت يا بسام، فانسَ الأمر. اسمع، فلنوقف مسألة آلات البوكر في الوقت الحاضر.

حمل مسدسه وقرَّبه إلى صدره ووضعه على قميصه الكاكي تحت ذقنه، ثم صوّبه نحوي وابتسم.

ـ احمله. أرأيت؟ إنه أخف من الريشة.

خلع ثيابه ودخل الحمّام، سمعته يشتم:

ـ المياه اللعينة!

ارتدى قميصه والبنطلون. صعد إلى السطح وعاد حاملاً دلواً من الماء في يده. صببت الماء على رأسه بينما غسل إبطيه. وحين انتهى من الاغتسال وضع بعضاً من العطر تحت ذقنه.

- أنا ذاهب للقاء المرأة التي تعرّفت إليها في برمانا.

- هل اتصلت بك؟

أومأ برأسه وسرّح شعره البني الأملس، وأضاف:

- هل تجيء معي؟

- لا سأبقى، لكن اترك السلاح هنا.

رمى به على الأريكة، دون أن يطرح أي سؤال.

دسستُ المسدس تحت حزامي وذهبت إلى منزل جوزيف شيبان. صعدت الدرج المفتوح خافياً معالم الرخام المتّسخ بآثار أقدامي. كان جوزيف يعيش في أحد تلك البيوت اللبنانية القديمة التي هي بمثابة مزيج بين الفنون المعمارية الفلورنتية وتلك العربية، والتي تحيطُ بها مبانٍ جديدة ضخمة تحتوي على المصاعد الآلية والشرفات الواسعة.

طرقت الباب ففتحت والدته. حيّيتها وسألتها عن صحتها ودعتني إلى الدخول ونادت على ابنها. كان جوزيف نائماً. دخل مرتدياً شورتاً، وقميصاً داخليّاً قطنياً أبيض بلا أكمام، ومنتعلاً خفاً بلاستيكياً رخيصاً يتماشى مع غطاء مائدة والدته الرخيص. حيّاني بينما أحضرت لي والدته عصيراً، معتذرةً عن عدم وجود ثلج، شاكية نقص المياه والحرب... والحياة... فجاءت كلماتها وكأنها كلمات والدتي.

حين صعدنا أنا وجوزيف إلى السطح، صاحت والدته من الأسفل:

ـ السطوح خطيرةٌ فالقنّاصة في كل مكان! انزلا إلى هنا وتكلّما في الغرفة. سأغادر، لكن انزلا.

غير أن السطوح بلا جدران ولم تردِّد أي صدىً. لذلك تجاهلنا كلماتها. أريتُ جوزيف المسدس، وسألته إن كان يعرف أحداً يبيع مثله. حمله بيده وانتزع المخزن، ثم أعاده إلى مكانه وصوّب نحو بيروت الغربيّة وأطلق النار.

قلت له:

ـ إنّه من نوع بيريتا، عياره ٩ مليمتر، ويتسع لعشر رصاصات. إنه نظيفٌ ولم يُستعمَل في معركةٍ قطّ.

ـ سأتحقق من الأمر.

ـ كيف أهل خليل؟

ـ رأتني شقيقته البارحة في الشارع. كنت عائداً من الجبهة مرتدياً بزّتي النظامية وحاملاً العدّة وكل شيء. راحت تصرخ حين رأتني، قائلةً: لقد قتلتم شقيقي. أنتم زعران ومجرمون تأخذون الشباب إلى الحرب. كان في السابعة عشرة من عمره. طفلٌ في السابعة عشرة!

هزّ جوزيف رأسه ليطرد الفكرة من رأسه، وتفقد المسدس مجدّداً.

سألته:

ـ أما زلت تذهب إلى الجبهة؟

ـ أجل. فأبو نهرا لن يدعني أرحل. متى انضممتَ لن تستطيع الرحيل أبداً.

ـ وما رأي أبي نهرا بموت خليل؟

ـ طرح العديد من الأسئلة إلا أنّه لم يوجه إليَّ أيَّ كلمةٍ.

وعدتُ جوزيف ببعض الحشيش المزيّت اللماع، فابتسم وقال إنه سيبذل جهده في سبيل إيجاد مسدسٍ جيدٍ لي.

كانت والدته قد غادرت حين نزل ودخل منزله.

ذلك اليوم كان هدنة، وكانت بعض الغيوم في السماء، على ما أذكر.

في اليوم التالي، استعرتُ دراجة جورج وقابلت رنا في ضواحي الحيّ، عند زاوية مبنىً يقطنه ناسٌ لم يروا وجهينا قطّ. ركبت الدراجة خلفي وتوجّهنا نحو الجبال. لفّت كلتا يديها حول خصري. مضيت على طرقاتٍ مفروشةٍ بالحصى وفي قلب الهضاب. وحين توقفنا، أعطيتها المسدس ولففت ذراعيّ حول كتفيها واضعاً يديّ فوق يديها. مددنا ذراعينا وصوّبنا نحو علبٍ معدنيةٍ صدئة. أطلقت النار وضحكت، ثم حرّرت نفسها من ذراعيّ. دفعتني إلى الوراء وأخذت المسدس وصوّبت وأطلقت النار بمفردها. بعدئذٍ، ابتسمت ومشت نحوي تهزّ ردفيها وتلوّح بالمسدس في الهواء.

صوّبت المسدس نحو صدري وقالت، وهي ترفّ رموشها مداعبةً:

ـ بما أنّ المسدس معي، سأتبعك إلى روما وأطلق النار عليك إن غادرت من دوني.

بدت بيروت من بعيد وكأنها امتدادٌ لهضابٍ إسمنتيّةٍ صغيرةٍ، تعج بالمباني، لا طرقات ولا مصابيح ولا بشر.

أشارت وقالت:

ـ الجهة المسلمة هناك. لم ألتقِ مسلماً في حياتي. لا. تذكَّرت. كان في مدرستي فتاتان مسلمتان، لكنّهما هربتا حين بدأت الحرب. تدعى إحداهما فاتن، أما الأخرى فلا أذكر اسمها... لا أستطيع تذكّره.

أحطتُ رنا بذراعيّ وقبّلت عنقها. فانتصبت حلمتاها تحت قميصها القطني الرقيق جراء النسيم الناعم البارد. ثمّ تسللت يدي إلى صدرها. داعبت نهديها وقبّلتُ حلمتيها المستديرتين الحمراوين.

كانت قلقةً تتلفت حولها وتبحث عن زوارٍ شاردين أو محبّين للطبيعة أو صيادي عصافير. حين أدخلت يدي داخل بنطلونها الجينز الضيّق، قالت لي:

ـ توقف يا بسام ليس هنا. كفّ عن هذا يا بسّام!

لم أتوقّف وكنت ألهث ككلب صيدٍ وفرضت نفسي عليها. جمدت رنا في مكانها وسرعان ما أمسكت بيدي وأبعدتني عنها. صوّبت المسدس نحوي وصاحت بغضب:

ـ حين أطلب إليك التوقّف، تمتثل لما أقوله! توقّف!

مشيتُ نحوها وأمسكت بمعصمها مصوّباً المسدس نحو صدري وقلت:

ـ هيا أطلقي النار.

ـ إنّك تؤلمني.

أخذت المسدس منها ولم ينبس أي منا بكلمة. ورحنا نتنفّس بصعوبة.

قطعنا بعد ذلك مسافة أطول، وصعدنا التلال. توقّفنا وشاهدنا المدينة مجدداً، رأينا غيمةً بشكل فطرٍ تتصاعد من أرض بيروت الغربية.

قالت لي:

ـ إنها قذيفة. انظر... سقطت قذيفة للتوّ.

ـ أظنُّه انفجاراً.

في طريق عودتنا، داعبت رنا صدري بيديها، ثم غرزت أظافرها في اللحم، وقالت:

ـ كنت سأطلق النار هنا.

جاءت والدتي تتعثّر على الدرج حاملةً بيدها أكياس من الخضر واللحم والخبز.

نادتني لأنضمّ إليها في المطبخ، ثمّ سألتني:

ـ ما الذي يجري بينك وبين رنا؟ كنّا نرتشف القهوة هذا الصباح وسألتني والدتها عنكما.

ـ عن أي شيء سألت؟

ـ عن عملك وعمّا إذا كنت مهتماً بزيارتهما معي. فقد قالت إن رنا قد أصبحت في سن الخطوبة.

ـ نحن مجرّد صديقين.

ـ لا تكذب عليّ يا بسّام، فرنا بمثابة ابنةٍ لي، وليست من أولئك الفتيات. إن لم تكن جاداً في علاقتكما، فلا تدمّر مستقبلها فالناس يتكلمون هنا. الناس يتكلمون.

ابتعدتُ عنها، فصرخت من وراء ظهري قائلة:

ـ أجل تماماً مثل والدك. لطالما رحل وظلّ يغادر. لا ينفع لشيءٍ. لم يكن ينفع لشيء!

سمعتُ باب المطبخ يُغلقُ بعنفٍ خلفي.

تساقطت أكثر من عشرة آلاف قذيفةٍ، وكنت عالقاً بين جدارين أواجه والدتي التي ارتعدت فرائصها من شدة الخوف. رفضتِ النزول إلى الملجأ ما لم أرافقها ورفضتُ أنا الاختباء تحت الأرض. فأنا أتحدَّر من سلالةٍ طويلةٍ من المحاربين العظماء، ولن أموت إلا في الهواء الطلق فوق أرضٍ من التراب الموحل والرياح العاصفة!

كانت والدتي تقفز مع كلّ دويّ انفجارٍ، وتدعو القديسة تلو الأخرى، لكن أيّاً منهن لم تستجب لها. عذراواتٌ مشغولات.

صعدت بترا، ابنة جيراننا الصغيرة، الدرجات الرخامية

المتّسخة، وقرعت باب شقّتنا. نظرت بعيونٍ يملؤها الشكّ والارتياب إلى سيفيَ البراق وإلى وجهي الذي يشبه وجه المحارب، ثم غطّت شفتيها وهمست بسرٍّ في أذن والدتي. وقفت أمي، وتوجّهت مباشرة نحو الحمام، ثمّ عادت، في يدها علبة فوط نسائية وقالت:

ـ إنّها فارغة حبيبتي لكن لا تقلقي. هيا تعالي معي.

نهضت الفتاة الحائضة بجسدها الصغير، وصبغ الأحمر الداكن وجهها خجلاً، ثم دخلت غرفة والدتي بسرعة.

هبطت الدرج، وخرجتُ من المبنى مارّاً بالطريق المقفرة نحو أبي دولي البقّال. كان المتجر مقفلاً إلا أن أبي دولي يعيش مع عائلته في الخلف. طرقت الباب، فشقَّ الباب قليلاً. رآني، فعبس، وسأل عمّا أريده، فقلت له:

ـ «كوتيكس».

فردّ بجفافٍ:

ـ أقفلنا الآن.

ـ المسألة ملحّة!

ـ ادخل إذن.

دخلتُ منزله الذي تفوح منه رائحة صابون الفلاحين والقهوة والخضر المهترئة التي وقعت أسفل براد يصدر أصواتاً عاليةً مزعجة. رأيت قطتين تقتاتان على فئرانٍ بنيّةٍ، ورأيت ابنةَ البقال

دوللي التي كانت تُرضع وليدها من ثديها الأبيض المستدير. عندما دخلت المنزل شعرت بالعطش. غطّت دوللي طفلها وثديها بلحافٍ من الصوف الورديّ. وكانت أمّ دوللي، زوجة البقال، تحيك في الزاوية، ويتأمل صهرها الياس الحائط، ويدخّن وهو يرتدي بنطلوناً له حمالتان. كانوا مجتمعين كلّهم حول شمعتين تثيران الشفقة، تشتعلان بحركةٍ شيطانيةٍ سريعةٍ وهما تعكسان ظلال الجميع على جهنّم وجدرانها المحترقة.

أبو دوللي، وهو رجل في خريف العمر لم ينجب صبيّاً ويشير لقبه إلى ابنته البكر، قدَّم إلي علبتين من الفوط النسائية.

ـ أيّهما تريد؟

حملتهما بيديّ وقرّبتهما من الشمعة، ورحت أشمّهما، ما جعل زوجته ترجف وتنفخ وتتذمّر اعتراضاً قائلة:

ـ لمَ تشمّهما؟

هرع أبو دوللي نحوي وانتزع العلبتين من يديّ.

ـ اخرج. اخرج من هنا!

بدأ يدفعني، فدفعته بدوري إلى الوراء. حمل صهره مكنسة طويلة وهدّدني بها، فاختطفت علبةً من يد أبي دوللي بيد، وأرجعت الثانية لأخرج المسدس من خصري. حملته بأصابعي وصوبته نحو الأرض، فصرخت أم دوللي قائلة:

ـ يحمل مسدساً! يحمل مسدساً!

قطعت دوللي سيل الحليب الدافىء ومنعته عن فم الرضيع الذي راح يبكي، وهرعت إلى غرفة أخرى.

تشبثت بالعلبة وخرجت نحو الهواء الطلق، ومشيتُ مبتعداً.

سمعت ورائي أبو دوللي يصيح:

ـ أعرف والدك. كان صديقاً لي، وكان ليخجل بابنه لو رآه كيف أصبح. أنت أزعر! ومن المعيب أن تهينني في منزلي وأمام عائلتي. أزعر! لست سوى أزعر يا ولد. أزعر!

بصق على الأرض، شاتماً جيلي، وشباباً على شاكلتي.

مشى الأزعر بين الأبنية متلافياً القذائف المتساقطة. وعبر الأزعر شلالات البواليع التي تسرّبت أقذارها من المواسير المكسورة. مشى حاملاً مسدساً بيدٍ، وعلبةً من القطن الناعم في الثانية.

في اليوم التالي. قدم جورج ليأخذ دراجته. وجدها مائلة نحو الأرض فوق بحيرةٍ من الزيت الناضب، كانت في الظل مقابل متجر الخضر تواجِه المستشفى أمام الكنيسة.

سلّمته المفاتيح، فدلّى الخاتم من أطول أصابعه، وقال: فلنذهب كي نتحدّث.

قاد الدراجة وتمسّكت أنا بخصره. مضينا باتجاه الكرنتينا، نحو السكة الحديدية القديمة، حيث دمر المسيحيون مدينة الأكواخ الكردية وغزوها؛ فأضحت الأرض مستويةً بعد أن تبخّرت أسقف الصفيح كلها والأزقّة الضيّقة وأنهر البواليع. هُزمت جميعها وسُوّيت بالأرض وقُتِلَ المحاربون في مجازر

ومذابح بدم بارد. أما نسوتهم فهربن وهن يحملن بين أيديهنّ أولاد حفاةً بأنوفهم السائلة، ومضين على متون مراكب صغيرة تتلاعب بها أمواج المتوسط. اقتحم أبو نهرا ورجاله المخيم وقتلوا الرجال مقتلعين أسنانهم الذهبية. هنا اكتسب سمعة قائد لايرحم، واختال رجاله المنتصرون عبر الشوارع حاملين رؤوس المهزومين على الحراب، بينما ربطوا الجثث على أسطح سيارات الجيب، ومضوا عبر الشوارع الإسفلتيّة، مندفعين بسرعةٍ داخل الأزقّة الضيّقة.

أضحى المخيم الآن حقلاً.. حقلاً تنبت فيه الأعشاب الضارة من سماد الجثث ورماد الجدران المحترقة وجيش الذباب الذي اقتات يوماً على الدماء والطلقات.

قلت له:

ـ تكلّم. هيا تكلّم قبل أن يقوم الأموات من تحت أقدامنا.

ـ سأترك محل البوكر. طلبت إلى نجيب، قريبي البعيد، أن يحلّ محلي. تستطيع إكمال العملية، فسوف أطلعه على كيفية القيام بذلك.

ـ لماذا ستترك؟

ـ طلب إلي أبو نهرا القيام بمهمة.

ـ أيّ نوعٍ من المهام؟

ـ سأذهب إلى إسرائيل قريباً لتلقّي بعض التدريبات. فالقوات تقيم علاقات مع اليهود في الجنوب.

همستُ له:

ـ ذلك خطأ.

ـ لا يا بسّام. فنحن وحدنا في هذه الحرب، وشعبنا يذبح يومياً. وأنت... أنت الذي ذبح جدّك... وقتل والدك... أنت... أنت... سنتحد مع الشيطان في سبيل إنقاذ أرضنا، وإلا كيف سنجبر السوريين والفلسطينيين على المغادرة؟

ـ سأهرب من هذه الأرض، وأتركها لشياطينها.

ـ أنت لا تؤمن بشيء.

ـ ومتى آمن اللصوص والزعران أمثالنا بشيء؟

عبرنا الطريق العام وصولاً إلى الشاطىء. كانت الشوارع مقفرة في نهارٍ صيفيٍّ رياحه حارة. جلسنا عند الشاطىء نتأمل البحر. اهتزت مراكب صغيرةٌ تناغماً مع أمواجٍ صغيرةٍ تقدّمت نحو الشاطىء، وبقينا جالسين. خيّم الليل وأشعلنا ناراً على ورقٍ رقيقٍ دخّناه. تأمّلنا وشاهدنا، وهلوسنا وضحكنا ودخّنا مجدداً. حرقنا السجائر حتى وصلت إلى أطراف أصابعنا وأطفأنا جمراتها بأصابعنا. راودتني رؤيةٌ لأشجارٍ وسهولٍ، لمنزلٍ... منزلٍ مفتوح، لظلالٍ وشمسٍ تسير بخط مستقيم وليس دائريّاً، لقمرٍ تنيره الشموع والنجوم ليلاً. قمر لا تنيره سوى ثقوبٍ صغيرةٍ ينفذ منها النور ليحطّ على سطح المحيط. فاحت من الأرض رائحة الرطوبة، إلا أن العشب كان بني اللون، يموت ويتغيّر ليطفو على سطح المياه المالحة. نهضت ومشيت فقابلت صياداً. مررنا

متقاربَيْن في صمتٍ تامٍّ، من دون لمحةٍ أو حتى نظرة خاطفة. حلمت بطاولةٍ، بامرأةٍ يداها مصبوغتان وبكرسيٍّ مكسورٍ، جمع كل ذلك تحت سقفٍ واحد. رأيت أبواباً كان عليّ فتحها. مشيت نحو أوّل بابٍ وفتحته بكل ما أوتيت من قوة. دخلت وهرعت نحو الباب الثاني إلا أنه كان مقفلاً. بقيت هناك لأيامٍ وأيام أتوسّل ليفتح الباب. ثم استسلمت للكرى، وحلمت أنّ الباب قد فتح. ابتسمت لي امرأة عارية تحمل كيساً وقالت لي:

ـ اخلع ثيابك.

نظرت إلى أسفل، وإذا بثوبي يتحوَّل ماءً، فجمعته وسلّمتها إياه. حملته بين يديها وسكبت الماء في مقلتيّ.

ـ ادخل من الباب الثالث الآن وإن رأيت والدك قل له إنك تركت ثيابك.

رأيتُ طريقين، فاخترتُ الطريق الضيّق. راودني حلمٌ آخر حيث رأيت نفسي في نهرٍ أحمل قطعة من الخبز، رميتها لعصفور. عبرت النهر فوجدت الباب الرابع. حاولت فتحه بكل قوّتي، إلا أنه أبى أن يفتح. لمسته بإصبعي بلطفٍ فأطاعني. دخلت حديقة فيها كرسي وكتاب. جلست على الكرسي ودخّنت؛ غنّيت ففتح باب آخر أمامي. عبرته سريعاً إلى الفراغ، حيث لا أشجار ولا طاولات ولا كراسي ولا رفرفة عصفور ولا قمر ولا نور ولا أفكار. تسمّرت في مكاني وأغمضت عينيّ، فحلمت بزهرةٍ كبيرةٍ شممتها وتسلّقت ساقها ونمتُ بين أحضان تويجياتها فراودني حلم آخر. راودتني رؤيةٌ لصديقٍ مغمور بالنور والدم.

قفلنا أنا وجورج عائدَين عبر طريقٍ أناره مصباح واحد لمع شعاعه تحت صدورنا المخدرة ومفاصلنا وعيوننا الحمراء المثقلة. مضينا نحو المدينة المظلمة التي أنارتها مصابيح باهتة معلقة على الحواجز، فانعكست شعاعاتها الواهنة عن أجزمة الجنود اللماعة.

حين وصلت إلى المنزل، رن الهاتف، إلا أنني لم أجب. استلقيت على سريري، لكنّ النوم طار من عينيّ. أخرجت المسدس من تحت قميصي وخبّأته تحت الفراش.

تصاعدت ضوضاء من الأسفل. صوت عراك قططٍ ووقع أقدامٍ بين الفينة والأخرى، وهمسات. همسات ساكنة توغلت في عقليٍ وتسلّلت إلى أحلامي، فأضحت كلمات مألوفة.

فجأةً أحسست بيدي أمي تهزانني وتنزعان الغطاء عني. كانت تتوسّلني لأستيقظ.

ـ انزل. إنهم يستهدفون حيّنا. هيا انزل وابتعد عن النوافذ. كيف تستطيع النوم هكذا؟ فالقذائف تتساقط في كل مكان.

كانت جارتنا نهلى هي أيضاً تتوسّلني قائلة:

ـ أشفق على أمك، وانزل معنا إلى الملجأ. انتظرَتك النهار بطوله والليل أيضاً. كيف لا تراعي مشاعرها؟ طوال الليل لم يغمض لها جفن. أين كنت؟

ـ سأبقى بين هذه الجدران. انزلا أنتما، سأكون على ما يرام هنا.

ـ لا انزل معنا! فنحن في حاجةٍ إلى رجلٍ في الملجأ. انزل يا حبيبي. بحقّ جدّك المتوفّى انزل!

سمعنا دويّ انفجارٍ هائل، إثر سقوط قذيفة على مقربة، فصرخت المرأتان وارتمتا على الأرض، وقالتا:

ـ قريبة! هذه قريبة!

نهضتا وركضتا نحو الرواق. تساقط الزجاج المتهشّم وقطعاً من الحجارة إلى الشارع. كانت أمّي ترتجف من شدة الخوف. نظرتُ إلى عينيها، فلاحظت أن التجاعيد المتكوّرة على وجهها قد وجّهت دموعها المنهمرة نحو وجنتيها الغائرتين.

صرخت نهلى:

ـ الأولاد! أولادي!

أمسكتُ بيدي نهلى لأمنعها من المغادرة إلى الخارج، قائلاً:

ـ لا ريب في أن القذيفة التالية في طريقها. لا تتحرَّكي!

حاولت نهلى الهروب. لكنني منعتها. حاولت التحرر من يديّ، وكأنها حيوان في الأسر. لكنّها خدشت وجهي وفرّت. تبعتها على الدرج. شرعت تنادي بهستيريّةٍ على أولادها طوال الطريق، وصولاً إلى الشارع المغمور بالزجاج المهشّم. فجأةً دوّى انفجار هائل هزّ المبنى معه. أحسست بضغطه على صدري وسمعت صوت الزجاج المتكسر الذي انهار بعد لحظة. رأيت ضباباً من الدخان يشبه طعمه طعم الغبار القديم والتراب القاسي.

دفعتني رائحة البارود والخبز المحروق لأعبر الدخان، وحثّتني لأصعد الدرج حيث صرخت مقطوع الأنفاس: أمّي!

بيروت

٧

والداي اللذان كره أحدهما الآخر في الحياة، يرقدان الآن معاً في صندوقين خشبيين تحت الأرض نفسها.

تخاصما وتبادلا الصراخ حين كان والدي يعود في وقت متأخرٍ من الليل ورائحة الكحول تفوح من فمه، وبيدَيْ مقامر مهزومتين صفع وجه أمي فجعل ما حول عينيها سواداً. كان يطاردها إلى المطبخ تحت وابلٍ من الصحون الطائرة وفوق الأواني المتكسّرة. والآن، أصبحا جثتين هامدتين تأكلهما الديدان اللزجة، ولا يزالان يتعاركان تحت الأرض الرطبة.

رميت أول ذرةٍ من التراب فوق تابوت والدتي، ثم أدرتُ ظهري وعدت إلى المنزل، مبتعداً عن التراتيل المتكررة ودخان البخور الأبيض والدموع المنهمرة.

ظلّ الجيران والأصدقاء يقرعون بابي لأيامٍ وأيام. إلا أنني لم أفتح لأحد.

دخّنت. وبطريقةٍ ما، منحني هدوء الأواني التي لم تعد تقرقع، وصمت المذياع، وغياب حفيف المكنسة الرقيق، سكينةً.

عصفت الرياح كما يحلو لها عبر الثقبين الكبيرين في المنزل. وحدها الرياح هي التي دخلت، فهي وحدها التي استطاعت إلى ذلك سبيلاً. في وقتٍ متأخرٍ من إحدى الليالي، فتحت الباب ومضيت لأشتري السجائر، فإذا بي أقع على صحنٍ فيه بعض من الخبز موضوع عند عتبة الباب، تركه الجيران هنا بعد أن كلّت قبضاتهم وأصبحت حمراء جرّاء قرعهم بابي.

عبرت الشوارع، فقادتني قدماي إلى المقبرة. دخنت ثمّ تسلّقت السياج ووقفت أمام كومةٍ من التراب لم يتم جرفها بعد. تسمّرت مكاني واستمعت إلى همسات والديّ. ربما ما سمعته أصوات العواصف التي احتكّت بالصلبان الحجرية البيضاء. في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة، كسرت نبيلة وجورج القفل ودخلا الشقة. كان السواد يلفّ نبيلة التي هرعت إليّ.

ـ أنت هزيل! انظر إلى نفسك، كم أصبحت شاحباً وهزيلاً. عليك أن تأكل، لقد أحضرت لك بعض الطعام.

جلَسَت على حافة سريري وقالت:

ـ عليك أن تأكل. أرجوك يا بسّام كُلْ.

وقف جورج صامتاً في مكانٍ أبعد قليلاً. تجوّل بين قطع الأثاث المكسور ونظر عبر الجدران المفتوحة. ثم أخرج علبةً من السجائر وعرض عليّ واحدة. وحين أشعل عود ثقاب هسهست نبيلة استهجاناً، وقالت:

ـ يكفيه سجائر، عليه أن يأكل. انظر كم بات شاحباً.

في اليوم التالي، عدت إلى العمل في المرفأ. جاء أبو طارق رئيس العمّال، يمشي بخطى متمهّلةٍ وقدم إلي تعازيه، فشكرته. وما تمكّنت من ملاحظته أنه كان ينتظر منّي إشارات حزن أو دموعاً منهمرةً كالأمواج المالحة التي تتكسر تحت أقدامنا على جوانب المرفأ الإسمنتية. إلا أنني لم أملك حزناً لأوفّره أو لأستعرضه. إن منحني موت أمي شيئاً، فهو أنه حرّرني. لن أترك أحداً خلفي الآن، فموتها قرّبني من الطيور وأبعدني أكثر عن البشر. الطيور تحلّق وكنت أتوق بدوري إلى التحليق بعيداً. أردت الهيام ورأسي أقرب من الأرض، أراقب الحصى، المارة، وأشم الغبار. أضحيت الآن مخلوقاً أقرب إلى الكلاب منه إلى البشر.

دخلت مبناي في آخر النهار، ورأيت رنا تجلس على الدرج. مررت بقربها دون أن أتفوّه بكلمةٍ. تبعتني على الدرج، ودخلت غرفة النوم ورائي. شرعت تجول المنزل وتلتقط قطع الأثاث المكسور والحجارة المبعثرة.

ـ دعيها مكانها.

ـ لا!

بدأت تبكي. ثم أمسكت بيدي وقالت:

ـ عليك أن ترمم المنزل. هل سمعت؟ هل سمعتني؟

التقطت بعض الأشياء، وذرفت الدموع، وصاحت بي:

ـ تمرّ أيام من دون أن تقول كلمة؟ هذا يكفي! قل شيئاً! قل شيئاً!

دفعتني براحتين مفتوحتين. حاولتُ المغادرة إلا أنها اعترضت طريقي قائلةً:

ـ لا! لن تغادر ما لم تقل لي شيئاً. لا!

دفعتها عني، فعادت واعترضت طريقي مجدداً:

ـ لا. لا مزيد من الصمت.

أبعدتها مجدداً فصفعتني. أمسكت بيدها وأجبرتها على النزول إلى الأرض المغبرة. وهبطت الدرج، ومضيت إلى المدينة.

حين التقيت نجيب في الكازينو، كان الوقت صباحاً ولم تكن آلات القمار قد وصلت بالكهرباء بعد. كان المكان يعبق برائحة دخان الليلة الماضية، وكؤوس الويسكي غير المغسولة وأنفاس المقامرين الكريهة.

ـ أنا صديق جورج.

أومأ لي برأسه، وهو يقبل إليّ من وراء منضدة البار، ويوصل إحدى الآلات بالكهرباء.

في وقتٍ لاحقٍ من بعد ظهر ذلك اليوم، التقينا أنا ونجيب على درج الكنيسة. كان القلق يعتريه أكثر مما كان في الصباح. تجاوزته وطلبت إليه أن يتبعني. تردد قليلاً، وانتظر برهة، ثم تبعني ونزل الدرج. كانت زاوية الكنيسة تعبق برائحة البول وبندى جدران المدينة القديمة. سلّمته المال فعدّه، ودسّه في جيبه، ثم سألني بفظاظة:

ـ متى ستأتي مجدداً؟

ـ صباح الجمعة كالعادة. هل أخبرك جورج أن تحضر لي الويسكي متى ساورك الشك في شيء؟

ـ أجل، أجل. أخبرني كل شيء.

أدار ظهره، وصعد الدرج وهو يقفز سريعاً.

استدعيته نهار الجمعة.

دفن عشرة آلاف تابوتٍ تحت الأرض، وكان الأحياء لا يزالون يرقصون فوق الأرض والأسلحة بأيديهم. بعد أيام، اشتريت المسدس من جوزيف، ورمّمت جدران المنزل، فالشتاء آتٍ والرياح المهاجرة لم تعد موضع ترحيب. تساقط المطر وأغرق الأرض معه، فحمّم والديّ بالوحل الناعم. دخّنت النهار بطوله وأنا مستلقٍ على سريري. كان السكون يعم المنزل بأكمله، وكنت وحيداً.

بعد ظهر أحد الأيام، حملت مذياع والدتي بين يديّ.

أزلتُ الغطاء فوجدت شرائط خضراء وصفراء داخله، ومكبر الصوت مستديراً وأخرس. إنه معدنٌ فضيٌّ رخيصٌ ملصوق على ألواحٍ من البلاستيك الأخضر. بحثت عن فيروز، غير أنها كانت في باريس تغنّي.

ذهبت نهار الجمعة إلى الكازينو، فوجدت نجيب لامبالياً. جعلني أنتظر للحصول على فكّتي. وأخيراً أحال إلى الآلة مبلغاً صغيراً من المال أقل من المعتاد. دخل شاب آخر حين كنت

ألعب. رأيت نجيب يلوّح له من خلال الصور المنعكسة على زجاج الآلة التي كنتُ ألعب عليها. ردّ عليه الشاب بإشارةٍ، وغادر.

قبضت نقودي، ورحلت.

عبرت الشارع، وانتظرت في مدخل مبنىً مجاور.

رأيت الشاب يعود إلى الكازينو. نظرت إليه جيداً. وانتظرت. دخّنت، وانتظرت. وحين خرج من الكازينو تبعته من بعيدٍ إلى أن ركب سيّارته وانطلق بعيداً.

عندما رأيت نجيب في المرة التالية، كان يرتدي حذاءً جلدياً جديداً وسترةً جلديةً، ويضع «الجِل» على شعره.

التقينا في الطابق السفلي تحت الكنيسة. أنقدته نصف المبلغ الذي جنيته.

عدّه نجيب، ثم قال بهدوء:

ـ هنالك المزيد.

ـ ماذا قلت؟

ـ هنالك المزيد، أسمعتني؟

ـ لا. هذا المبلغ بأكمله.

اقتربت منه ونظرت إلى عينيه، فنظر بدوره إليّ وقال:

ـ بلى هناك المزيد.

ـ زد الرقم على الشاشة وستحصل على المزيد.

لم يقل شيئاً بل أدار ظهره وغادر. حين وصل إلى أعلى الدرج نظر إليّ من فوق وقال:

ـ نجيب يحصل دائماً على ما هو له.

ـ فليفعل نجيب الولد الصغير ما يشاء.

ـ وسيفعل.

بصق على الأرض، وابتعد بمشيته المغرورة.

قصدت محل «كينغ فلافل» لأبتاع سندويشاً وزجاجة بيبسي، فرأيت جورج وأبا نهرا يأكلان هناك. كان علي أن أعرف أنهما هناك من صف السيارات المدعومة النفوذ، الممتدة على الرصيف. إلا أنني كنت جائعاً ولم أفكّر. حاولت تفاديهما لكن الأوان كان قد فات، لأن جورج رآني وناداني. توجهت نحوه مباشرةً تصافحنا وتبادلنا القبل. كان أبو نهرا يضع نظارته الشمسية من ماركة «راي بان»، فلم تستطع معرفة ما إذا كان ينظر إليك أم لا. عرَّف جورج بنا، فابتسم القائد وطلب إلي الجلوس، ودعاني لأتناول السندويش معهم. رفضت، لكنه أصر، وأمر الصبي الواقف خلف المنضدة بتحضير واحدة فأكلت.

كان الرجال يحيطون بأبي نهرا. عرفت منهم كميل، جوزيف، أبا حديد صديق خليل، الذي لوح لي من وراء طاولةٍ كان يجلس عليها، وسألني إن كنت لا أزال أعمل في المرفأ، فقلت له إن العمل بطيء هذه الأيام.

أخبر جورج أبا نهرا أن أبي قد أسس محطة راديو عام ١٩٥٠، فقال إنه يعرف المرحوم أبي وعمي نعيم.

ـ الشيوعيّ. تركنا لينضم إلى الجهة الأخرى. كيف حاله؟

ـ لا نسمع أخباره قط.

ـ كنا في فريق الكرة الطائرة نفسه. هل تعلم هذا؟

ـ لا. كنت ولداً آنذاك.

ـ ولا تزال.

وضحك.

تأهَّب رجاله حين أصبح جاهزاً للمغادرة. قام بعضهم بسحق الغلاف الورقيّ بأيديهم، بينما أقحموا السندويش داخل أفواههم. لف أبو نهرا يده حول عنقي، ونقر راحة يده بإصبعه ببطء، وقال بصوته العميق:

ـ جئ بهذا المحارب إلى المركز ذات يوم، لينضم إلى صفوفنا يا جورج. فنحن لا نريد أن ينخرط في الجهة الأخرى كعمه. نحن في حاجةٍ دائماً لشبابٍ جيّدين.

لم أفهم على جورج حين تمتم بصوتٍ خفيض. راقبت أبا نهرا. كنت لا أزال أود رؤية عينيه. غمزني جورج وخرج مع الرجال، ثم عاد إلى الداخل وجلس قبالتي. حين انتهيت من الأكل، مشينا في الشارع نحو سيارة الجيب المركونة على الرصيف.

قلت:

ـ هذا جيب خليل؟

ـ نعم. لن يحتاج إليه بعد الآن.

مضينا نحو الطريق الممتد تحت الجسر، وأوقفنا السيارة هناك. أبقى جورج بندقيته الـ M-16 إلى جانبه. وأرجعت ظهري إلى الوراء حتى أشعر بمسدسي يضغط عليه. كنا نسمع هدير السيارات المسرعة تمرّ فوقنا.

سألني جورج وهو ينظر إلي:

ـ متى سترحل؟

ـ لم أحدِّد بعد.

ـ زارني نجيب ليلة أمس. قال إنك تدين له بالمال.

ـ قريبك كاذب. فهنالك شخص آخر في العملية.

ـ سأكلّمه في ذلك. كيف حال رنا؟

ـ إنها بخير.

ـ اسمع، سأغادر الأسبوع المقبل إلى إسرائيل بحراً. وهذه مفاتيح الشقة. إن سألت نبيلة عني، قل لها إنني ذهبت لأخيم في الجبال مع بعض الأصدقاء.

وضع جورج يده على البندقية، ثم حملها ببطء، ووضعها على المقعد الخلفي. أدار المحرك، وقفلنا عائدَين إلى الحيّ.

حين ترجّلت من السيارة، نظر إليّ جورج وقال:

ـ سأكلّم قريبي.

انتظرت نجيب على قمة هضبةٍ خارج المدينة كما اتفقنا في وقتٍ سابقٍ من ذلك اليوم.

أقبل في سيارةٍ مع شابين آخرين، وقد تناهى إلى سمعي هدير موسيقاهم. تطاير الغبار وحجب معه رائحة عطر ما بعد الحلاقة الذي وضعه المغفّل بالإضافة إلى رائحة الجل على شعره. رأيته من وراء الشجرة يخرج من السيارة ويصعد إلى أعلى الهضبة بحذائه الإيطالي المسطّح، حاملاً سترته الجلدية اللماعة بين يديه. تركته يتجاوزني. وحين رأيت ظهره، مشيت نحوه ببطء وأمسكت سترته فرميتها على الأرض ودفعته ناحية شجرة.

ارتعدت فرائصه من الخوف. نظرت إلى يديه فوجدتها خاليةً وفتشت خصره فوجدت أنه لا يحمل سلاحاً.

ـ من معك في السيارة؟

فأجابني وقد أخذته المفاجأة، ورائحة الكحول تفوح منه:

ـ أصدقائي.

ـ لم جئت بهم؟

ـ نحن في طريقنا إلى برمانا.

ـ لم يجدر بك المجيء بأحد.

ـ إنهم لا يعرفون شيئاً عن عمليّتنا.

دسست حصته من المال في جيبه وقلت له:

ـ أنت متهور وتتصرف كالأحمق. سيكتشف أبو نهرا الأمر يوماً. وعندها سيزرع رصاصة في رأسك، ولن يستطيع قريبك ولا حتى والدتك منعه من القيام بذلك. والآن اذهب وقل لهم إنك خرجت لقضاء حاجة. هذا ما قلته لهم أليس كذلك؟

لكنه لم يجبني.

صعدت نحو أعلى الهضبة ونظرت إلى الوادي. ثم نظرت إلى البحر الممتد أمامي، البحر الذي سأضطر إلى الغوص فيه ذات يوم والتسلل تحته، وعبوره سباحة لأصل إلى شطآنٍ أخرى، وأترك هذا المكان.

٨

عاد جورج من إسرائيل.

اتصل بي، فذهبت لرؤيته في منزله. فتح أبو حديد الباب وقبّلني ثم أمسك بعنقي، وجعلني أجلس قربه وهو يربت على كتفيّ.

كان جورج قد اكتسب سمرةً صحراويةً داكنة. وكانا كلاهما يشمان الكوكايين عن سطح زجاجيٍّ.

أشار جورج إلى الطاولة وقال:

ـ أتودّ خطاً من الحليب المجفف؟

ـ لا، شكراً.

كان يرتدي قميصاً عليه ثلاثة أحرف عبرية. بدا مفتول العضلات، أهدأ طباعاً؛ وكان حليق الرأس. أما حركاته فكانت أبطأ كما بدا أكثر انفعالية. صب الويسكي وتكلم عن المخيم في الصحراء وعن التدريب:

ـ حين تتسلل على عدوٍّ من الخلف لتشرط عنقه، عليك أن تُمسك به من ذقنه وليس من فمه، وإلا سيعضّ يدك، حسناً؟ إذاً كان علينا التمرن على ذلك. بول جُريج الذي يعيش في كرم الزيتون، تعرفه يا بسّام أليس كذلك؟ إنه يقود سيارة فيات بيضاء ذات الرفراف العالي.

في كل حال، فإن بول وضع يده على فم بيبو وليس على ذقنه، حسناً؟ وماذا كان أمام بيبو أن يفعل؟ عض يده رافضاً إفلاته، فصرخ بول بألمٍ: «وْلا شدّ يا بيبو شدّ متل ما شدّ بيّك أوّل ليلة!».

ضحك جورج وأبو حديد للأمر، وقال أبو حديد:

ـ استمع إلى قصّة جورج. استمع بشرف أختك.. استمع إليه. هذا الرجل «فنّاص» كبير.

كان جورج منتشياً، والابتسامة تعلو وجهه. نظر إلي قائلاً:

ـ بسام.. بحق روح أبيك، أخبر أبا حديد عن نيكول، تلك الشابة التي أعطتني رقمها في برمانا. كنت معي آنذاك. هيّا أخبره.

ـ أجل كنت هناك. كانت «شلخة».

ـ «شلخة» أليس كذلك؟ اتصلت بها فرد عليّ رجل كبير في السن. ظننته والدها. لكن حين سألت نيكول عنه قالت إنه زوجها. فسألتها: أأتصل بكِ لاحقاً؟ قالت لا. لا تقلق

وأكملت حديثها بشكلٍ طبيعيٍّ، وكأن أحداً ليس هناك.

بقيت أتصل بها كل يوم. وأحياناً كنت أسألها عما ترتديه، فتجيب أنها لا ترتدي شيئاً، أو أنها ترتدي ملابس داخلية مخرّمة أو قميصاً فقط. بدأنا بالكلام البذيء وزوجها لا يزال في المنزل. سألتها مرة إن كان زوجها في المنزل، فقالت إنه ينصت على الخط الآخر. فقلت في نفسي ما الذي يجري بحق الجحيم؟ أتعلم؟ ربما لم يكن رجلاً حقيقياً.

في المرة التالية اتصلت بها فعرف صوتي، وقال: كيف حالك يا جورج؟ هلّا أتيت لزيارتنا. ثم أخذت نيكول السماعة، ورحنا نتكلم بشكلٍ طبيعيّ.

قرّب جورج الصينية إليه. جثا وشمّ شمّةً من الكوكايين الذي استنشقه عبر منخرٍ واحدٍ، بينما سد الآخر بسبّابته، ثم تابع:

ـ ذهبت إلى منزلهما في سرسق؛ وهو، كما تعرف، واحد من المنازل الفخمة؛ فتحت لي الخادمة. بدا الرجل الذي يقارب الستين، بل أكبر، كأنه والدها. كسا الشيب شعره. كان يرتدي روب المنزل، وينتعل خفّين، ويدخن سيجاراً كبيراً. دعاني إلى الدخول، وبدأ يكلّمني بالفرنسية: Bonjour, George, Comment ça-va[1].

أخذني لنجوب المنزل، ثم أتت نيكول وقبّلتني من فمي

---

(١) أهلاً جورج، كيف حالك؟

أمامه، واستدارت وقبلت وجهه، ودعته لولو. أما هو فكان يناديها بـ "Bébé".

فتحا زجاجةً من النبيذ الفرنسي، وكانت نيكول تنظر إلي وتبتسم طوال الوقت.

صاح أبو حديد:

ـ سأضاجعهما كليهما، وأضاجع الخادمة أيضاً.

وقف جورج، مفعماً بالحيوية، وقال:

ـ انتظر واسمع. خلعت نيكول حذاءها وراحت تداعبني بقدميها من تحت الطاولة. غادرت الخادمة بعد العشاء.

قاطعه أبو حديد، مجدّداً:

ـ كنت لأضاجع الخادمة. كنت لأضاجعها!

ـ انتقلنا إلى الصالون، حيث جلست قربي، وأمسكت بيدي.

سأل أبو حديد:

ـ أمام زوجها؟

ـ نعم أمامه.

سألته:

ـ وما الذي فعلته؟

ـ (اعذراني).

ـ حسناً.. قلت لهما "Excusez-moi"[١]. لكن هل أنتما حقاً زوجاً وزوجة؟

فأجابني لوران، وهو اسم الزوج: "Bien oui, George absolument"[٢]. إن نيكول معجبة بك، C'est quoi le problème, alors[٣].

راحت نيكول تقبّلني. ثم أخذت مسدسي وقالت: أحبّ الرجال الأقوياء. "Regarde Laurent, Regarde, mon chéri"![٤] وأعطته مسدسي. حدَّق إليه لوران وقال: "C'est un vrai guerrier, lui"[٥]. وضعت يدها على عضوي. وكانت مثارةً تلهث بصعوبةٍ. جثت على ركبتيها، وفتحت البنطلون، وراحت تحرك رأسها إلى أعلى وأسفل. صاح أبو حديد:

ـ أمامه؟ أتصدق قصته يا بسام؟

قاطعه جورج:

ـ انتظر، هنالك المزيد. بدأت الآن تلعق عضوي، وبدأ الرجل يشجّعها، مصفقاً بيديه ويغني: "Vas-y Nicole, vas-y Bébé, vas-y bébé"[٦].

---

(١) اعذراني على السؤال.
(٢) أجل يا جورج بالطبع.
(٣) ما المشكلة في ذلك؟
(٤) أنظر يا لوران انظر يا عزيزي.
(٥) إنه محارب حقيقيّ.
(٦) هيا يا نيكول هيا يا طفلتي، هيا يا طفلتي.

حين بلغتُ النشوة، هرع إلى المطبخ وأحضر لها منشفة وأمسك رأسها ونظف حول فمها، وهو يقول طوال الوقت: "Bébé, mon petit bébé"[1].

بعد ذلك طلب إلي لوران المغادرة. قائلاً لي: "C'est tard. Nicole est fatiguée maintenant"[2].

توجّه معي إلى الباب، مودِّعاً: أنت تروق لنيكول، سنتصل بك مجدداً.

سأل أبو حديد:

- وهل اتصلت بك؟

- نعم اتصلت.

- هل أستطيع القدوم معك؟

ضحك أبو حديد وانحنى على الصينية، يسبقه أنفه. رافقني جورج، وأنا في طريقي إلى الخارج، وقال:

- اسمع. يبدو أن ثمة توتراً بينك وبين نجيب. من الأفضل لكما أن تحلّا المسألة، أو ألغيا الصفقة. لا أريد لأبي نهرا أن يكتشف الأمر، فإن عرف، قد يطلب إلي قتلكما أنتما الاثنان. تستطيع دائماً الانضمام إلى القوات، إن احتجت إلى المال.

فأجبته:

---

(١) يا طفلتي، يا طفلتي الصغيرة.
(٢) لقد تأخر الوقت يا جورج ونيكول متعبة الآن.

ـ تكلَّم مع قرينك.

في تلك الليلة، عبرت وهج مليون شمعةٍ تحترق داخل منازل الحي. مشيت تحت تلك الأضواء التي بدت ضبابيّة خلف النايلون الذي غطى نوافذنا المكسورة، في الشوارع الخالية من الكلاب. مشيت ورقصت الشموع في مدينة مجروحة الجدران، مدينة خاوية من الأضواء، مدينة مكسورة يلفّها البلاستيك، ومجفصنة بثقوب الرصاص.

في طريقي التقيت أم دوللي، التي كانت متوجهةً إلى الكنيسة لصلاةٍ مسائية، تغطي رأسها بمنديل مخرّم أسود اللون.

ـ سأصلي من أجل روحك الضائعة يا بني. فعقاب الله عظيم، وسيشملنا جميعاً.

ـ الله ميت.

ارتعدت أم دوللي، وصلّبت كأنها صادفت لتوها الشيطان بعينه. مشيتُ في غياب الشمس، وظننت أنني رأيت الشيطان يلاحقني ويشتمّ، كالكلب الليليّ، البراميل التي تفيض قطعاً من الشموع، وأجزاءً من الصحف، وفضلات الماعز المذبوحة والأجساد، ودبشاً وخراباً وغائطاً ونفاياتٍ بشريّةٍ، وحثالة منزلية، وحطام سفينة وزجاجاً مهشَّماً. سمعت صوت محرك سيارةٍ تسير ببطء خلفي. التفت إلى الوراء، فرأيت ظلال ثلاثة رؤوس خلف الزجاج الأماميّ.

سمعت في الظلمة رجلاً يطلب إلي صعود الرصيف. نظرت

إلى الخلف مجدَّداً، عرفت نجيب، كان معه رجلان لم أرَهما من قبل. ترجلوا من السيارة على حين غرّة وأغلقوا أبوابها بقوةٍ وشرعوا يدفعونني. شعرت بمرفقٍ فوق ذقني وبعدّة سلاحٍ ناريٍّ على عنقي. أمسك أحدهم بيدي وبرمها خلف ظهري، بينما دفعني آخر على الرصيف. أحاطوني ودفعوا بي نحو بابٍ معدنيّ. أتاني نجيب من الخلف، وهمس في أذني قائلاً:

ـ لا تأتِ إلى الحانة بعد الآن، أفهمت؟ لا تفكر حتى في القدوم، وإلا سنهشّم وجهك القبيح.

حاولت الوصول إلى مسدسي، إلا أنني كنت أناضل لأتنفّس؛ وكانت يدي اليمنى مبرومةً خلف ظهري حتى كتفيّ.

همس نجيب مجدداً بصوتٍ يقطر سلطة اصطدمت بصوته الصبيانيّ:

ـ أعد ما سرقته منا، وإلا سيزورك صديقاي من القوات في منزلك.

أمسك الرجلان بيدي وأجبراني على النزول أرضاً، فغطيت رأسي لحمايته، وتقوقعت على نفسي كدودةٍ تحت تربة حديقةٍ، منتظراً نعال أقدامٍ عملاقةٍ لتنهال عليّ كما تتساقط الأوراق الضخمة من أعالي أشجارٍ في غاباتٍ هائلة. شعرت بضربات الرجال تنهمر على ضلوعي فوجهي. وتتالت القبضات والأقدام في ضرباتٍ تساقطت على جسدي، كما تتساقط النقود من آلة البوكر بعد الضربة الرابحة.

أخيراً بصق نجيب عليّ وغادر مبتعداً.

شاهدت الثلاثة يغلقون أبواب السيارة وينطلقون نحو شارع المستشفى. نهضت عن الأرض كما الشيطان، وركضت باندفاع ألف كلبٍ تواقٍ إلى الانتقام. أفرز دماً حلواً ووعوداً سامةً كضبعٍ معتوهٍ، كمعدنٍ يثقب عنق وحش. قفزت فوق سياجٍ وحطيت على شارع المستشفى وراقبت أضواء السيارة تتوجه ببطء نحوي. شهرت مسدسي ووقفت وسط الطريق. توقفت السيارة وراحت تتراجع على الطريق الضيّق مصطدمةً بالسيارات المركونة يميناً ويساراً. سمعت نجيب يصأى كالفأر في قبضة أسد. فأطلقت النار على السيارة وأصبت الضوء الأيمن.

تحرّكت إلى جانب الطريق قرب جدارٍ حيث الظلمة طاغية. وتقدّمت على مهلٍ نحو السيارة، وأنا أمد يديّ إلى الأمام، واضعاً إصبعي على زناد المسدس. صاح نجيب:

ـ «رجاع يا الله رجاع».

أطلقتُ رصاصتين أخريين على الضوء الأيسر، فرأيت ظلال رؤوس الرجال المرتبكين كالعصافير المحبوسة في قفصٍ زجاجيّ. سالت الدماء من يدي اليسرى وعضضت على شفتي المنتفخة متجاهلاً ضلوعي المكسورة، وطلبت إليهم الترجل من السيارة ببطء.

قلت لهم:

ـ ببطء.

وببطء قلت لهم:

ـ ببطء.

خرج نجيب من السيارة أولاً. أما الآخران فرفعا أيديهم وتقدما نحوي. جعلتهم ينبطحون جميعاً على الأرض أمام رفراف السيارة وتحت قمرٍ هائجٍ، على مستوى حذائي وأسفل نفسي المتثاقل ودمي الذي يقطّر وعينيّ اللتين برقتا بشيطانية. نعب نجيب وبكى كالطفل الجائع.

فتّشتهم فلم أجد للسلاح أثراً. أطلقت سراح صديقي نجيب وأمرته بالبقاء.

أخذنا السيارة. جلست أنا في المقعد الأمامي وكان هو الذي يقود. بكى طوال الطريق، وانتشرت منه رائحة البول الذي رسم بقعة طويلةً على بنطلونه حتى الركبتين. بكى وثرثر كالمعتوه، يتوسّلني وهو يمتثل لإرشاداتي.

حين وصلنا تحت الجسر طلبت إليه الترجُّل من السيارة، فتشبث بالمقود وشرع يتحرك إلى الوراء والأمام، منتحباً يتوسّلني ألا أقتله.

ـ اخرج. لن أؤذيك هيا اخرج.

ـ لقد بلت على نفسي. قل لي ما الذي تريده.

ـ اخرج.

فتح الباب على مهلٍ. وقبل أن يتسنى له الفرار أمسكت به

ودفعت بخصره فوق غطاء السيارة الدافىء، ووضعت المسدس في أذنه.

ـ من الرجلان اللذان كانا برفقتك؟

صرخ:

ـ لا أعرفهما!

ـ أعرف أنهما من القوات. لا بد للصغير نجيب أن يعرف شيئاً. من أرسلهما؟

بكى نجيب وتوسّلني مجدداً ألا أقتله.

ـ حسناً، لنتّفق. تكلم ولن أقتلك. إن لم تتكلم سألعب الروليت الروسية بمسدسي الآلي هذا. ما هي الفرص برأيك؟ تكلّم وإلا سأرمي بجسدك وحذائك الثمين في البالوعة، لتقتات عليهما الجرذان. فلسوف تهوى التهام العطر الفرنسي من وراء أذنيك يا «شيك إنت».

ارتعدت فرائصه من الخوف، وسال فيض جديد من البول إلى كاحليه.

ـ من هما؟

بكى نجيب، واعترض قائلاً إنه لم يلتقهما من قبل.

ـ حسناً إذاً إلى الجرذان!

ـ لا! لا! انتظر. هما صديقا دي نيرو. أرجوك ألا تخبره بأنني أطلعتك على الأمر. أتوسّل إليك بحق قبر والدتك!

ـ سآخذ السيارة. سر أنت إلى المنزل لتجفّ ثيابك.

ركنت السيارة أسفل الهضبة التي تطلّ على الأشرفية، وفتحت «التابلو» الذي احتوى على مصباح يدوي وورقة، هي صلاحيةٌ عسكريةٌ للمرور بالحواجز، تحمل اسم نجيب. طويتها ووضعتها في جيبي. فتّشت السيارة بأكملها ولم أجد شيئاً. لا أوراق تدلّ على صاحبها ولا أسلحة. ترجّلت منها، أغلقت باب السائق، ومشيت أعلى التل عبر حي السريان.

رأيت امرأةً بيدها مكنسة لتكنس الغبار عن عتبة منزلها إلى الشارع. حين مررت بها توقفت عن عملها ورمقتني بنظرةٍ طويلة. تبادلنا النظرات، ثم تابعتُ طريقي، وارتفع صوت حفيف المكنسة مجدداً.

هبط شعاع القمر وأنار الغسيل الراقص المعلق على الأسطح الصغيرة. فوق، تلألأت سماء المسيحيّين بالنجوم بينما غطت الظلال الأزقة الضيّقة.

كنت ألهث وأنا أصعد التلال مروراً بنوافذ الطوابق الأرضيّة، فأسترق نظراتٍ فضولية سريعة من صورٍ فوتوغرافية بنية داكنة يتصدّرها أجداد بوجوه يعتريها الندم. صور لزهرياتٍ مموّجةٍ مع أزهارٍ بلاستيكيةٍ. أرائك مهجورةٌ موصومةٌ بخطايا قديمة، ولوحات رومانسية لمناظر طبيعية تصوّر الأودية الخصبة والمنازل بسقوفها القرميدية الحمراء. موائد خشبيّةٌ هائلةٌ مع كراسي مصّاصي الدماء تحت الصلبان المعلّقة على الجدران العمودية. سمعت أصوات قرقعة الأواني والسكاكين القاطعة

المدينة.. يرتديان الصنادل المفتوحة البخسة.. يمضغان العلكة البنفسجية اللون، بينما تفيض جيوبهم بالكلل.. يطاردان الأسود الهندية والأفريقيّة بنقافاتٍ وأقواسٍ ملتويةٍ.. يصلّيان جاثيين على ركبٍ مجروحةٍ، ويعترفان بألسنةٍ غريبةٍ والشموع حولهما ترقص كلهيب سجائرنا المسروقة في الليل، في الأزقة الضيقة وتحت الأدراج.

رفع جورج كأسه وقال:

ـ الويسكي.

فأجبته بسخرية:

ـ الويسكي.

ـ تستطيع كسب المال من الويسكي. اعمل معي لبضعة أشهرٍ وانسَ أمر حانة البوكر. اكسب المال وغادر.

ـ لن انضمّ إلى جيشك.

ـ لا. لست مضطراً إلى ذلك. فهذا عمل جانبيّ. اجمع أنت الويسكي البخس الثمن المستورد من رومانيا في زجاجات جوني ووكر المزيّفة مع ملصقاتٍ مزيّفة. فالمصنّع يحتاج إلى إرسال بضع مئاتٍ من الصناديق إلى الجهة المسلمة، وستحمّل أنت الشاحنة وتلتقي أحدهم وسط المدينة، وتسلّمه الحمولة. هذا كلّ شيء.

ـ ومن يشارك في الصفقة؟

وموجات فوق بنفسجيّة لمذياعٍ تجعل الكلاب تلاحق أذيالها. وفي الخارج، في الباحة الخلفيّة، رأيت الغسيل منشوراً بأيدٍ مترهلةٍ، معروضاً على حبالٍ مستقيمةٍ كصفوفِ الجيش، أشبه بالتصويرات الجصية على الشرفات الإيطالية. شممت رائحة مرق الدجاج المطهو. وسمعت الأيدي التي تحمل رائحة البصل تنق على السكاكين فوق لوحات التقطيع، في لحنٍ متصاعدٍ ككورس فتيان الكنيسة المخصيّين، أو كالنحيب الأزلي للآراميين الذي ذرفوا الدموع، في ذلك اليوم العاصف، على ابن يهوه المقتو وعلى جثة مرافقه، السارق الذي نال السماح.

دعاني جورج إلى الجلوس.

أخرج علبة سجائره، وأشعل واحدةً، ورمى بعلبة المارلب على الطاولة.

ـ هل سوّيت الأمور بينك وبين نجيب؟

وقبل أن يتسنّى لي الإجابة، أضاف:

ـ انسَ أمر آلات البوكر، فلدي عمل آخر لك.

أبقيتُ نظراتي مسمَّرة عليه، ولم تشتعل أي سيجار أصابعي. لم يشتعل سوى حلقي بينما احترقت عيناي صدري ينفث غضباً. وراحت صور الطفولة ترقص أمامي الطاولة. ولدان يبوّلان في زوايا الجدران.. يطلقان النا اليمامات بمسدّساتٍ خشبيةٍ. يسرقان الشموع بأيديهم ا ويلوّحان بقصباتٍ خشبيّة ليسوقا إطارات السيارات أسفا

ـ لا أحد. فقط أنت وأنا والمصنِّع.

ـ وأبو نهرا؟

ـ أبو نهرا ليس بهذه الأهميّة.

ـ هل سترافقني؟

ـ لا. ستقوم بالتسليم وحدك. أستطيع توفير جواز مرورٍ عسكريٍّ لك إذا أوقفوك. ستبدأ مرّة واحدة في الأسبوع. وبعد فترةٍ ستبدأ الشرقية بأكملها تتوسّل المزيد.

ـ ستكون عمليّة لاثنين.

ـ حسناً من في بالك؟

ـ سأعلمك بهويّته.

ـ فليكن ذلك قريباً، لأن الشحنة الأولى ينبغي أن تسلَّم مساء الخميس والرجل في انتظارك. كنت أنت أوّل من فكّرتُ فيه. فأنا أفكّر فيك دائماً.

ـ نفكّر جميعنا بأنفسنا أوّلاً وأخيراً.

رميتُ له قدّاحته وغادرتُ.

٩

اتّكأت على حافة شرفتي، وشاهدت بعض المسيحيين يمرّون. اجتاز المؤمنون الشارع كالأحصنة، حاملين أكياس التسوّق بأيديهم. وعند نهاية الشارع، توزّعوا حول عربات الباعة التي عرضت أدوات المطبخ والخضر. نادى بائعو الخضر فخرجت النسوة إلى الشرفات، وأعدمن سلالاً وأمرالاً وحبالاً. طلبن حاجاتهنّ بالدزينات وتفاوضن من السماء، واخترن البضائع بأنفسهن وهن يرفرفن بأهدابهن الطويلة. دوّت أصوات طلباتهن كالصدى عبر الجدران المتصدّعة. وتدلّت سلالهن عن شرفاتهن كالدلاء، التي تتدلى داخل الآبار المظلمة. حين ملأ الباعة سلالهن، راحت هذه النسوة، كعمال المناجم، يسحبن الحبال ويشعلن النار ويطهون الطعام في قدورٍ معدنية مع صلصةٍ حمراء.

رأيتُ رنا تمشي في الشارع محنيّة الرأس. وصلت إلى آخر الشارع، واستدارت لتمرّ تحتي مجدَّداً. انتظرت النسوة الحبال وكذلك الألسنة الطويلة التي تتوغّل داخل كل منزلٍ، وتلتفّ حول كل وسادة، وتنزلق كالأفاعي في الأسرّة، وتتسلل تحت تنورة كل شابةٍ لتقيّم سيل الطمث وأغشية البكارة.

ألسنةٌ ذاقت الصلصة من الملاعق هي، في رأيي، ألسنةٌ تلعن الأموات وتنشر الغسيل وحياة الناس على الشرفات والأسطح. ألسنةٌ ثرثارةٌ...

قالت لي رنا حين وصلت أخيراً إلى بابي:

ـ حذّرتني أمي بقولها: إما أن يأتي بسام ويطلب يدكِ للزواج، وإما أن يتوقف عن الطواف كالقط أمام نافذتكِ.

ـ أنا أعمل على أمرٍ ما. تحلّي بالصبر.

ـ لا أستطيع المجيء إلى هنا بعد الآن يا بسام. فعبلى، «هيدي الثرثارة»، رأتني أدخل المبنى في ذلك اليوم، فقالت: لم تنته أيام الحداد الأربعين بعد. إن الناس يراقبون ويثرثرون طوال الوقت في هذا الحيّ. لقد مللت ذلك يا بسام، ومللت الحرب والناس هنا. أود الرحيل يا بسام.. لنرحل قريباً، فأنت لا تريد تمضية حياتك بأكملها تنقل الصناديق في المرفأ.

ـ أنا أعمل على أمرٍ ما، قريباً سنغادر. قريباً، «خلص».

أمسكتُ خصرها، وقبّلت شفتيها. ثم رفعتُ تنورتها ووضعت يدي على تقوسات جسدها، ففاض السيل والدفء بنعومةٍ على أطراف الأصابع وعلى الشفاه الناشفة. دفءٌ من الألسنة على الأصابع المالحة. أصابعٌ تدور في الشعر المجعد وتفتح القمصان وتزحف فتخنق الوسائد.

دخنّا سيجارتين، ثم قالت رنا:

ـ رأيت جورج في ذلك اليوم. كان يقود سيارة B.M.W. أهي ملكه؟

ـ لا أظنّ ذلك. لا بد أنها ملك أبي نهرا.

ـ كنت أتمشى مع صديقتي ليلى في ذلك اليوم. نتكلم ونجول بنظرنا على الملابس. توقفت سيارة رياضية جميلة قربنا. لم أعرف أنه جورج إلّا حين خلع نظارته الشمسية. عرض أن يوصلنا. فأجبته وشكرته قائلة إننا لن نذهب إلى مكانٍ بعيد. بدأت السيارات تطلق نفيراً خلفنا وكان جورج قد فتح الباب فركبنا معه وأوصلنا إلى هنا... إنه مضحك للغاية. وضع موسيقى عربية بصوتٍ مدوٍّ، وقاد بسرعةٍ جنونية وكأنه في سباق... أنت صامت للغاية يا بسام... وصمتك هذا يؤلمني. يؤلمني حقّاً. أنت لا تريد إلا لمسي. ألتقيك وتريدني أن أخلع ثيابي، ثم تستلقي على ظهرك وتحدِّق إلى السقف وتدخن، ولا تكاد تتفوّه بكلمة. إنك تؤلمني.

توجَّهت في وقتٍ لاحقٍ إلى منزل جورج. كان أفراد من جماعته مستلقين على الأرائك بقمصانهم القطنية وأحزمة رعاة البقر والجينز الليفايس. تعرَّفت إلى نيكول، المرأة التي صادفناها في برمانا. كان زوجها لوران ثملاً ويتكلم عن أفريقيا. امتدت خطوط عريضة من الكوكايين على المرايا، وعملت الأنوف كخراطيم المكنسة الكهربائية على الزجاج، لتوصل البودرة البيضاء إلى داخل جزيئات العيون الواسعة المخدرة. عجّت الشقة بالمقاتلين الذين لا يقهرون، وضحكاتهم العالية وأسنانهم

اللامعة. وملأ المحاربون المطبخ بأكتافهم المستقيمة العريضة. غنّوا مع الموسيقى بأصواتهم الآمرة، وتبادلوا طبع القبل على الوجنات، وإطراءات البطولة، بينما صوّبوا نظراتهم الحادة، نظرات القناصة، على المؤخّرات المغرية. كان البيت يضج بالطعام والشراب والأحاديث والسجائر.

وقفت بمحاذاة الجدار وزجاجة البيرة في يدي. تكلّمت مع بعض الحاضرين، فادي، عادل، ريمون، سهى، شانتال، كريستين، مايا، سهيل، وجورج الذي كان يبتسم منتشياً.

قال:

ـ استمتع بوقتك الآن، سنتكلم لاحقاً. فهناك فتاة ترعف في الداخل.

ـ سأطلب إلى أحد أصدقائك الجنود، جوزيف شيبان، ليساعدني في مهمة الويسكي.

ـ سنتكلم غداً.

قبّلني على وجنتي، وأضاف قائلاً:

ـ أنت أخي. أنت أخي.

وتوجّه نحو بيبي وزوجها السيد لوران.

قال لي المصنّع حين فتح الباب:

ـ هل جئتَ لاحتساء الشاي؟ اسمع، الأمر بسيط أنا أقوم بالاتصال. إنه عمل؛ فالجميع يشربون. هل تناولت الطعام؟

ـ نعم.

ـ عليك أن تجرِّب طبخة البامياء التي تطهوها زوجتي. تعال اجلس وكلْ.

ـ لا. لقد أكلت. شكراً لك أعدك في المرة القادمة.

ـ أتحبّ الويسكي؟

ـ النوع الجيد فحسب.

ضحك المصنّع، وقال:

ـ لن أعرض عليك إذاً أي ويسكي من إعدادي. في المناسبة، أنا أعرف عمّك. لطالما تورط في السياسة. كنت أقول له: كف عن هدر وقتك بالانخراط في كل هذه النشاطات. لكنه كان اشتراكيّاً يحب المظاهرات! سيحمّل ابني حكيم الشاحنة في المستودع غداً. أعطهم البضائع فحسب، ولن يستدعي الأمر أي تبادل مال. اسم الشخص علي. هل أعطاك جورج التعليمات؟

ـ نعم.

ـ هل ستكون بمفردك؟

ـ لا.

ـ إنّه عمل فحسب. لا مذهب ولا حرب. إنه مجرّد عمل. مسلم، مسيحيّ. لا فرق.

مضينا أنا وجوزيف إلى الأسواق. كانت الشوارع مقفرة. هناك حيث نمت نباتاتٌ صغيرةٌ تحت شقوق الأرصفة المتصدّعة،

وعاشت تحت الأقواس المكسورة، ولمعت أمام المتاجر المنهوبة. نبتت من بطون أكياس الرمال المهترئة، وقطنت داخل الأبنية الحكومية المهجورة التي حنَّت إلى الأيام الخوالي، حين جاب البيروقراطيون الكسالى الأروقة الطويلة، وغفوا على المكاتب المعدنية، وغطّسوا شواربهم في القهوة الثقيلة واستعرضوا ربطات أعناقهم الرفيعة على صدورهم المغرورة المشعرة. بيروقراطيون لوّحوا بأيديهم لإبعاد الذباب وللترحيب بالرشاوي، ولوضع الأختام على صفقاتٍ أبديةٍ لوصايا مزوَّرة، وسقوف بيوت غير قانونية، وشهادات إعادة ميلاد، وطلاقات دينيةٍ، وأنابيب مياه ملوّثة، ورخص سوقٍ لسائقين قاصرين، وكمبيالات منتهية الصلاحية، وعماراتٍ غير ثابتة، وبواليع منسيّة، ووثائق سفر ملطخة، ومحاصيل سرية لنباتاتٍ تصيب بالهلوسة. نباتاتٌ نمت في وادي البقاع على درجات معبد هليوبوليس حيث غنت فيروز، المغنية التي انتحبت ليلاً تحت النجوم المتلألئة التي أرشدت المجوس الثلاثة من الشرق وحتى الجنوب، إلى داخل تلك الزريبة، مع الأبقار المجترّة، والطفل الذي امتصّ الحليب من حلمتي العذراء السوداوين المستديرتين.

قدت السيارة، وراح جوزيف يدلّني على الطريق، قائلاً لي:

ـ أعرف هذا المكان كراحة يدي. انعطف يميناً. هناك قرب البرميل توقّف.

شهرت مسدسي وترجّلت من «الڤان»، ووقفت إلى جانبه. وأخرج جوزيف سلاحه Ak-47، وتمركز خلف العربة.

صرخ:

ـ شاي. تعال خذه. شاي.

أطلق رجل يقف في الطابق الأول لمبنىً مهجور، صفرة فسألت:

ـ علي؟

ـ بسام؟

ـ نعم.

أعطى علي إشارة، فبرز فَتيان من وراء أكياس الرمل. كانا يرتديان ثياباً باليةً ومشايات بلاستيكيةٍ، والتراب يلطّخ وجهيهما.

دخلت «الڤان» وأدرت مؤخّرته نحو الجهة الغربية من المدينة. سحبت أيادي الفتيين الهزيلة الصنايق من «الڤان» وحملتها إلى داخل المبنى.

قلت:

ـ إنها أربعون صندوقاً.

ـ محمود هل عددت الصناديق؟

صاح الولد من داخل المبنى:

ـ أربعون!

ـ أربعون. توكّل على الله.

صاح جوزيف بهم:

ـ نخبكم. احذروا الألغام في طريق عودتكم.

عشرة آلاف إبرةٍ اخترقت ذراع نيكول. ومع ذلك جئتها بكيس لتفتحه. وقف السيد لوران فوق الفرن وبيده ملعقة يسخن بها البودرة التي تحوَّلت سائلاً.

قال لها:

ـ Tiens Bébé, mon amour. Tiens[1].

ابتسمت نيكول لي. حين تحرّرت ذراعها من الرباط الذي كان ملفوفاً حولها.

ـ هل أعطيك المال أم أعطيه لجورج؟

ـ أعطِه لجورج.

هبطت الدرج بتثاقلٍ، وتوجَّهت إلى المدينة. ومن هناك إلى ما وراء جدران الكنيسة، حيث جلست ودخّنت تحت أدراجها. مرت بعض القطط بوبرها المخطط أمامي، وماءت بعض البنادق. بينما لعقت بعض الكعوب الأرض، ورنَّت بعض الأجراس فوق رأسي.

أخيراً ظهر جورج برفقة أبي حديد. سألني:

ـ ما حال المدمن؟ هل تعاطى الرجل العجوز المخدرات أيضاً؟

---

(١) خذي يا طفلتي، يا حبيبتي خذي.

ـ لا.

ـ هل دفع لك؟

ـ لا. قلت له أن يعطيك المال. كان عليك أن تخبرني على محتوى...

توقّفت قليلاً، ثم تابعت:

ـ هل حصّتي من الويسكي معك؟

ـ لم يدفع لي الرجل بعد. سأهتم بك حين يدفع. لا تقلق.

ـ أخبرني في المرة التالية ماذا أتوقع. فأنا لست خادمك الخاص.

وغادرت.

ناداني جورج، لكنني لم أستجبْ.

استلقيت طوال اليوم التالي في سريري وهمت في خيالي. حام دخان السجائر حولي، وارتفع إلى السقف مكوِّناً سحابةً رمادية. تساقطت القذائف في البعيد، وكان الصحن الموضوع تحت سريري يفيض بالرماد وبأطراف سجائر المارلبورو الصفراء بوجوهها المهشّمة ووضعياتها المحدّبة، بينما وجَّهت الشمعة المضاءة قربي نورها نحو المجلة الهزلية التي حملتها في يدي.

انتظرني خفّاي تحت السرير كما ينتظر ميلو، كلب تان تان. حين سمعت طرقةً على بابي، شهرت مسدسي من تحت الوسادة. وأطفأت الشمعة بسرعة. توجَّهت نحو الباب بخفيّ وألصقت عينيّ على ثقب الباب فرأيت خيالاً.

ابتعدت عن الباب، وسألت:

ـ من؟

ـ أنا نبيلة. افتح الباب.

فاستجبت.

ـ لمَ تختبىء في الظلمة؟ اسرق شمعةً من الكاهن، أشعل المنزل. لكن لا تختبىء كالشبح الضالّ.

تبعتني نبيلة إلى غرفتي. مسحتُ الطاولة بيدي وأنا أبحث عن علبة الكبريت. وحين وجدتها، هززتها كأنها آلة موسيقية برازيلية. حففت عوداً بحافة العلبة القاسية فأضاء وجه نبيلة.

ـ لا تزال هزيلاً، شاحباً وهزيلاً. سوف آتيك غداً لأطهو لك وأنظف المنزل.

ـ لا.

ـ هل رأيت جرجورتي؟

ـ البارحة.

ـ لم أره منذ ما يقارب الأسبوع. اتصلت بمكان عمله، فأخبروني أنه لم يعد يعمل هناك. ذهبت إلى منزله مراتٍ عديدةٍ لكنني لم أجده قط. لم يره أحد. قالت لي أم عادل جارته إنه نادراً ما يعود إلى المنزل.

ـ لا بد وأنه مشغول.

ـ بماذا؟

ـ بالعمل.

ـ أين؟

ـ لا أعرف أي شيء.

ـ مثل ماذا؟ ماذا أضحى؟ هل يعمل مع أبي نهرا؟

ـ نعم.

ـ لكن بم؟

ـ بالأمن.

ـ صرخت نبيلة:

ـ الأمن! أمن ماذا؟ سأتصل بذلك الكسول البدين أبي نهرا. سأتصل به. وإن مس الأذى شعرةً واحدةً من رأس ابن أختي، فسوف ألعن والدته المتوفاة في قبرها. تكلم إلى جورج يا بسام. فهو يصغي إليك، أنتما أخَوان. عليه العودة إلى الدراسة.

ـ سأغادر البلد.

ـ إلى أين؟

ـ إلى روما، باريس، نيويورك، إلى أي مكان.

ـ اصطحبه. اصطحبه وتكلم معه. أجل غادرا كلاكما. اذهبا إلى فرنسا وسوف أزوِّدك باسم والد جورج، ذاك الجبان. وأطلب إليه أن يرسل جواز سفر فرنسيّاً ومالاً إلى ابنه. سأطلب إليه أوراق جورج. أخبره أنت أن ابنه ضائع، وسأطلب إليه أن

يدعو جورج إلى رحلة، لقضاء عطلة. فلتفتح العذراء القديسة كل أبواب الخير في وجهك يا بسام. ساعده. متى ستغادر؟

ـ أنتظر الحصول على بعض المال.

ـ سأعطيك أنا المال إن ذهبت فقط لإيجاد والد جورج.

ـ لا. سأكون على ما يرام.

ـ انظر إلى المنزل يا بسام!

راحت تلملم الزجاج والمنافض المملوءة والثياب عن الأرض.

ـ دعيها.

تابعت لمّ الأشياء وترتيبها، كما فعلت والدتي يوماً.

أمسكت بمعصمها، ونزعت وسادةً من يدها، ورميتها باتجاه الجدار وقلت:

ـ دعيها.

شدّت نبيلة على يدي، ولمست وجهي.

ـ عليك أن تعتني بنفسك، فأنت وحيد الآن. لا تعشْ في القذارة كالجرذ. افتح النافذة فالبيت يعبق برائحة السجائر والعرق. انظر إلى نفسك. انظر إلى نفسك، تبدو مهملاً.. غير حليق.

سحبت يدها وقبّلتني على وجنتي، وتوجَّهت نحو الممر المعتم، ومنه إلى الشارع.

في مهمة تسليمنا الثانية، ملأنا أنا وجورج «الڤان» بستّين صندوقاً من مشروب جوني ووكر. مدّ جوزيف يده إلى علبةٍ. فتحها وأخرج منها زجاجة.

ـ لا تشرب. قد تكون هذه القذارة سمّاً. واليوم ليس جيداً لتموت.

ـ لا أحد يموت قبل أوانه.

أجبته ساخراً:

ـ مقاتلٌ مؤمن بالقدر.

ـ اسمع، دعني أخبرك هذه القصة وسنرى إن كنت تؤمن بالقدر أم لا. كنا في الجبهة. هل تعرف يوسف آشو؟ الفتى السرياني الذي كنّ ندعوه آر. بي. جي؟

ـ لا.

ـ في أي حال، كان هذا الشاب في الخدمة، في أحد الأسابيع، وكنت مسؤولاً عن الجبهة ذلك اليوم. رأيت امرأةً، امرأةً مسنّة متَّشحة بالسواد، تتّجه نحونا، هل سمعت؟ تناولتُ القنّاصة ونظرتُ عبر المنظار، فرأيت صليباً كبيراً على صدرها، عرفت أنها منّا. ناديتها: يا خالتي، إلى أين أنت ذاهبة؟ فأجابت أنها جاءت لترى ابنها يوسف. لا ريب في أنها تجاوزت عشرة ألغام، وهربت منها كلها. فظهرت كروح من فراغ. ناديت يوسفَ الذي كان في المبنى الآخر. كان أمامه طريقان للوصول إلى أمه: عبر شارعٍ قصير لكنه مكشوف على قناص؛ أو التفاف حول المبنى، وهيَ الطريق الأطول.

حين سمع يوسف أن والدته هناك، عبَر شارع القناص. حين مشى الأمتار الأخيرة انطلقت رصاصة أزَّت فوق أذنه ففوّتته. حين رأته والدته، راحت تبكي وتقول إنها حلمت بكابوس مزعجٍ، وإن قلبها ينبئها بحدوث أمرٍ فظيع. استشاط يوسف غضباً وشرع يشتمها، وأمسك بذراعها، ودفعها وهو يصرخ في وجهها، طالباً أن تعود أدراجها، كما نعتها بالمرأة المجنونة.

أنَّبته وقلت له أن يحترم والدته وألا يتكلم معها بهذه الطريقة أبداً. أمرته بمغادرة الجبهة، قائلاً إنني لا أريد أشخاصاً غير مهذّبين في مجموعتي.

ثم أجبرته على أخذ الجيب، وإيصال والدته إلى المنزل. حسناً. . وصل هذا الشاب إلى منزله وخلع ثيابه. غلت له والدته الماء، وحضّرت له الحمّام وغادرت.

وقعت قذيفة في الحمام وهو يستحم، فأردته قتيلاً، وقد قطّعته إرباً. جُنَّت والدته. وهي الآن تمضي كل وقتها بالصلاة على درج كنيسة السيدة؛ فقد تعهّدت بذلك. ومنذ وفاة ابنها لم تستحم أو تغتسل قط. ما رأيك إذن بهذه القصة؟

- اشرب.

في طريقنا إلى منطقة الأسواق لتسليم علي، صادفنا أنا وجوزيف مراهقَيْن وقفا وسط الطريق. لوّحا بأيديهما لنا. أحدهما شعره مفتّل وينتعل حذاءً رياضياً ممزّقاً؛ ويرتدي الآخر بنطلون جينز وصندلاً مفتوحاً. كان ذو الشعر المفتل يشهر سلاح Ak-47 ويحمل الآخر مسدساً على خصره الهزيل.

أوقفت «الڤان»، وفتحت الباب ومشيت باتجاههما. تبعني جوزيف.

صاح أحدهما بي:

ـ ابقَ في «الڤان».

ـ من المسؤول؟ من المسؤول هنا؟

ـ أنا المسؤول. عد إلى السيارة.

تجاهلت طلبه ولزمت مكاني.

ـ «لوين الشباب رايحين»؟

رد جوزيف:

ـ لمَ تسأل؟

ـ افتح «الڤان» وكفّ عن طرح الأسئلة.

ـ إما أن تفصحا عن هويّتكما اللعينة، أو فاغربا عن وجهنا!

تراجع المراهق خطوتين، ولقّم بندقيّته بشيءٍ من الصعوبة، وشهرها في وجهينا. ركض صديقه متعثراً، وهو يرزح تحت ثقل مسدسه، الذي شهره بوجه جوزيف.

صرخ المراهق الأول:

ـ افتح «الڤان»! افتح «الڤان»!

صوّب سلاحه نحوي، سلاحه الذي بدا ضعف حجمه، وثلاثة أضعاف سنه.

توجهنا أنا وجوزيف نحو «الڤان» فهرع المراهقان وراءنا.

حين فتحت «الڤان»، تبعاني كلاهما. أخرجت المفتاح بيدٍ وحملت بالأخرى حزام جوزيف العسكري المرمي على مقعد الراكب بسرعةٍ. أمسكت بأول شيءٍ خرج من الحزام، وهو قنبلة يدوية. رميت المفتاح على أرض «الڤان» وغطست تحت الإطار، لأحكم قبضتي على طُعمِ القنبلة، وسحبت مسمارها. استدرت ناحية المراهقين ومددت يَدي تجاه وجهيهما الفتيّين.

ـ ألقوا أسلحتكم يا «أخوات الشرموطة»! لا أبالي بإلهكم أو بمملكته السعيدة. سأفتح يدي وسنتحوّل جميعاً إلى «كبّة».

صرخ جوزيف:

ـ سيعلّمكم ذلك يا «أولاد الشرموطة» ألا تعبثوا مع القوّات!

شهر مسدسه وصوَّبه نحو وجهيهما، وصرخ:

ـ ألقوا القذارة من أيديكم. عدّ حتى الثلاثة يا بسام، وإن لم يسلّموا سلاحهم، افتح راحة يدك.. لا أحد يعبث معنا!

أنزل صاحب المسدس سلاحه أولاً. أمّا الثاني فظل محتفظاً بسلاحه Ak-47 لبعض الوقت، ثم بدأت عيناه ترفان، وراح يستنشق الهواء من أنفه بوتيرةٍ سريعة. ما إن أنزل الكلاشن حتى أمسك جوزيف بسلاحيهما. راحع يصفع أحدهما بينما تراجع الآخر على مهلٍ، وركض عبر الشوارع الخلفية.

حمل جوزيف الولد الذي بقي من قميصه، ودلّاه ككيس الطحين.

جرّه إلى الرصيف وضربه برجله.

ـ يا كلب! من أنت بحقّ الجحيم لتوقفنا؟

شرع المراهق يبكي، وخبّأ وجهه بيديه النحيلتين.

ـ سآخذك إلى السجن لتتعفَّن يا كلب.

مشيت نحو مبنىً خالٍ، ورميت القنبلة اليدوية عبر النافذة وانبطحت على الأرض. فانفجرت ودوّى صوتها عبر العالم بأكمله. أبعدت جوزيف عن الولد الذي كان رأسه ينزف وأنفه محطَّماً. أخفض عينيه، ومسح الدم بمؤخرة يده، وانتحب كالطفل الصغير الذي هو عليه.

سألته:

ـ من أين أنت؟

ـ نعيش هنا في الأسواق.

ـ لم أردت فتح «الڤان»؟

ـ كنا نبحث عن شيءٍ لنأخذه.

قال هذا، وبصق الدم على الأرض.

ـ لمَ؟

ـ لنبيعه. لم نعرف أنكما من رجال الميليشيا.

ـ من أين حصلتما على الأسلحة؟

ـ من جنديٍّ سوريٍّ قتل.

ـ كم تبلغ من العمر؟

ـ أربع عشرة سنة.

ـ ما اسمك؟

ـ حسان.

صاح جوزيف:

ـ مسلمان لعينان في مقاطعتنا!

شهر مسدّسه وصرخ:

ـ دعني أُنهِ هذا القذارة!

أمسكت بيد جوزيف ودفعته إلى داخل «الڤان».

حين نظرت إلى الوراء، رأيت الصبي يهرب وهو يعرج عبر جدران المدينة المقصوفة.

في «الڤان»، ضحك جوزيف ونعتني بالمجنون.

ـ سوف أسمّيك بالمجنون. كدت تقتلنا بهذه القنبلة الروسية. هي أسوأ نوعٍ اخترت فتحه، لأنك لا تعرف توقيتها. قد تنفجر في غضون ثانية أو ثلاث دقائق، وفي كلتا الحالتين، ينتهي أمرنا. مجنون!

وضحك بصوتٍ أعلى:

ـ مجنون!

حين وصلنا إلى منطقة التسليم، كان علي وغلمانه في

انتظارنا. توجّه علي نحوي، وقدَّم إلي سيجارةً، بينما راح الصبيّان يفرغان القان.

سألته:

ـ كيف هي الحال في الجهة الأخرى؟

ـ كنا في ما مضى جهةً واحدة. صرنا الآن نطلق تسمية الجهة الأخرى.

قال ذلك وهزّ رأسه، ثم أردف:

ـ هل ذهبت يوماً إلى الجهة الأخرى؟

ـ منذ زمنٍ بعيد، حين كنت صغيراً. لديّ قريب في الجهة الأخرى.

ـ حقّاً؟

ـ أجل. عمٌّ شيوعيّ.

ـ ما اسمه؟

ـ نعيم الأبيض.

قال علي وقد فوجىء بذلك:

ـ أعرف عمك، فقد حاربنا معاً. أصبح المسؤول الأعلى للحزب الشيوعي الآن. هل أنتما على تواصل دائم؟

ـ لا. ليس منذ زمنٍ طويل.

رأيت جوزيف يقترب منا، فغمزت علي، وغيّرنا الموضوع.

حين فرغ الفتيان من نقل الويسكي، أخبرت جوزيف بأنني مضطر أن أبول، وتوجهت خلف جدارٍ وناديت علي.

ـ ألديك وسيلة لتخبره أنّ والدتي قد توفيت؟

قال وهو يطأطىء رأسه:

ـ رحمها الله. سأتّصل بعمك.

١٠

أيقظني قرع على الباب منتصف الليل. حين فتحت باب شقتي، رأيت السيد لوران واقفاً في الممر وبيده شمعة. دعوته إلى الدخول. قال:

ـ أبحث عن جورج.

ـ هل تفقَّدته في منزله؟

ـ نعم، ولم يكن هناك.

ـ ربما كان في الخدمة.

ـ أين يخدم؟ فالمسألة طارئة.

ـ تفقّده في الثكنة. أو قد يكون في مهمة، لأنه في الأسبوع الماضي ذكر شيئاً من هذا القبيل، خلال حفلته.

ـ نحن في حاجة إلى جرعة أخرى لـ «بيبي» فهي ترتجف.

ـ لا أستطيع مساعدتك سيد لوران.

ـ المسألة طارئة.

ـ لم لا تأخذها إلى مركز إعادة تأهيل؟

ـ سأفعل. لكنني أنتظر ريثما يشغر مكان في العيادة بفرنسا... فهناك يعمدون إلى تغيير الدم.

ـ لم تفعل هذا يا سيد لوران؟

ـ هل تقصد لماذا أعطي «بيبي» كل شيء؟

ـ لِمَ تدعها تفعل ما يحلو لها؟

ـ هل بإمكاني تدخين سيجارة؟

ـ نعم. هل ترغب في ارتشاف القهوة؟

ـ لا، بل دعني أجب عن سؤالك. أترى؟ لقد حكمنا، نحن اللبنانيين، أفريقيا يوماً. كنا سماسرةً نستخرج العمولات يميناً ويساراً. وبنينا ذلك المكان. حين غادرت قريتي الأمّ ورحلت على متن قاربٍ للقاء خالي الفرنسي في أفريقيا، لم تكن لا أنت ولا «بيبي» قد ولدتما بعد. جلّ ما أردته هو ادّخار المال والعمل مع خالي لفترةٍ من الوقت، ثم العودة إلى القرية، إلى تلك الهضبة، لأبنيَ منزلاً وأتزوّج بفتاةٍ محترمة من بلدي.

لكن الجالية أصبحت ثرية. عملنا في الأحياء الفقيرة والأدغال كبائعي أقمشة، وغدونا سماسرة لدى الفرنسيين البرتغال وغيرهم. جلبنا السيارات والبرادات الكهربائية إلى ذلك المكان. ورشونا رجال الشرطة والمخاتير وجنرالات الجيش. كما أقمنا جميعاً في شققٍ فخمة مبنيّة فوق أسطح المباني. هل تعلم أن اللبنانيين جميعهم قد عاشوا في مثل هذه المنازل بأفريقيا؟

كنا نقيم الحفلات في أنديتنا الليلية الخاصة. حين كنت شاباً، عملت بكدٍّ، وتعلّمت كيفية البيع والشراء. سافرت متأبّطاً حقائب سفر تفيض بالعملات التي تفوح منها رائحة التراب الأفريقي، الفرش الرطبة. ابتلعنا الأحجار الكريمة في الحمامات الأفريقية، ودخلنا الفنادق السويسرية لنطرح الماس. كانت النسوة الخلاسيات تحت أقدامنا، يرقصن فوق طاولاتنا على وقع الأنغام العربية التي جعلتنا نحنّ إلى وطننا. حكم اللبنانيون هذه الأماكن من دون قوة السلاح، ومن دون جيشٍ أو عبيد.

لكن الزمن مرّ، ولم تبرح مخيّلتي تلك الهضبة الصغيرة، حيث تركت العروس العذراء راكعةً في مقصورة الكنيسة حتى ترهّل فخذاها وامّحت ركبتاها، حتى بعد مرور سنواتٍ وسنوات. أنا أيضاً تذوّقت طعم الخسارة والربح، وأقلّتني طائرات خاصة، وراهنتُ على موائد القمار، حتى مزّقت أظافر المقامرين مرج الطاولة الأخضر... كنا نستغلّ أولئك الجنرالات الفاسدين، وكانوا رهن إشارتنا.

امتصصنا ثروات المحليّين، ووهبنا بناتهم كهدايا. لم يحبّنا أحد، لكن الجميع كانوا في حاجة إلينا. ثم حصل الأمر ذلك اليوم، حين أتى الفقراء حفاة إلى المدينة، شاهرين مسدسات وسكاكين، وطردونا من منازلنا الفخمة، وتعثّروا على كراسيّنا الطويلة، وتغوّطوا في أحواضنا المزينة بالفسيفساء وكسروا أنابيب نراجيلنا من منتصفها. فقراءُ خيّموا في حاناتنا الرخامية التي تطل نوافذها على قراهم البدائية، على أكواخهم التي لم نلاحظها

قط، على بواليعهم السائلة التي لم تصل رائحتها إلى أنوفنا قط، على أخواتهم ذوات البشرة الداكنة، اللواتي استخدمنا بطونهن كوساداتٍ نلقي برؤوسنا عليها، وراحاتهن كمناديل لنجفف بها المني السامي، والعرق عن جباهنا، خلف الجدران المستديرة والكلاب الحارسة. لذلك هربت تاركاً ورائي منتجعاتي التي برقت يوماً ببشرة الأوروبيين والأفريقيين الملغومة بالشمس. خلّفت ورائي السيارات ومعمل الصابون، وسلالتي من الأطفال غير الشرعيين ذوي العرق المختلط.

لذت فراراً، ورجعت إلى هنا، بحثاً عن تلك العذراء، وعن هضبة الطفولة تلك.

أضحيت رجلاً عجوزاً الآن، فاعذر عاطفتي المفرطة. كانت «بيبي» وحيدةً، حين التقيتها على رأس الهضبة، واعتبرتُ ذلك فألاً حسناً. ابتعت لها كل ما احتاجت إليه وكل ما طلبته. لمَ؟ أوَتسألني لمَ؟ للأسف ليس لدي شيء آخر أهبه لها. وها هي اليوم في المنزل بمثابة ابنة وزوجة. اغفر لي دموعي، فلكم أخاف أن تطلب الرحيل من هذا المكان. وجلّ ما أحاوله إمضاء أواخر أيامي قريباً من تلك الهضبة.

هل تستطيع البحث عن جورج من أجلي؟ S'il vous plaît[1].

في اليوم التالي، تمشيت في الحي، ودخلت دكاناً.

---

(١) من فضلك.

قالت لي صاحبته جوليا:

ـ لدينا لوز أخضر طازج يصلح لكأس! أتودّ شراء كيلوجرام؟

ـ لا. غدوت مُقلّاً في الشرب هذه الأيام.

ـ هل لديك زجاجات فارغة لإعادتها؟ سأرسل إليك ابنتي سعاد لإحضارها.

ـ لست متأكداً. سأبحث في مطبخ والدتي.

ـ رحمها الله. كانت والدتك سيدة. فليقطع الله أيديهم...

ابتعت خبزاً ولبنة، شكرت جوليا، ومضيت.

في طريق عودتي، رأيت سيارة جيب تمضي عكس السير. كانت تعجّ بشبابٍ من الميليشيا ببذلات خضراء وعصائب ملفوفة على الجباه، موجّهين بندقياتهم نحو الشرفات والأباجورات الفرنسية. أُوقفت السيارة قربي، وترجّل جورج منها، والتعب والقذارة باديان على محيّاه.

ـ عدنا لتوّنا يا بسام. أمضينا عشرة أيام بلا استحمام، وتناولنا طعاماً معلباً. كاحلاي يؤلمانني لكثرة احتكاكهما بالجزمة. أكرم سيف، أتعرفه؟ ذاك الذي ندعوه بالناسك، شقيق جان سيف؟

ـ نعم، إنه يقيم فوق مصبغة أنطون.

ـ أصيب تحت ذراعه ونزف حتى الموت. ثمة صوماليون

لعينون داكنو البشرة يحاربون مع أولئك الفلسطينيين. هل كنت تعرف ذلك؟ الأمة بكاملها تحاربنا.

توجّهنا إلى منزلي. كان التراب البني يكسو جزمة جورج، وبدت لحيته نامية بشعرٍ أسودٍ أملس. حمل الكلاشينكوف وعبر بصعوبةٍ الشارع عبر السيارات المصفوفة في شوارعنا الضيّقة. كان أشبه بجنديٍّ أميركيٍّ يضع ذراعيه فوق رأسه ويتقدم ببطءٍ عبر مستنقعات فييتنام التي غمرته إلى النصف.

توقّفنا في طريقنا عند أحد الدكاكين واشترينا بضع زجاجات من بيرة هاينكان الخضراء اللون. صعدنا الدرج إلى شقتي، لأن التيار الكهربائي في بيروت، تلك المدينة المكتظّة، ينقطع ويجيء كما يحلو له فأمسى استخدام المصعد الكهربائي نادراً. أما الذين يستخدمونه فيخاطرون بتمضية ساعاتٍ وساعاتٍ عالقين في صناديق ميكانيكية صغيرة مشدودة بحبال معدنيةٍ قديمةٍ ومهترئةٍ، كآخر جنديٍّ فرنسيٍّ غادر هذا المكان. رمى جورج عدته وبندقيته على كرسيٍّ في غرفة جلوسي. خلع جزمته واستلقى على الأريكة، فسألته:

ـ أين توفّي الناسك؟

ـ في كفر الوالي.

ـ كيف؟

ـ افتح زجاجتَي بيرة واجلس، فقصته طويلة. هل ستذهب إلى مكانٍ ما؟

ـ لا، ليس الآن.

فتحت زجاجتي بيرة وتوجّهت بواحدة نحو صدره.

ـ أليس لديك عمل في المرفأ اليوم؟

ـ نعم. لكن لا يزال هناك متسع من الوقت. تكلّم. كلي آذان صاغية.

«كرع» جورج كميةً كبيرة من البيرة، قبل أن يتمدّد على الأريكة، وقال:

ـ ليست باردة.

توقَّف قليلاً، شرع يتكلم من دون توقف، ولم أقاطعه البتة.

ـ سمعت بضع طلقاتٍ ناريةٍ مصدرها القرية المجاورة كانت الرابعة فجراً، استيقظت وأيقظت فصيلتي. كان الطقس بارداً قارساً، فالهواء جبليٌّ صباحيّ جليديّ. بلغنا القرية حوالى الرابعة والنصف أو الخامسة. كان القائد حنفون في إجازة، وأنا خلفه في القيادة. قسّمت الفصيلة وأرسلت جوزيف شريكك (وغمزني) والأخطبوط ليتمركزا في الهضبة. أوقفنا سيارات الجيب على بعد مسافةٍ، وأطفأنا الأنوار لنتوجه مشياً. تقدمنا نحو طريق القرية الرئيسيّ. طلبت إلى أبي حديد مرافقتي، وسبقنا الفصيلة. بدأت الرؤية تتوضح مع انبلاج الفجر، فرأيت بعض النسوة والأولاد يخرجون من الناحية الخلفية لمبنىً إسمنتيٍّ غير مكتمل البناء. كانوا يهرعون نحو الوادي حاملين أكياس نايلون ولحفاً من الصوف. ركضنا نحوهم. وسألتهم عن وجهتهم، فأجابت أكبر النسوة سناً، وهي امرأة تضع حجاباً أسود:

ـ نحن نتوجّه نزولاً.

ـ إلى أين؟

انتزعتُ منها أحد الأكياس، رميته على الأرض، ودسته بجزمتي، مما أثار الرعب في نفوسهم جميعاً، بينما راح أحد الأولاد يبكي بصمت. سألتُ المرأة:

ـ أين هم الرجال؟

آثرتِ الصمت للحظةٍ، ثم قالت إنها لا تقيم هنا ولا حتّى رفيقاتها. وأنهم لاجئون يبحثون عن مكانٍ للإقامة، وقد تمّ طردهم من المبنى هذا الصباح.

ـ من في المبنى؟ من طردكم؟

ـ الرجال.

ـ أي رجال؟

صمتت مجدداً.

ـ ما عددهم؟

تمتمت قائلة:

ـ اثنان.

ـ هيّا اذهبي ولا تتكلّمي أبداً، ولا تنظري خلفكِ، وإن قامت إحداكن بإشارةٍ، فسوف أصوِّب ناحية الأطفال أولاً.

حملت النسوة الأولاد، وهرعن نحو الوادي وهنّ ينزلقن

ويتعثّرن في طريقهنّ. كنّ جميعاً ملتحفاتٍ
فاستنتجت أنهن قريبات. طلبت إلى أبي حدي
إشارةٍ إلى بقية الرجال بالتقدّم.

ما إن عاد أبو حديد ماشياً بمحاذاة جدارٍ
عليه الرصاص من أعلى المبنى، فغطس في قن
القرية بأكملها. لا بد من أن المياه كانت بارد
الرجال نحونا بعد أن سمعوا الطلقات، ورا
باتجاه المبنى. كنت وحدي تحت المبنى. أتس
صعود الدرج ومقاتلة الرجال فوق، والقضاء
تردني أي إشارة من أبي حديد. وكنت أنتظر
لكي أستطيع العبور، والتأكد من أنه لا يزال
لكن دعني أخبرك. إن هذا الرجل المسيحيّ
في المياه واختفى. كان الأمر برمته فخاً، فبينم
الواقفين في أعلى المبنى. تقدّمت سيارة جي
الفصيلة.

كمين كلاسيكيّ أليس كذلك؟ وُضع الر
لإلهائنا. فالذي أنقذنا جوزيف والأخطبوط
الجيب آتية خلفنا، فهرعا من الهضبة، وت
داخلها. كان ذلك كافياً لإنذار البقية. سمع
مكانٍ مختلفٍ، فعلمت أن ثمة أمراً ما. عل
نُصِب لنا.

في تلك الأثناء زحف أبو حديد في الق

المبلّل في الجهة الأخرى من المبنى. كان يرتجف من شدة البرد، فخلع قميصه، وأعطيته سترتي ليرتديها. قررنا بعد ذلك التوجه إلى المبنى، وقتل الرجلين، ثم الانضمام إلى الفصيلة. صعدت أولاً، فربّما كان سلاح أبي حديد مبللاً للغاية فلا يطلق. لكن سلاح الكلاشينكوف كما تعلم متينٌ جدّاً ولا يؤثر فيه لا الماء ولا الغبار. تباً للـ M-16، فهو كاللعبة. أما الAk-47 فلا يزال الأفضل. لذلك بدلت بندقياتي بنفسي. حتى الإسرائيليون أرادوا تبادُل الـ Ak-47 معنا.

كان من الصعب تحديد مصدر إطلاق النار، لأن الصوت كان يرجّع الصدى عبر المبنى الإسمنتيّ الخالي. لكن ما نعرفه هو أن في المبنى رجلين فقط. لذلك انتظرت أنا وأبو حديد. وبعد ذلك اشتد إطلاق النار، فصعدنا الدرج لئلا يشعرا بقدومنا. حين وصلنا إلى الطابق الثالث، سمعت أحد المطلقين يبدِّل مخزن سلاحه. فتحت قنبلة ورميتها داخل الغرفة، وانبطحنا أنا وأبو حديد وراء الجدار. كان دويّ الانفجار اللعين مرتفعاً للغاية، ممّا جعل آذاننا تصفر لأيامٍ وأيّام.

لا تزال أذناي تطنّان حتّى اليوم. وأحياناً أصاب بصداعٍ قويّ، وأسمع رنيناً في أذنيّ. كان المبنى لا يزال قيد البناء فتطاير الغبار في كل مكانٍ رافضاً الهبوط. فأضحينا عمياناً أيضاً، بعد أن أصابنا الانفجار بالصمم. ضعنا داخل سحابة الغبار السميكة التي تغلغلت في أنفاسنا أيضاً؛ فأضحينا عمياناً وصمّاً ونتنفّس بصعوبة. ومع ذلك اضطررنا إلى النهوض،

وتمشيط الغرفة للتأكد من عدم وجود أي ناجين. راح أبو حديد يطلق النار باتجاه الغرفة، وقمت أنا بالمثل. لكننا لم نجد أحداً. قال أبو حديد إنه رأى خيالاً. لكن ذلك ربما كان من تأثير البلل والبرد على خصيتيه، ما جعله يتخيَّل ويتراءى له.

قال جورج ذلك وضحكنا. ثم أكمل:

ـ كان الرجلان على الأرض. وبعد أن مشطنا الغرفة بالطلقات، سمعتُ تنفُّساً بطيئاً لأحدهما. نظرت إلى وجهه فرأيت فيه رجلاً صومالياً أو أفريقيّاً. طعنته بالحربة فأرديته قتيلاً على الفور. هم يأتون من كل أنحاء العالم ليحاربونا هنا على أرضنا يا بسّام. فلسطينيّون وصوماليون وسوريون لديهم جميعهم مطلب على هذه الأرض أليس كذلك؟

هرعنا أنا وأبو حديد لننضمّ إلى الفصيلة. في ذلك الوقت، كان الناسك، الذي تمركز في الخلف، أقرب إلى سيارات الجيب. وقد سبق أن أُصيب أسفل ذراعه. مع أنه كان مصاباً فقد ظلّ يحارب العدو قرابة خمس عشرة دقيقة. حمينا ظهر زغلول وهو يسرع ليسحب الناسك. حاولنا الوصول إلى سيارات الجيب، إلا أنّ قوى العدو وقفت في الطريق. وكان الناسك لا يزال ينزف. كان بمقدورنا إنقاذه لو استطعنا إيصاله إلى المستشفى في الوقت المناسب. لكن الجهة الأخرى أبقتنا مكاننا لساعاتٍ قبل أن تصلنا التعزيزات. وحينها فقط، استطعنا محاربتهم وجعلهم يتقهقرون وينسحبون. إلّا أنّ الناسك نزف حتى الموت، حمل الذخيرة وأيقونة مار الياس. لطالما لفّها

حول ذراعه بشريط مطّاطي. قبل أن يفقد وعيه نزعنا الأيقونة وأعطيناه إياها فقبّلها. وبعد دقائق فقد وعيه وفارق الحياة بين يدي زغلول. كان رجلاً تقيّاً.

توقّف جورج قليلاً، ثم سأل:

ـ هل المياه جارية؟

ـ تستطيع التأكّد من ذلك. على فكرة. نبيلة تسأل عنك.

ـ حقّاً؟

ـ والسيد لوران أيضاً.

ـ أعرف ما الذي يريده الرجل العجوز، فهو لم يدفع مقابل جرعة نيكول الأخيرة.

ـ ما الذي تفعله بحقّ الجحيم يا جورج؟ تجعلها مدمنة؟

ـ ذاك العاجز جنسياً ثريّ، وهو محشو بالماس الأفريقي.

ذهب إلى الحمام وصبّ الماء في دلوٍ. ثم غسل يديه ووجهه، وخلع جوربيه، وتفحّص الجروح حول كاحليه، وسكب ما تبقى من الماء على رجليه. استعار بعضاً من ثيابي واستلقى على أريكتي. تناولنا الطعام معاً في ذلك اليوم. ثم دخّنت سيجارةً لكي أهضّم الطعام الذي تناولته معه.

تركت المحارب نائماً بعد الوجبة. ومضيت بدراجته نحو المرفأ. عملت طوال الليل. امتزج رذاذ البحر بعرقي عند الرصيف. قدت آلة التحميل عبر الرياح المالحة، ورفعت ذراعيها مفرّغاً البضائع داخل المستودعات.

بعد أن انتهت نوبة عملي في الصباح، توجّهت إلى مكتب أبي طارق، كبير العمّال. كل صباح، يجتمع بعض الرجال أمام حاوية أبي طارق التي تحوّلت مكتباً. نجلس جميعاً على كراسيّ بلاستيكيةٍ، أمامها صناديق ذخائر حربية فارغة لنتحدّث ونرتشف القهوة. أبو طارق محارب قديم، حارب في معركة تلّ الزعتر، ويعتزّ بمعرفته الشخصية للريس القائد الأعلى. عبث بشاربيه وأعلمنا بوصول سفينةٍ ضخمةٍ الأسبوع المقبل.

قال:

ـ نحتاج إلى المزيد من الرجال لتفريغ الحمولة.

اقترح ذهاب رجال الأمن إلى الدورة، وجلب عمّال مصريين للمساعدة في التفريغ.

دخّن شاهين، وهو شاب يعمل في الأمن، وجهه هزيل وبشرته داكنة. دخن بشكلٍ متواصلٍ والضجر بادٍ على وجهه. وقف وأشعل سيجارة أخرى، وقال بصوتٍ خفيضٍ هادىء:

ـ يقف أولئك العمال المساكين تحت وطأة الشمس، طوال النهار منتظرين أن يوظّفهم رب عملٍ ليعملوا في البناء أو أي عملٍ يدويٍّ آخر. لكنهم أضحوا يهربون الآن عندما يروننا نتقدَّم نحوهم بجيب ميليشيا، فهم لا يريدون العمل مجاناً، كما ينسى القوات تقديم الطعام إليهم أحياناً. حين احتجنا إلى عمال في المرة الأخيرة، اضطررت إلى الركض خلف عاملٍ مصريٍّ من الدورة إلى برج حمود. دعني أخبرك. كان هذا الرجل ينتعل خفّين بلاستيكيين، لكنه كان سريعاً كالغزال. أخيراً. وبعد أن

انقطعت أنفاسي توقفت وشهرت مسدسي وبدأتُ أطلق النار في الهواء. ظن أنني أطلق النار عليه فتوقّف. سحبته إلى الجيب ومضينا نحو الجبال. كنا في حاجةٍ إلى رجال يملأون أكياس الرمل لمركزٍ حربيٍّ جديد أقمناه. كان ذلك في شهر نيسان، وكان الطقس حاراً هنا في الساحل. لكن حين صعدنا الجبل أمسى الطقس بارداً، خصوصاً خلال الليل. وكان أولئك العمال يرتدون قمصاناً ذات أكمام قصيرةٍ، ولا ينتعلون أي أحذية، ولا يرتدون أي سترات فتكدَّسوا في الجيب. أجبرناهم على ملء أكياس الرمل. انخفضت درجات الحرارة أكثر في المساء، فوجدنا أحدهم ميتاً في الصباح التالي. تجمّد حتى الموت، وكان أصدقاؤه يبكون حوله. اقترب شاكر لطيف، الملقّب ببيريتا، من عامل كان يبكي قرب جثة صديقه وطلب إليه سيجارةً، فكفّ الرجل عن البكاء، وحدّق إلى عيني بيريتا وقال:

ـ «دا أنت يا بيه مش عايز إدّيك كرافاته حرير كمان»؟

منذ ذلك اليوم، أرفض إجبار أولئك الناس أو الركض وراءهم وأسرهم، فهم أرواح أيضاً. لن أقوم بذلك «خلص».

نظر سعيد إلى شاهين، وهو رجل آخر يعمل في المرفأ، مسؤول عن المحاسبة وعن قائمة جرد البضائع، وقال:

ـ ليتني أعرف كيف ستكون معاملتهم لك في مصر إن ذهبت إلى هناك للعمل. أنت مسيحيّ. كيف في رأيك يُعامل الأقباط والمسيحيون في تلك البلدان المسلمة؟

لا أعرف لماذا نطقت، أنا الذي لم أرد سوى إكمال فنجان

قهوتي وسحق سيجارتي على الأرض، لتحميل سفينةٍ إلى حيث لا أدري. لكنني فوجئت بنفسي حين قلت:

ـ مسيحيون كثيرون لا يزالون يعيشون في بيروت الغربية، من دون أن يضايقهم المسلمون.

فأجاب سعيد بسرعة:

ـ كلّهم خائنون، شيوعيّون واشتراكيّون وربما عليكما الانضمام إليهم.

نظر إليّ وإلى شاهين بعينين تفيضان كراهية.

فاعترض شاهين مصوّباً مسدسه قليلاً نحو حافة صدره:

ـ من الذي تنعته بالشيوعيّ أيها اللص؟ نعرف جميعاً ما الذي تفعله.

شقيقي شهيد. توفي دفاعاً عن قضية. رمى نفسه على قنبلةٍ يدوية لإنقاذ فصيلته.

ـ نعم. سمعنا هذه القصة مراتٍ ومرات. لكنّنا نعلم جميعاً أن الخطأ خطأ شقيقك، فقد فتح تلك القنبلة ولم يستطع رميها فوقعت عند رجليه. كل ما في الأمر هو أنه كان أخرق. الجميعُ يطالبون بلقب البطل في هذه الحرب.

ـ سأقتلك يا «عرص».

لقّم سلاحه Ak-47. لكن قبل أن تتاح له فرصة تصويبه نحو سعيد، أمسك أبو طارق بندقيّته وصوّبها نحو السماء وراح يصفع شاهين على وجهه طالباً منه ترك سلاحه.

أعلن أبو طارق بعد أن أطاعه الشاب:

ـ لا أحد يرفع سلاحاً بوجه أحد، لا في حضوري ولا على أرضي. وإن شُهر مسدس مرّة أخرى، لا يهمّ في أيّ جهة، سأعتبره موجَّهاً إليَّ شخصيّاً، وسأتعامل مع الأمر على هذا الأساس.

صاح ذلك في وجوهنا جميعاً، وطلب إلينا التفرُّق.

في طريقي إلى الدراجة، قاد سعيد سيارته المرسيدس البالية على مهل بمحاذاتي. وحدّق إليّ فبادلته التحديق.

ـ ما اسم عائلتك مجدداً؟

لم أجبه، ولم أشح بناظري عن نافذة سيّارته وبقيت هادئاً لأنني رأيت أن يديه كلتاهما ممسكتان بالمقود.

أومأ سعيد رأسه ببطء. أخرج يده من النافذة ودلاها خارجها وقال بسخريةٍ:

ـ نعم. . الأبيض. تذكرت لتوّي. أراهن أن بعض تلك الأسماء لا تزال تعيش في الجهة المقابلة.

وقاد مسرعاً.

امتطيتُ درّاجتي وتوجّهت إلى البيت. وصلت إلى شارعي ورأيت بطرف عيني رنا تغادر مبناي وجورج يغادر وراءها، متّخذاً طريقاً أخرى. نظرَتْ إليه وسوّت شعرها. ثمّ أعطته إشارةً بيدها وأخفت رأسها بين كتفيها، وغادرت مسرعةً بمحاذاة الزوايا والجدران السرية.

انعطفْتُ انعطافاً حاداً عندما رأيتهما، واتخذت طريق الصيدلي. قدت عبر الأشرفية مسرعاً، أسابق السيارات وأقطع عليها الطريق. قرر أربعة شبان في سيارة رينو حمراء مسابقتي فسخروا مني وواصلوا التزمير خلفي محاولين اعتراض طريقي. مد أحدهم أعلى جسده من النافذة الخلفية، بينما أمسكه صديقه من خصره. ومد يديه محاولاً الإمساك بي ليوقعني أرضاً. لكنني زدت من سرعتي وصعدت على الرصيف. أنزلت رجلاً على الأرض، وملت بدراجتي نحو الرصيف وضغطت على دواسة البنزين.

انطلقت في الاتجاه المعاكس وضلّلتهم.

عدت إلى منزلي، ورأيتُ الأواني نظيفة.

نمت طوال الصباح، وقصدت منزل رنا عصراً. انتظرت قبالة مبناها، أزرع المكان جيئةً وذهاباً والسيجارة في يدي. اتكأت على جدار متجر السمك وانتظرت. انتظرت وانهمر المطر بغزارةٍ، فانهمرت المياه من السطح الذي بوّل داخل أنابيب ومواسير، لتنسكب على الأرصفة. مرّت بقربي وجوهٌ انغمست تحت مظلاتٍ ملونةٍ. وشقّت السيارات طريقها عبر البرك الصغيرة جاعلةً المياه فيها تتحرك في أمواجٍ سريعة الزوال.

بعد ذلك، سطعت نور الشمس القديمة مجدداً، وتخلّصت السطوح، كما الكلاب المبللة، من المياه. وحظيت أسماك الصياد بوثبةٍ أخيرة قبل أن تفارق حياتها ناسيةً بيوتها تحت مياه

البحر. انتظرت رنا، لكنها لم تخرج قط لتغطّس رجليها في الشوارع المبللة.

في اليوم التالي رتبت لقاءً مع رنا في منزلي. وسألتها سبباً لعدم مجيئها إلي، فقالت:

ـ كنت مشغولة.

ـ ألم تمرّي قط؟

ـ كنت مشغولةً.

أشاحت بنظرها، والارتباك يلفّها.

ـ هل يجدر بي شكركِ على غسل الأواني؟

طرحت سؤالي وأمسكت بشعرها، وأرجعت رأسها إلى الوراء، وقبّلت عنقها بعنفٍ، وداعبتُ نهديها.

همسْت بخوفٍ وذهول:

ـ بسّام!

جررتها بفستانها نحو غرفة والديّ، ورحتُ أنزع ثيابها عنها، وفككتُ أزرار قميصها. هاجمتني بأظافرها فصفعتها على وجهها. بكت وهربت مني، وركضت خارج الغرفة بنهد عارٍ، تتعثر فوق الكراسي، وتصطدم بأقواس الجدران. رمت بنفسها على مقبض الباب، أدارتْه وكأنّ نيراناً مستعرة تلتهم المنزل، وهربت.

ذهبت إلى غرفة والديّ ونظرت إلى المرآة، ورحت أجهش بالبكاء. فتحت الدرج وأخرجت منديل والدي ومسحت وجهي

به. لقّمت مسدسي وتوجّهت إلى منزل جورج طرقت بابه لكن ما من مجيب.

ركبت دراجته ومضيت مسرعاً باتجاه الجبال وعبر الهضاب الخالية. ركنت الدراجة أعلى الجرف ونظرت إلى الخضار، وشتمت الأودية البنية التي تغطيها رقع لامتناهية من التربة. شهرت مسدسي وأطلقت النار على الهضاب وعلى الطيور، فوثب صدى طلقاتي على الحجارة، وناح مرتداً ألفاظاً غدارةً إلى نحري.

١١

مرّت بضعة أيّام، ثمّ توجّهت عشرة آلاف زجاجة «جوني ووكر» غرباً تحرق الحلوق وتدمّر العائلات. عبّ الرجال الكحول فأوصدت أبواب غرف النوم بقوّةٍ، وأقفلت معها الأفخاذ على وعودٍ بعدم فتحها مجدداً ونُزِعت المحابس من الأصابع، ورميت على رفوف الخزائن القديمة والمرايا المنتحبة والجدران الموصولة.

تلقيت بعد ظهر أحد الأيام اتّصالاً من مصنّع الويسكي. وطلب إلي تسليمٍ طلبية مستعجلة غداً.

في صباح اليوم التالي، حمّلت الويسكي من المستودع. ثم مررت بمنزل جوزف واصطحبته. أعطيته بعض المال في «الڤان» فعدّه وابتسم.

تأخّر علي عن موعد التسليم فانتظرناه. بعد مضيّ وقتٍ قصير، جاء أحد الأولاد، وأعلمنا أن علي في طريقه إلينا. طلبت إلى جوزيف حراسة «الڤان». ثم توجهت إلى خلف الجدار والتقيت علي. تصافحنا، وفتح سترته وسحب منها ظرفاً

مطويّاً من منتصفه. دسّه بسرعةٍ في جيبي وغمزني. انتظرت حتى يبتعد جوزيف عن «الڤان» ليراقب الأولاد وهم يفرغونه، وخبأت الظرف بسرعةٍ تحت المقعد.

في طريق عودتنا إلى الحيّ، ذكر جوزيف أنه رأى بعض الإسرائيليين في الشارع مؤخّراً.

ـ إنّهم قادمون. تستغرق المسألة شهراً أو أكثر، وستراهم هنا ليطردوا السوريين والفلسطينيين.

ـ وما أدراك؟

ـ أتى دي نيرو لرؤيتي في ذلك اليوم. وأخبرني أنه يحتاج إلي لمهمةٍ أمنية. أقلّني مع بضع رجالٍ موثوقين آخرين وذهبنا إلى الجبال. أخبرونا لدى وصولنا أن الرئيس هناك للقاء جنرالٍ إسرائيليٍّ مهم. لذلك أخلينا المكان بأسره وطوّقناه. بعد نصف ساعة حطت مروحية وترجّل منها خمسة جنود إسرائيليين. كانوا ينتعلون جميعهم جزماتٍ برغنديةٍ للقوات الخاصة. عقدوا مع الرئيس اجتماعاً دام ثلاث ساعات. أمسى صديقك دي نيرو شخصاً مهماً الآن، فهو اليد اليمنى لأبي نهرا.

ـ ما اسم الجنرال الإسرائيلي؟

ـ الجنرال درورير. . شيء من هذا القبيل. لا أذكر.

ما إن وصلت إلى المنزل، حتى هرعت إلى غرفتي، وفتحت الظرف الذي أعطاني إياه علي. كان فيه رسالةً من عمّي نعيم:

عزيزي بسام،

علمت بوفاة والدتك وأحزنني الأمر للغاية وبكيت. وما زاد من حزني عدم استطاعتي حضور المأتم. أتوق لأكون معك، خصوصاً في هذه الأوقات العصيبة. غالباً ما أتساءل عن مآل حياتك في الشرقية، وأنت وحيد بعد أن تيتمت في عمرٍ يافعٍ للغاية. لم أحاول الاتصال بك أو بوالدتك كل هذه السنين، خوفاً من أن يعرّضكما مركزي مع القوات اليسارية للخطر. ولكنك أنت مرحّب بقدومك إلى الغربية في أي وقت. أستطيع تدبير أمر قدومك إلى هنا، ويمكنك الإقامة معي ومع زوجتي نهلة وقريبك نضال الذي لم ترَه في حياتك. أرسلت هذا المبلغ الصغير من المال، فربما كنت بحاجةٍ إليه. كما أرسلت معه ظرفاً آخراً لتسلّمه إلى واحد من معارفي القدماء يدعى جليل الطاحونة، أرفقت نمرة هاتفه مع الظرف، وهو في انتظار اتصالك.

لك خالص حبي

عمّك الذي اشتاق إليك

نعيم

دوّنت اسم هاتف الرجل ونمرته، ثم مزقت الرسالة إرباً إرباً، وأحرقتها في منفضةٍ وأحصيت المبلغ، كان عشر أوراقٍ من فئة المئة دولار. أوراق نقدية جديدة زرقاء تكاد تصفر.

أما الظرف الآخر، فكان مغلقاً ويحمل الحرفين الأوَّلين ج. ط. أي جليل الطاحوني. فتحته ووجدت مبلغاً من المال، وشيئاً أشبه بخريطة أو رسوم هندسية لأساس منزل. كانت كلمة

(أساس) مكتوبة بالخط الأحمر، وحولها دائرة على بعض جوانب الخريطة.

وددت في تلك الليلة الانتقام لخطأ ارتُكب بحقّي. وقفت أراقب محل البوكر من الجهة المقابلة للشارع. ورأيت صديق نجيب يغادر في سيارة زرقاء قديمة.

وضعت الخوَّذة وامتطيت الدراجة، وتبعته حتى الدورة.

انتظرت هناك، ريثما أوقف سيارته ودخل محل الفرّان، وخرج يحمل اللحم بالعجين. أزال ورق الصحف الملفوف حول طعامه، وأخذ بضع قضماتٍ، قبل أن يذهب إلى شقّته. دخل المبنى، فتبعته على الدرج. ما إن وصل إلى الفسحة بين شاحطَي الدرج حتى أمسكته من الخلف، وفتلت كتفيه وضربته برأسي عندما التقينا مواجهة (كنت لا أزال أعتمر الخوذة على أمل أن أبدو له كفضائيٍّ من فيلمٍ درجة ثانية). وقع على الدرج وأنّ من الألم، وهو يضع يديه على أنفه الراعف وعينيه الحمراوين. فتّشت جيوبه، فأخرجت ما فيها من مال ووضعته في سترتي. وابتعدت سيراً حول المبنى، حيث وجدت دراجتي، وعدت إلى المنزل.

خيّم الليل مجدداً، كما يفعل دائماً. اتّشحت بالسواد ولطّخت وجهي ويديّ بطلاء الأحذية الأسود. أنرت شمعةً أمام النافذة التي تطلّ على الشارع وأقفلت الباب. اعتمرت قبعةً لإخفاء شعري المجعد، قبعةٌ طويلةٌ تكفي لتخفي تحتها عيني الواسعتين، وتحميني من الليالي والعصافير ومن نظرات البقال.

قطعت الشارع وذهبت إلى المبنى المواجه، وأنا أرى كلّ الأمور في مواجهة: المدن والمسدسات والأصدقاء والأعداء. صعدت مباشرةً إلى سطح المبنى، وفتحت الباب المعدني الثقيل ببطء وهدوءٍ، ثم أغلقته خلفي برفق وتوجهت إلى حافة السطح، وجلست لمراقبة الشارع في الأسفل. وأبصرت النور الذي تلألأ ورقص على نافذتي.

مرت سيارةٌ ببطء مرّة واحدة، ثم عادت مجدداً وأطفأت أنوارها وتوقَّفت أمام منزلي. هرعت حاملاً المسدس في يدي. تواريت عند مدخل المبنى ورأيت نجيب وشريكه مضمِّداً وجهه المزرقّ المنتفخ وأنفه المكسور، كانا ينظران باتجاه نافذتي. ظهرا صبيانيَّين، أخرقَيْن، خائفين ومتردّدَيْن. وقفت هناك كشبحٍ منتقم في عليّةٍ تصرّ، يكبح إصبعه المتّهم عن الضغط على الزناد، ويمنع نفسه من إيصال يدٍ خفيةٍ إلى حلق أعدائه ليستخرج منه آخر الأنفاس. تهامس نجيب وصديقه؛ وفجأةً انطلقا مبتعدين ولم يعودا.

رجعت إلى السطح، وفكرت في جورج. كدت أقتله، وهو صديق طفولتي، شقيقي الذي طعنني وقبّلني، والذي قبل حبيبتي مطوّلاً بل جعلها تتركني... فكَّرت في ضرورة مغادرة هذا المكان. علي مغادرة هذا المكان. أخرجت كل المال من جيبي وأحصيته مجدداً. ثم لففته بحبل مطاطيّ، جاعلاً منه رزمةً مستديرةً منفوخة.

مشيت نحو الجهة الأخرى من السطح، وراقبت منزل رنا.

لم تكن غرفتها مضاءة. شهرت المسدس في كل الاتجاهات، أصوِّبه نحو براميل المياه الفارغة والحجل الراقص، والقذائف المدوية؛ وأصوِّبه نحو رنا ونحوي. نظرت إلى فوّهة المسدس وفكرت في شتّى طرق الرحيل: فقد يلوي الشبح ذراعك ويطلق النار عليك. وإذا كنت محظوظاً يا صديقي قد يدفع بك عن السطح. وينتظر الحجل ليعيدك إلى فوق. وقد يطارد الصواريخ المنهمرة حتى صحراء نيفادا، أو ساعة بيغ بن المتكتكة، أو حتّى برج بيزا المائل. قد تتمسك جيداً بالحجل الهادل، وتغوص تحت البحر لتصطاد السمك السام وبعض البطلينوس الذي يطبق فكّيه. أو قد تتمسك برشاقةٍ بشراع سفينةٍ سياحيةٍ وتميل بها على أنغام المامبو الخاصة بها، حرصاً ألا توقع الشامبانيا على فساتين سهرة السائحات، وأنت تطلق الماء من المسدّسات البلاستيكية نحو الملائكة البيزنطيّة المحيّرة المهاجرة. أو قد تحبس أشباح البحارة داخل الفقاقيع وتشاهدها تفقع على سطح المياه، ثم تغرقها مجدداً. أو قد تذبح حوريات البحر وتجمع ستراتها الخضراء الصغيرة وتلفّها كورق العنب، كالمال في جيبك، وكالسجاد العجمي المدلّى على الشرفات للتهوئة. أو قد تنزل على الدرج الخالي بكل بساطةٍ، وتعود إلى شمعتك المتلألئة، وتنام.

في الصباح التالي سمعتُ طرقةً على بابي. كان السيد لوران الذي بدا مكتئباً بعينيه الحمراوين.

ـ جاء صديقك جورج لزيارتي الليلة الفائتة. كان يتصرف

كالحيوان طالباً المزيد من المال. أعطيته كما أعطيه دائماً لكنّه أراد المزيد. ثم أمسك بيدها ورحل ولم يعودا بعد. كان عدائياً، عدائياً للغاية. هل تساعدني في البحث عنه؟ لم يغمض لي جفن طوال الليل.

ـ لست وكيل جورج يا سيد لوران. كل ما في الأمر أنه طلب خدمةً في تلك الليلة، هي إيصال حاجة إليك. وما كنت لأسلّمك ذاك الكيس لو علمت ما بداخله.

توسّلني لوران قائلاً:

ـ كان جورج عدائياً للغاية سيد بسام. وأظنّ أنه كان منتشياً بعض الشيء. إنّه يطلب المزيد من المال الآن. وهدّدني if faut qu'on quitte cet endroit, c'est devenu vraiment dangereux ici[١]. قدِّر لي، على يبدو، أن أظلّ منفياً طوال حياتي. ساعدني في البحث عن جورج وعن «بيبي»؟ لا أريد سوى رؤية طفلتي.

ـ هل تفقّدت منزل جورج سيد لوران؟

ـ لا. أخشى أن يشتدّ غضب صديقك. c'est un fou[٢]. ابحث عنهما s'il te plaît[٣].

طلبت إلى السيد لوران الجلوس، ريثما استبدل ملابسي.

---

(١) علينا مغادرة هذا المكان، لقد أضحى الوضع خطيراً.
(٢) إنه مجنون.
(٣) من فضلك.

نظفت أسناني، وغسلت وجهي بقبضةٍ من الماء. وذهبت إلى غرفة النوم ارتديت بنطلوني وقميصي. في طريقي إلى غرفة الجلوس، حملت سترتي بإصبعي وأدخلت يدي في الكم، فيما أمسك السيد لوران بالكمّ الثاني، وساعدني على إكمال لبسي.

خرجت من الشقّة، ومنها إلى الشارع، يتبعني السيد لوران الذي هرع من بعدها ليمشي إلى جانبي. مرّ أبو دوللي البقال، وتجاهلني. لكنه استدار نحو السيد لوران، وتبادلا إيماءة الرأس احتراماً.

طرقت باب منزل جورج، بينما قبع السيد لوران عند المدخل يدخّن سيجارةً، ويسعل كرجلٍ عجوز.

طرقت الباب مجدداً، ففتحت لي «بيبي» أخيراً، نصف عارية ونصف نائمة.

ـ جورج هنا؟

ـ Non il n'est pas là[1].

ـ أين هو؟

ـ غادر.

ـ زوجك في الأسفل. إنه يفتِّش عنكِ.

ـ Ah, oui! Loulou est là?[2].

---

(١) لا ليس هنا.
(٢) آه حقاً، لولو هنا؟

هبطت الدرج حافية وحين رأى لوران زوجته سعل مجدداً، ورمى سيجارته على الرصيف وتوجّه نحوها.

ـ bébé! bébé![1].

ـ Mais, ça va, mon amour, ça va[2].

ربّتت بلطفٍ على شعر لوران الأشقر، فقال:

ـ J'ai pas dormi[3].

ـ Oui, mais ça va[4].

أمسكت نيكول بيده وقبّلته على وجنتيه. دخلتُ منزل جورج وتوجهت إلى غرفته، بينما كانا يتحدّثان في الأسفل. كان ثمة إبرة دقيقة وملعقة محروقة قرب السرير. أما بندقيته فكانت مرمية في الزاوية وكانت رائحة الدخان والأدوية تفوح من المكان. كما كان على الأرض رباط منهدة. دخلت المطبخ، فرأيت المجلى يغصُّ بالأواني المتسخة. ألصقت فمي على الحنفية لكنّ المياه كانت خفيفةً، على وشك الموت والانقراض، فابتلعت آخر القطرات التي كان مذاقها أشبه بمذاق الهواء في الأنابيب.

هبطت الدرج مجدداً، وهرعت «بيبي» إلى منزل جورج قائلة:

---

(١) يا طفلتي! يا طفلتي!.
(٢) لا بأس يا حبيبي.
(٣) لم أستطع النوم.
(٤) لا بأس.

– Je viens papa, je serai là dans cinq minutes. J'apporte mes affaires.[1]

في الأسفل، أمسك لوران بيدي، وحاول تقبيلها، إلا أنني سحبتها بسرعة.

خاطبني وأنا أمرّ قربه، بلهجة خادمٍ:

ـ شكراً، شكراً.

دستُ سيجارة السيد لوران، حين وصلت إلى الرصيف وأطفأت وهجها.

في طريقي إلى المنزل، مررت بمحلّ مجلات رومانوس، استللت صحيفة لأقرأ العناوين: **اسرائيل تتقدم نحو الحدود الجنوبية. قتال في الجبال ما بين القوات المسيحية والمسلمين والاشتراكيين. خطب طويلة وفارغة للوزراء ورجال الدين. عارضة أزياءٍ أو ممثلة من هوليوود تقترن بمليونير سعودي. «وودي ألن» يعزف على المزمار. «صاحب حمامة» يعلن حبّه لممثلة مصرية.** في تلك الأثناء كان رومانوس يتساءل عمّا إذا كنت سأشتري الصحيفة، أم سأقرأها وأعيدها إلى مكانها على الرفّ كالعادة. أوقفني أبو يوسف في الشارع، وقدّم لي تعازيه الحارة بوفاة والدتي. رآنا صلاح السبّاك ووقف يعتذر مني قائلاً:

ـ فليرحمها الله. أصلحتُ المواسير في مطبخك قبل وفاتها

---

(١) سآتي يا والدي، سأنزل بعد خمس دقائق، عليّ جمع أشيائي.

بيومين، وتركت مفتاح الربط وبعضاً من عدّتي تحت المغسلة ولعلك تسدِّد فاتورتي الصغيرة. أعرف أن الوقت ليس مناسباً، لكنّ أولادي ليس لديهم ما يكسوهم. وزوجتي تلعن الساعة التي تزوّجتني بها؛ وتلعن والدها المستبدّ الذي أجبرها على ذلك؛ كما تلعن يديّ الغليظتين المغطاتين بالجسأة، وسبّابتي المقطوعة التي لن تلمس ثدييها المتدليين مجدداً، وتلعن قدرها... لأجل ذلك أطلب منك الباقي... وليرحم الله روح والدتك. كانت سيدة رائعة بحقّ.

عدت إلى المنزل مع صلاح فتحت له الباب فتوجّه مباشرةً ليحضر عدّته. انحنيت وراء طاولة غرفة الطعام وأخرجت رزمة المال من جيبي، وسحبت مبلغاً لأسدِّد لصلاح دَين والدتي.

كان الجو هادئاً حين رجعت إلى الشارع. فالقذائف لم تنهمر نحونا منذ أيام. تعارك سائقو الأجرة حول البنزين فيما لعنت النسوة قديّسي الشلالات والمياه. وبدا الرجال مهزومين بلحيّهم غير الحليقة، بينما استعرض البعض مسدسات قديمة تدلّت من خصورهم. انتشر الناس بين المتاجر. أما لاعبو الورق فاختفوا مثل الساحر هوديني داخل المقاهي التي عتّمها سديمٌ سميك من دخان النراجيل، بينما غطت نكهة معسل التفاح رائحة النفايات وأخفَت بين طيّاتها المقامرين من حنق زوجاتهم الهستيريّات.

مررت بمدرستي القديمة، فرأيت أولاداً باللباس الرمادي يسيرون مجموعاتٍ، حاملين الكتب بين أيديهم وداخل حقائبهم

البنيّة. كانوا يسيرون بخطواتٍ سريعةٍ باتجاه حجرة الطعام الطويلة، نحو الكاهن الذي يرتدي رداءً طويلاً، ومعارك نابليون والمثلثات القائمة الزاوية. وقصائد العصر الجاهلي لبدوٍ سكارى تغزّلوا بكثير من الآلهة. ولم يتوانوا عن رثاء الأموات الذين قطنوا تحت الرمل الناعم وفوق الكثبان المتحركة، يتمايلون مع أشجار النخيل الراقصة تحت وعاءٍ صغيرٍ لأقمارٍ نصف مضاءة.

١٢

دخل الجنود الإسرائيليون أراضينا، يشقّون الأنهار وأشجار الزيتون. كنا أنا وفارطان على حافة الرصيف نقرأ في الصحيفة هذه العناوين:

وصل الإسرائيليون إلى الجنوب! السوريّون يتراجعون! المقاومة تستعد! القوات المسيحية تتحالف مع الغزاة!

مرّ أبو فؤاد بنا، فأقحم رأسه إلى داخل صحيفتنا المفتوحة، وقال هامساً: إنهم هنا. استمعت إلى المذياع، سنتخلّص من أولئك الفلسطينيين ولكننا سنعلق مع الإسرائيليين.

نقر الشامي، الموسيقيّ الذي يعزف في زاوية الشارع، على الطبول، ومرّر يده فوق شاربه، وغنّى: فليأتِ من يأتي. لقد مللنا هذه الحرب. نود العمل وسيهدل الحجل الرمادي على السطح في رأسي قائلاً: متى سنرحل، متى سنرحل. لنركب الرياح الجنوبية. أستطيع التحليق! أستطيع التحليق فوق البحر القريب!

التقيتُ السيد لوران وأنا في طريقي إلى منزلي. أمسك بيدي وأومأ قائلاً:

- Les Juifs sont là, ils sont là[1].

في إحدى المرّات، رأيت رنا في السوق. تجاهلتني وهربت متوغلةً بين البائعين وصيحاتهم. تبعتها وحين اقتربتُ منها تظاهرت بعدم رؤيتي وأكملت انتقاء الخضر.

أمسكت بيدها وقلت لها:

- تعالي، لنتحدث.

أجابت بنعومةٍ:

- ليس لدينا ما نقوله. اتركني من فضلك واذهب، وارحل. لطالما أردت البقاء وحيداً وجلّ ما أردته هو المغادرة. أنت لا تحتاج إليّ ولا تحتاج إلى أحد. وفضلاً عن ذلك سوف أُخطب ولن أقول لك لمن أبداً، فلا تسأل.

- سوف أعرف من خطيبكِ وأقتله.

- جرِّبْ. فخطيبي قتل الكثير قبلك، وسوف يقتل المزيد.

تركتها في سبيلها ومضيت.

سمعتُ صوت مذياع الجيران يعلن لي بصوتٍ عالٍ أن الإسرائيليين قد تحرّكوا شمالاً، وحاصروا بيروت الغربية.

---

(١) اليهود وصلوا لقد وصلوا.

شاهدتُ عناصر القوات المسيحية من شرفتي يقودون بسعادةٍ وسرعةٍ «جيبّاتهم» وقد ألصقوا على الأسقف والنوافذ وأغطية المحرِّكات أعلاماً مبهرجةً برتقالية اللون راحت تتدلّى.

سألت جوزيف عن الأعلام البرتقالية فأخبرني أنها إشارة إلى الإسرائيليين لإعلامهم بأننا حلفاؤهم.

ـ لن نسلّم الويسكي لبعض الوقت، أليس كذلك يا مجنون؟

وقهقه.

حلَّقت النفاثات الإسرائيلية فوق بيروت، وقصفت في طريقها المنازل والمستشفيات والمدارس، بينما كان يصدح مذياع كلّ منزلٍ في شارعنا. كان الناس في الغربية يهربون للنجاة بحياتهم، واستطعنا، نحن هنا في الشرقية، رؤية أنوار المضادات المقاوِمة تصوّب نحو سماء الليل.

صعدت إلى السطح ونظرت إلى الناحية الغربية. كان المشهد برمّته مضاء بالصواعق التي هبطت من الطائرات الإسرائيلية، بينما ارتفع خطٌّ متواصلٌ أحمر من الأرض ليلامس السماء. لم يتوقف عن التصاعد قط. وتساءلت عما إذا كان عمي يصوّب نحو الآلهة، وعما إذا كانت زجاجات الويسكي البخسة الثمن تتحوَّل زجاجات مولوتوف بين يديّ علي. هاتفت جليل الطاحونة، وتكلَّمت معه بشأن رسالة عمي. اختصر الحديث وكلَّمني بفظاظةٍ. قرّرنا أن نلتقي أمام مقهى ساسين. قال إنه سيمر بسيارته إن انتظرته خارجاً، ثم سألني إن كنت سألتقيه وحيداً، فأكدَّت له ذلك.

ـ لا تنسَ الظرف.

أغلقت الخط بوجهه.

انتظرت خارج المقهى. كان الطقس مشمساً، وشاهدت مجموعة من الفتيات يغادرن مدرسة الراهبات بتنانيرهن القصيرة، يتأبَّطن الكتب الملفوفة بربطاتٍ بلاستيكيةٍ لتحاذي صدورهن اليافعة. ضحكن في آنٍ، وهززن أوراكهن الخصبة وسيقانهنّ الحليقة حديثاً في تناغم، بينما استرقن النظرات بعيونهنّ البنية الواسعة.

توقّفت سيارة أمامي. مال سائقها، وهو رجل يرتدي نظّارة وسترةً صوفيةً، فتح الباب وناداني بكنيتي. ركبت السيارة. لم يحيّني الرجل، وبدا متوتراً أو منزعجاً. فكرت في مدى إحساسه بالحرّ، وخصوصاً تحت السترة الصوفية السميكة. لم يكن مدركاً لوجودي؛ لكنه حملق في الظرف، وقال:

ـ أهذا هو؟

ـ ماذا؟

أجبته بذلك، وأنا أدرك تماماً عمّا يبحث.

ـ الظرف؟

ـ أجل.

التفّ بالسيارة فجأةً، واتخذ طريقاً منحدرةً نحو حيّ السريان. أوقف السيارة وعدّل نظارته، ثم انتزع الظرف مني وقال:

ـ دعني أرَ.

كان ريفياً، وقد أزعجتني تصرفاته المريبة.

نظر إليّ بعينيه الصغيرتين وقال صارخاً:

ـ أكان مفتوحاً؟

ـ لا.

ـ فتحته أنت؟

ـ نعم.

ـ لم؟

ـ لأنني أردت ذلك.

ـ لم يجدر بك فتحه.

ـ المال بأكمله هنا. عدّه.

راح يعد المال، ثم أقحم الظرف في جيبه، وقال:

ـ حسناً ارحل الآن.

شهرت مسدسي، وأجبته:

ـ لا. بل ارحل أنت.

جمد مكانه فقلت له:

ـ اسمع، كان ما قمت به مجرَّد خدمة لك ولم أسمع منك شكراً!! ثم إنني لن أعود ماشياً، هل فهمت؟ لا أبالي بشيءٍ

سوى بالاحترام. فذلك مهمٌّ لي كثيراً. أحب الاحترام، وأقتل قليل الاحترام. إن تفوَّهت بكلمةٍ واحدة قتلتك وأخذت المال أتفهمني؟

انفرجت أسارير الرجل فجأة. وبسرعة البرق تحوّل من صرصارٍ إلى أحدبٍ يعتذر وينحني أمامي ويدعوني بالأستاذ.

ـ عمّك صديقٌ عزيزٌ. عزيزٌ للغاية بالفعل.

أخرج مئتي ليرة، وابتسم قائلاً:

ـ هذا بدل أتعابك.

ـ فلنعد أدراجنا، وقدْ بسرعة.

وذات صباحٍ مبكر وبعد مضيّ بضعة أيام وموت الكثير من المدنيين في الغربية، جاء رجلا ميليشيا وقرعا بابي.

صرخا من وراء الباب:

ـ الأمن الداخلي. افتح!

ما إن فتحته حتى اجتاحا منزلي، ودفعاني بمحاذاة الجدار. وجَّه رجلٌ مسدساً نحو رأسي، وفتّش الرجل الآخر البيت.

ـ ما الأمر؟

ـ اسكت يا حشاش!

صفعني الرجل المسلّح على وجهي.

ـ ستأتي معنا. أبو نهرا يود رؤيتك.

ـ دعني أرتدِ ملابسي.

دفعني الرجل المسلّح، فأضفت:

ـ سآتي! أتودني أن أقابل القائد بملابسي الداخلية؟

أمسكني بقميصي وقال:

ـ أسرعْ!

تبعني إلى غرفتي حيث عثرت على بنطلوني. وبينما كان يدفعني أدخلتُ إصبعي في جيبي، حيث المال، وانتظرت إلى أن دفعني مجدداً، ثم تظاهرت بالوقوع، وخبّأت الرزمة تحت الأريكة القديمة الثقيلة. اقتاداني إلى الجيب. وفي طريقي رأيت أبا دوللي البقال واقفاً عند المدخل، يهزّ برأسه، ثم قال وهو ينظر إلى عينيّ:

ـ زعران!

سألتُ آسريّ:

ـ لم تأخذانني؟

استدار الرجل الذي يحمل مسدّساً نحوي، وأمسكني بشعري قائلاً:

ـ انطق كلمةٍ أخرى وسأجعلك تبصق الدم من فمك. أتفهمني؟

وصلنا أخيراً إلى المجالس. ترجَّلت من الجيب، وقادني رجلا ميليشيا إلى طابقٍ سفليّ. أدخلاني إلى غرفةٍ تحوي طاولةً وكرسيّين حيث جلست على واحدٍ وانتظرت.

مرّت ساعتان وأنا لا أزال أنتظر. وجلّ ما سمعته صوت إغلاق بابٍ معدنيّ وخطوات بعض الحراس وأنين. شعرت برطوبة الطابق السفليّ، وببرودة الجدران، وبرائحة البول المبهمة، وبالطوابق الإسمنتية غير المدهونة. زرعت المكان جيئةً وذهاباً، وتململتُ بعصبيّةٍ، وغيرت مكاني على الكرسيّ. ربّما علموا بأمر صفقة البوكر. كان عليّ قتل نجيب، ذلك المغفّل. ترى هل طعنني جورج في ظهري مجدداً؟

تملّكني روح الانتقام. هل السبب صفقات البوكر أم الظرف الذي أرسله عمّي إلى جليل الطاحونة؟ حضّرت نفسي للصفعات القادمة والأسئلة المكررة: أخبرني القصة ذاتها يا بسّام! أخبرني القصة ذاتها! تقتُ إلى سيجارة. أخيراً، سمعت صوت المفتاح يصرّ داخل القفل، ودخل أبو نهرا منفرج الأسارير برفقة حارس.

ـ آه! هذا أنت يا بسّام. قدَّرت ذلك.

قال ذلك وهو لا يزال واضعاً نظّارته. فتساءلت عمّا إذا كان بمقدوره رؤيتي عبر الغرفة المعتمة التي ينيرها وهجٌ خفيفٌ لمصباحٍ كهربائيٍّ كاد يلامس رأسه تحت السقف المنخفض.

صاح الحارس وهو يلطمني على رأسي:

ـ قف! قف للقائد يا حشّاش!

وقفت على مهلٍ وأنا أنظر إلى عيني أبي نهرا. لكمني الحارس على رأسي مجدداً، ودفعني بركلة على عظمة ساقي قائلاً:

ـ قف بسرعة يا كلب!

فقدتُ توازني ووقعت على الأرض. حين لامستُ السطح الإسمنتيّ الخشن، شعرت ببرودته ورطوبته، ممرّغاً ثيابي عليه فاستحالت رمادية اللون جرّاء النشارة الرمادية الدقيقة التي غطّت السطح الحاد غير المستوي. تساءلت عن عملية صبّ الإسمنت غير المتقنة في ذلك المكان. فالأرض لم تكن مستوية وربما لهذا السبب كانت الكراسي كلّها تتزعزع حين أجلس عليها. فكّرت في ذلك، والأقدام تنهال على وجهي وتصيب عينيّ.

وقفت، والدم ينزف مني. لوّح أبو نهرا بيده، فتوقف الرجل عن الدبكة على جسدي.

ـ أتعلم ماذا فعلت؟

ـ لا.

ـ اسمع. أنا رجل مشغولٌ للغاية، وكان عمّك اليساريّ صديقاً لي. تكلّم وإلا أبقيتك هنا مع رامبو.

ـ ليس لديّ أدنى فكرة عما فعلته.

ـ لم قتلت الرجل العجوز؟

ـ أيّ رجل عجوز؟

ـ تحدّثت زوجته عن سرقة بعض الأشياء.

ـ من؟ ليس لديّ أي فكرة عمّا تتحدث.

عاد رامبو، وأمسك بشعري، وألصق فمه على أذني هامساً:

ـ تكلّم الآن وإلا لن تكون سعيداً أبداً.

أمال أبو نهرا نظارته نحوي وقال لي بصوتٍ خفيضٍ هادىء:

ـ حسناً. إليك القصة. قُتل السيد لوران في شقته البارحة، وحدثت سرقة. استجوبنا زوجته، فقالت إنها كانت تزور منزل صديق في الجبال. وقد سُرِقَت بعض الماسات الأفريقية من المنزل.

ـ ربما قتلته هي! أو ربما هي من سرق الماس!

ضربني رامبو على رأسي، وقال نابحاً:

ـ لا تقاطع القائد.

أكمل أبو نهرا:

ـ حين ضغطنا عليها قالت إنها تشك فيك. فأنت من أعطاها المخدرات، وكنت ترافق العجوز في الآونة الأخيرة. أتحب الرجال الأثرياء العجزة؟

ـ لا.

ـ بلى تحبهم. وربما تلعقهم أيضاً. فقد رآك أشخاص في الحيّ برفقته مؤخراً.

سألت بتحدٍّ:

ـ مثل من؟

ـ أخبرنا البقال أبو دوللي أنك كنت تتنزّه معه يوميّاً. سمعنا

أشياء كثيرة عنك. والجميع يعرفون أنك حشّاش. أين كنت الليلة الماضية.

ـ في المنزل. لم أفعل ذلك.

ـ وجدنا مسدّساً في منزلك. اسمع أيها الشيوعيّ الصغير... أنت شيوعيّ على غرار عمك أليس كذلك؟ أخبرني عن مكان الماسات وإلا سيريك رامبو هنا نجوم الظهر من داخل رحم أمّك.

ـ أمّي ميتة.

جنّ جنون رامبو وصرخ:

ـ هل تجيب القائد يا كلب!

ضربني بطرف بندقيّته.

وقعت على تلك الأرض الباردة مجدداً، فتقدَّمت جزمته عليّ وتقهقرت كالأمواج التي تتكسر عند أقدام الشواطىء الندية، كما تحجب الخمارات السوداء أشعة الشمس عن عينيك، كصوت قرع الطبول في أذنيك، كقطرات قطعة الحلوى التي تسيل على ذقنك، وكرائحة المماحي البلاستيكيّة في غرفة صفّك. علا الغبار مجدداً كنثارة الطبشور الذي تطاير بعد أن محاه حبيب الماكر عن اللوح، أو كصفعات الكاهن اليسوعيّ الفرنسيّ التي انهالت على راحتك، كأنها بركات الحاكم، أو كأنها ركبك المثنية على تلك الجذوع الضيقة تحت مقاعد الكنيسة، كرائحة البخور الذي عاد ليهبك نشوةً إلهيّة، وكاعترافاتك: سامحني يا

أبتي فقد أذنبت. نعم، هززتُ تلك الشجرة إلى أن رمت بثمارها، وكسرتُ ذاك الزجاج في حجرة القديس بيتر، وسرقت الشموع، وتحسّست تلك الفتاة الصغيرة تحت وابل القذائف في الملجأ حين غطّت والدتها في النوم على أخبار المذياع. أعترف يا أبتي فأنا هو الذي انتظر إلى أن انطفأت الشمعة، وأدخلت يدي خلسةً تحت لباس نومها، وصولاً إلى شعر عانتها الذي نما حديثاً، ولم تنبس ببنت شفةٍ؛ وتبعتني حيثما لعبت. وحين صعدت إلى السطح، تبعتني كالجرو وكأنثى الطير.

ومنذ ذلك اليوم يا أبتي، راحت ترتدي ملابس فاضحة، وتعبث بشعرها، وتمضغ العلكة بشدقٍ مفتوح وترقص ببهرجةٍ على أنغام أي موسيقى. أضحت تغار من أمي ومن أصدقائي الفتيان. وفي أحد الأيام يا أبتي ودون مقدّمات، باتت تنفر من صوتي الأجشّ وأنفي الكبير وبثوري الحمراء وحلمتي المنتفختين. أترى يا أبتي. كبرت فقط لترافق رجال الميليشيا بسياراتهم الإيطالية المسروقة التي تطلق الزمامير أسفل نافذة والدها. وأنا، الذي يمقت عمره وفقره، والذي يمقت هجرها له من أجل صبْية أكبر، أشاهدها وهي تهرع إلى سياراتهم، إلى خواتمهم الذهبية، إلى أرزات عيد الميلاد المدلاة عن صدورهم العارية، إلى عطور دراكار نوار التي يرشّونها، وإلى موسيقاهم التي تصدح عالياً مهينةً الحيّ بأكمله.

تطاير شعرها يا أبتي من سيّاراتهم غير المسقوفة التي توصلهم إلى أكواخهم الصيفية المتناثرة على الشطآن الملوَّثة،

وإلى غارسونات جبلهم. وحين رأتني يا أبتي ابتسمت لي وكأنني رجل صغير في بيتٍ للدمى. أرأيت يا أبتي: منذ ذلك الوقت وأنا أرفض النزول إلى الملجأ، حتى لو قام رامبو هذا بتحويلي إلى كبّة. لا لن أنزل إلى ذلك المكان المعتم، فلطالما كرهت الطابق السفلي والشياطين الصغيرة التي تقطن هناك، والتي وسوست في عقلي حتى جعلتني أرغب بفخذيها النحيلتين وبشعر عانتها الذي نما حديثاً.

مشى أبو نهرا باتجاهي، ومال نحو الأرض، قبل أن يغادر الغرفة. وبالكاد تمكّنت من رؤية وجهه. كان كل شيء غائماً. رقصت نظّارته وكأنه في فيلم شيطاني لجيمس بوند من العام ١٩٧٠. وسمعت صوته الّذي بدا كأنه صوت أحد أفراد العصابات:

ـ سنضربك ونضربك... جلّ ما أريده منك هو الماس ثم أطلق سراحك. هيا الآن، كن متعاوناً وأطلع رامبو على مكانك السريّ. سمعت أن الشيوعيين يحبّون التشارك في الأشياء. هذه فرصتك إذاً لتكون جزءاً من مجتمعٍ عادل. قم بعمل صائب، واجعل عمك الشيوعي فخوراً.

ابتسم أبو نهرا، وأغلق الباب بقوة، وغبت أنا عن الوعي. حيث أفقت من غيبوبتي قادني الحارس البهيميّ إلى داخل غرفةٍ صغيرةٍ، ليس فيها سوى بطانيةٍ ومرحاض قذر.

لم أستطع الرؤية إلا بعينٍ واحدة. جلست على الأرض، ومسحت الغبار بيدي اليسرى، بينما أرحت اليمنى على الأرض

الباردة، لأوجِّه برودتها إلى عيني. كان جسدي يؤلمني وشفتاي تنزفان.

حاولت النوم، إلا أن رامبو كان مصمماً على حرماني منه. كان يفتح الباب كل بضع دقائق ويطلب إلي الوقوف.

ـ إن رأيتك جالساً أو نائماً فسوف أقحم وجهك في المرحاض أتفهمني يا حشّاش؟ سر!

أطعته ورحت أمشي ذهاباً وإياباً.

حرمني ذلك الوحش من النوم معظم الليل. فكنت أتمسّكُ بالجدار محاولاً إبقاء جسدي واقفاً. وحين أقع على ركبتيّ أحاول الإنصات إلى صوت الباب وهو يفتح، فأرفع جسدي قبيل دخول رامبو. غفوت فاستشاط غضباً وجرّني خارج الزنزانة إلى حمامٍ حيث ملأ المغسلة بالماء وأدخل رأسي فيه مراراً وتكراراً. مرة وأنا تحت الماء، قلت في نفسي: تباً له، لن أتنفس حين يخرجني. تباً له. سأحبس نفسي وأغوص تحت البحر مع السمك السامّ. سأبقى هناك وسأشاهد السياح يمرّون في تلك السفينة السياحية مجدَّداً.

سوف أرتدي هذه المرة أبهى حللي، وأُري أولئك الأجانب رقص السوينغ، وكيف ألوِّح بعصا الرقص في الهواء على أنغام المامبو تلك، ولترافقني راقصة عربية من كل جانب، بينما يرمقني ملائكة حائرون بنظرات الحسد، وتسخر حوريات البحر، ويقوم بعض خبراء الويسكي بخدمةِ السعوديين ذوي اللحى المشذّبة والذين ترافقهم بعض فتيات هوى البلاي بوي اللواتي

يرتدين زي الأرانب مع الأذيال القطنية البيضاء. تباً له. سأنام في مقصورةٍ فيها سريران وغرفة خدمة. تباً لذلك البهيميّ! ما علي إلا أن أحتفظ ببعض الفقاقيع من مياه المغسلة الفوّارة، ثم أبتلعها للحصول على هواء. وأنتظر تحت المياه ريثما تعود أنغام المامبو.

هذا ما سأقوم به.

إلا أن الوحش سيراني وسيصفعني، أنا الأزرق بلون أعماق البحر وبلون عيني اليسرى ولون بدلة قبطان الباخرة.

ما انفك يردّد على مسمعي:

ـ الماس يا حبّوب. لمَ تفعل ذلك بروحك؟ لا أفهم لم يحب الناس التعرّض للألم. هل يستحقّ الأمر ذلك؟ ليست سوى حجارة... اسمع، أكره قتل مسيحيٍّ، فنحن جميعنا من الطينة نفسها. هيا أخبرني الآن بمكان الماس وسأدعك تخرج من هنا، كما سأدعك تعود إلى منزلك في سيارة أجرة. خذ، جلبت لك الحساء، سأدعك تنام الليلة، وأعرف أنك ستستيقظ نشيطاً في الصباح وتخبرني عن مكان الماس بالتحديد بالضبط.

همستُ عبر أسناني المهشّمة:

ـ لم أسرقها.

ـ ما الذي قلته؟ لا أستطيع سماعك فأنت تتكلم كامرأة. أأنت امرأة تلعق قضبان الرجال العجزة؟

ثم أمسك الوحش بعنقي، وألصق أذنه على شفتيّ:

ـ تكلّم «شيري»، وسنذهب كلانا إلى المنزل الليلة.

ـ لم أفعل ذلك.

ـ ستتذكّر غداً. أعرف أنك نسيت الآن، لأن تفكيرك ليس سليماً، ولأنك أسرفتَ في الشراب. نَم الآن.

مع أنه تركني بعد ذلك، فإنني لم أتمكن من النوم جيداً كنت أستيقظ باستمرار خوفاً من أن يقتحم الوحش زنزانتي ويطلب إلي المشي مجدداً. أتى في الصباح، ودفعني بجزمته قائلاً:

ـ أين الماس؟

شرعت أبكي:

ـ لم أفعل ذلك. لا أعرف شيئاً.

ـ حسناً يا حشاش أظن أنك من الصنف الذي لا يقبل اللطف، كنت عادلاً معك. أأعجبك الحساء؟ إنه آخر طعامٍ ستتناوله، تعال معي «يلا»!

نادى صديقه، وجرّاني إلى داخل سيارة مدنيّة.

ـ سمعت أنك تحبّ سيارات B.M.W. سوف تشتري واحدة ما إن تبيع حجارة العجوز الكريمة، أليس كذلك؟ هيا، سنأخذك في نزهة.

دفعا بي داخل صندوق السيارة، وانطلقا لبضعة أمتار، ثم توقفا، وعلا صوت:

إلى أين ذاهب يا رامبو؟

ـ سننهي حياة الشيوعي بسام.

رد الصوت مقهقهاً:

ـ وكيف ستقوم بذلك؟

ـ على طريقة رامبو.

أجاب رامبو بهذا، واستسلموا جميعهم بضحكات صاخبة.

قادوا السيارة بسرعةٍ وبشكل دائري، فاصطدم رأسي بالإطار الاحتياطيّ، شعرت إثر ذلك بالغثيان، وجعلتني رائحة الجلد الجديد مغشياً أكثر. كانت العتمة حالكةً، حالكةً مثل قبر والديّ.

تباً له! على الأقل لن أدفن في المكان عينه!

توقفت السيارة، وأطفأ الوحش المحرّك وفتحَ الصندوق بمفرده. أبقيت عينيّ مخبّأتين بين يديّ لأن النور الضئيل الذي نفذ إلى الداخل أعماني، كما جعلني الدوار أتقيّأ.

اغتاظ الرجل الآخر وقال:

ـ «أخو الشرموطة»! لقد وسّخ السيارة انظر! لقد تقيّأ في كل مكان.

سمعت صوت مسدسٍ يلقَّم، وصوت الرجل الآخر يقول:

ـ سأنهي على القذارة الآن.

إلا أن رامبو أمره بالتريّث وصاح:

ـ قلت لك انتظر.

تشاجرا، ثم أضاف:

ـ هيّا اذهب من هنا يا الله. إنها سيارتي وسأهتم أنا بالأمر. أحنى رامبو رأسه إلى داخل الصندوق، وقال بسخريته المعهودة:

ـ والآن يا «حبوب»، أتذكر أين وضعت الأحجار الكريمة؟

لم أجبه، بل تقيّأت مجدداً. شعرت وكأن القيء يتوجه إلى الداخل، عبر فخذيّ ليتدفق على صدري متحوِّلاً حساءً.

ـ حسناً كما تريد. أتعرف؟ أستطيع أقدم إليك خدمةً بإطلاق النار عليك الآن. أعلم أن هذا ما تريده، لكنني لن أقوم بذلك. فنحن لم نسوِّ الأمر بعد بيننا. كما أنني لم أعرّفك إلى الشاحن الكهربائي بعد. أعدك بأنّك ستتوهّج كمريم العذراء.

أعادني رامبو وصديقه، وحملاني إلى الزنزانة.

عشرة آلاف صفعةٍ حطَّت على بشرتي الغضّة، وخرج الحساء من إمعائي كطعام الأطفال من يديّ والدتي المطعمتين ومن نظرات عينيها الثاقبتين ومن نفَسها المتطلّب، ومن ازدرائها لوالدي القدري، غير المبالي، الذي يمشي على مهل. الرجل الهادىء الذي يقتحم البيت في وقتٍ متأخرٍ من الليل، ليزجّ في العتمة بالصفعاتِ على يديّ والدتي المطعّمتين ونظراتها الثاقبة ونفَسها المتطلب وازدرائها لوالدي القدري، غير المبالي، الذي يمشي على مهلٍ. الرجل الهادىء الذي يفتح الباب في العتمة،

كمعذّبي الذي درزني بالصفعات، وقدّم لي الحساء الذي خرج من إمعائي كطعام الأطفال من يديّ والدتي المطعَّمتين ومن نفَسِها المتطلِّب ومن ازدرائها لوالدي القدري، غير المبالي، والذي يمشي على مهل كابنه في تلك الزنزانة، حيث أُجبر على المشي طوال الليل طالباً يديّ والدته المطعَّمتين، ونظراتها الثاقبة ونفَسَها المتطلّب لإنقاذه من المياه الخانقة، لإخراجه من الحوض الذي تطفو بطّة بلاستيكية على فقاقيعه، والذي هزّت صفعات مياهه السفينة السياحية موصلةً الصابون إلى ظهره الخشبيّ، حيث كان يا مكان في قديم الزمان، رجلان إنكليزيّان من الشمال الممطر يمشيان على مهلٍ تحت السماء غير المقمرة، متوجِّهَيْن نحو غرفة الطعام. قبل أن يبرد الحساء وقبل أن يقتحم السجّان بمئزره الأبيض المطبخ، ويطلب إلي الوقوف وعدم التوقُّف عن العمل وعدم الإجابة وعدم السرقة من محافظ الركاب وعدم تحسّس الفتيات المراهقات والزوجات الماسيّات المهتاجات، والاستمرار في كنس الغبار عن متن الركب، وتنظيف الأحواض بالغازات المتدفقة التي نفذت من وجهي الغريق ومن شفتيّ الغارقتين الهائمتين اللتين خفقتا كأجنحة الأسماك الطائرة فوق البحر غير المقمر.

فتح رامبو الباب وقال:

ـ أنت حرّ. تستطيع المغادرة يا حشاش.

أبقى الباب مفتوحاً، وأضاف:

ـ لديك دقيقتان للمغادرة.

وقفت ومشيت خارج الغرفة على مهل. فكرت: سيطلق النار على ظهري الآن وسيلوم جثتي على محاولتها الفرار.

مشيت عبر الرواق، حيث امتدت بعض الغرف على كلتا الجهتين. تشاركت في الأرض غير المستوية نفسها والجدران الرطبة نفسِها مع آخرين أنّوا كالدلافين تحت المياه، وسبحوا في البحر نفسه بعيونٍ مفتوحةٍ، وهم يشاهدون الفقاقيع البنفسجية تطفو بالقرب منهم.

حين وصلت إلى آخر الرواق، فتح رجل البوابة أمامي. صعدت الدرج بصعوبةٍ، ورأيت عبر النور المعميّ خيال امرأة فقلت في نفسي: أمي هنا. لا بد وأن رامبو، إبن الزنا هذا، قد أصر على لقاءٍ عائلي. ثم سمعت صوت نبيلة تشتم القدّيسين والمتوحشين. لاقتني في منتصف الطريق وجذبتني إليها.

ما إن ألقت نبيلة نظرة عن كثب حتى أمست هستيرية مما أخافني، ثم لامست شعري وشتمت الميليشيا وأبا نهرا والقديسين عبر النور المتدفق. بالكاد تمكّنت من حملي إلى سيارتها، ومضت إلى منزلها. ما إن وصلنا حتى مددتني على المدخل وصعدت لتنادي على شفيق الأزرق الذي ساعدها في حملي على الدرج.

١٣

ظلت نبيلة، على مدى أيام، تغسلني وتطعمني وترعاني لأستعيد عافيتي.

قالت لي:

ـ عليك أن تغادر هذا المكان. أحضر جواز سفرك. أولديك مكان تسافر إليه؟

ـ اذهبي إلى شقتي لتتأكدي إن كانت نقودي لا تزال تحت الأريكة.

عادت ومعها رزمة من المال موضوعة في رباطٍ بلاستيكيّ، وسألت:

من أين لك هذا المال؟

ـ ادّخرته.

ـ أتدري، إن هذا المال يجعلني أشك في أنك أنت من قتل ذلك الرجل. لكنني سمعت أن زوجته قتلت في غيابك، إذ وجدها راعٍ في الجبال ورصاصة في رأسها. ذهبت بعد ذلك إلى

ذاك البهيميّ أبي نهرا وصببت جام غضبي عليه. ليس سوى وغد أزعراً وراء كل هذه التصرفات اللبقة!

ـ أين جورج؟

ـ في مكان بعيد. لقد مر بي، وأخبرني أنه ذاهب للتخييم شمالاً. لم أسمع عنه شيء.

ـ ما الذي يجري في الجهة الأخرى؟

ـ لا تزال الغربية تحت الحصار. قد يستسلم الفلسطينيون قريباً.

ـ آه.. كدت أنسى.. قالت لي نهلا إن شابين قد سألا عنك في محل جوليا.

ـ أوصفت لكِ شكلهما؟

ـ لا، ليس بدقة. قالت فقط إنهما يافعان، وإن أحدهما أنفه مكسور.

استيقظت في منتصف الليل أتعرَّق وأئن من الألم.

فُتِح الباب، ودخلت نبيلة بيدها مصباح يدوي.

ـ أنا نبيلة يا بسام، يبدو أنك ترى كابوساً. انظر كيف تتعرق.

داعبت وجهي بلطفٍ، وقالت:

ـ انظر ماذا فعل بك أولئك السفلة. انظري، يا أم النور!

لامست وجهي وقبلت وجنتي، ووضعت يديها خلف كتفيّ. مرَّرت يدي على فخذها، ولم تقاوم. بحثت عن شفتيها، فقبّلتني وراحت تتنفس بصوتٍ أعلى. وانسلَّت يدي إلى نهدها ولم تقاومني. مررت يدي فوق نهديها بسرعةٍ، وكذلك شفتيّ، وكأنني كلب جائع. وتلاحقت أنفاسها، وهي تهمس:

ـ مهلاً، مهلاً، مهلاً يا صغيري، احرص على كدماتك. لا تؤذِ نفسك.

ردَّدت ذلك ببطءٍ، بصوتٍ يفيض أمومة. شددتها من قميص النوم وتركت شفتي تهيمان على حلمتيها الكبيرتين المستديرتين. أمسكَتْ برأسي وداعبَتْ شعري. شددتها فاستلقت قربي، وأنا أنشب بلحمها كجروٍ جائع. ربَّتت بلطفٍ على جراحي ولعقْتها كمن يستخدم الطب البدائي. انفرجت فخذاها المفعمتان بالشهوة وغطست في محيطهما، فأمسكت برأسي وداعبت شعري وأوصلتني إلى رعشة جماعٍ طفولية.

سمعت صباح اليوم التالي صوت قرقعة الأواني والصحون في المطبخ، بينما انضم راديو نبيلة إلى كل راديوات الحي في كورسٍ موحَّد يردّد الأخبار السيئة.

قبعت في سريري عارياً، متردداً وخجلاً. اضطررت أخيراً إلى استخدام الحمام.

سَمِعت نبيلة صوت تدفق مياه المرحاض وسألتني إن كنت أود ارتشاف القهوة. تمتمت شيئاً وتوجَّهت إلى غرفتي. فتحت

نبيلة الباب، واقتربت مني وهي ترتدي برنس الحمام، وجلست على حافة السرير قائلةً:

- عليك أن تعود إلى منزلك يا بسام. دعني أرَ عينيك. تحتاج إلى ضمادةٍ جديدة. ارتد ثيابك، واعمل لتحصل على جواز سفر... امضِ فلا شيء هنا في هذا المكان، امض... جىء بصور شمسية لجواز السفر... مالُك في الدرج... وتناول الطعام قبل ذهابك. لقد غسلت لك الثياب.

غابت عن ناظري، ثم عادت ومعها ورقة. أمسكت يدي وفتحت راحتي، ثم وضعت الورقة داخلها، وأطبقت أصابعي قائلةً:

- أبقها معك. وإن وصلت يوماً إلى فرنسا أو أوروبا، فاذهب لرؤية هذا الرجل. إنه والد جورج. لم ترد أختي التعاطي معه لأنها كانت محرجة. كانت عنيدةً وأبيةً، لكنها ارتكبت خطأً في شبابها. لم تحتج إلى أحدٍ قط...

ذرفت نبيلة دمعةً واحدة، فقط دمعةً مالحة طويلة أزالتها بلسانها قبل أن تصل إلى طرف شفتها. نظرت في عينيّ وقالت:

- أريدك أن تقابله من أجلك ومن أجل جورج. اسمه ونمرة هاتفه مدوّنان هنا. وإن لم تجده على هذه النمرة، لاحقه حتى تعثر عليه أينما كان. عدني بذلك. عدني بأنك ستقوم بذلك.

أومأت برأسي، ووعدتها دون أن أتفوّه بكلمة.

خلال بعد الظهر، نزلت الدرج ومنه إلى الشارع، قاصداً

منزلي. وجدت هناك كل أدراجي مفرغة، بعض الزهريات محطمة، ثيابي مرمية على الأرض.

اتصلت بجوزيف شيبان. أخبرني بضرورة لقائنا في تلك الليلة عند زاوية شارع، خارج الحيّ.

ـ سأمرّ بك وأقلّك.

انتظرت، مر بي جوزيف وأقلني كما قال. شعرت بأنه لا يريد أن يرانا أحد معاً، لذا استفسرت عن الأمر.

ـ ليس الأمر شخصياً يا بسام. أنت تعرف الأمور في المجالس. ما إن يضعوك في دائرة الاتهام حتى يمسي أصدقاؤك كلهم مراقبين.

مضينا خارج المدينة، وتوجَّهنا إلى الجبال العالية، حيث أوقفنا السيارة، وترجّلنا للتنزه.

قلت:

ـ أحتاج إلى مسدس.

ـ اسمعني يا بسام، يفضّل ألا تحمل مسدس في الوقت الحالي.

ـ هناك من يلاحقني. أحتاج إليه سريعاً، وبإمكاني أن أدفع.

ـ سأرى ما بوسعي فعله.

عدنا إلى المدينة. وحين ترجَّلت من السيارة ناداني جوزيف مجدَّداً قائلاً:

- لن أطرح الكثير من الأسئلة يا بسام، لكنني واثق بأنك لم تقتل ذلك الرجل العجوز.

- من فعل ذلك؟

لم يجبني. وعوضاً عن ذلك ضغط على دواسة البنزين وقاد مبتعداً.

في الليالي التالية توجهت إلى سطح المبنى المقابل حيث افترشت الأرض والتحفت السماء.

استطعت من السطح رؤية بيروت الغربية تحترق. وعلى مدى أيام، قصف الإسرائيليون السكان فتوهّجت سماء الليل باللون البرتقالي، بينما كان رصاص الرشاشات ينطلق الأرض كالأسهم الحمراء إلى الهواء الطلق. احترقت المدينة، وغرقت في صفارات الإنذار والدم المدويّ والموت.

في صباح أحد الأيام، بعث إلي جوزيف بإشارة تفيد برغبته في لقائي.

التقينا، وسلّمني مسدساً فأنقدته المال. سألته إن كان باستطاعته مساعدتي على تنفيذ عملية. اعترفت له بأنني سأغادر بيروت، وأن لديّ فكرة لآخر عملية تدرّ علينا المزيد من المال.

- أي نوعٍ من العمليات؟

- سرقة الكازينو.

- مجنون. إنك مجنون. لست واثقاً يا بسام، فالأمر محفوف بالخطر. أتريدنا أن نعبث مع المجالس؟

ـ أجل أعرف أن الأمر خطِر. لكن ماذا فعلت لك المجالس يا جوزيف؟ رأيتك عند الحواجز لأسابيع. خاطرت بحياتك وها أنت ترى كل القادة يمتلكون سياراتٍ رياضيّة وشاليهات ويزيدون رصيدهم في المصارف. وأنت.. لا تكاد تستطيع تأمين القوت لوالدتك وأختك الصغيرة وأخوتك. فكر يا جوزيف، سوف تنتهي الحرب يوماً، وتراهم يتجوّلون بالملابس «الأرماني». ونحن ماذا يكون لدينا؟ أوتظنهم سيقولون، آه أجل كان ذاك محارباً جيداً ناضل من أجل القضية المسيحية؟ فكر في الأمر، نستطيع كلانا الحصول على مبلغٍ دسم من المال.

لازم جوزيف الصمت.

سألته:

ـ هل تعرف الاسم الحقيقيّ لرجلٍ يدعى رامبو؟ يقود سيارة B.M.W. سوداء اللون، وعلى وجهه ندبة طويلة تمتد من عينه حتى ذقنه.

ـ نعم أعرف رامبو. إنه «عرص».

ـ أريد أن أعرف أين يقيم.

ـ وليد سكاف يعرفه جيداً. أخبرني أنه دعيَ يوماً لحضور حفلةٍ في «فقرا» الجبلية في «شاليه» رامبو. لقد صادر هذا الشاليه من عائلة مسلمةٍ لاذت بالفرار.

بمرور الأيام، بدأت جراحي تلتئم. وعادت عضلاتي إلى سابق عهدها. صرت أمشي من دون ألم. وتخلص أنفي مما

تبقى من ماء. خرجت بقايا الفقاقيع التي استوطنت فمي منذ أن غطّس رامبو رأسي كالغواصة داخل أحواض البورسلان الأبيض البيضاء الملطخ بالأصفر، وتبخّرت تلك الفقاقيع مدويةً كالكلمات. فقرّرت العودة إلى عملي القديم في المرفأ. وصلت وتوجه نحوي الحارس قائلاً إن أبا طارق يود رؤيتي.

ذهبت إلى مكتب أبي طارق وقرعت الباب. وجدته يواجه فرناً نحاسياً صغيراً ويحضّر القهوة. استدار نحوي قليلاً، وأشار إلي بالدخول، وصب لي القهوة. جلست قبالته على مكتبه.

ـ أين كنت؟

ـ كنت موقوفاً.

أومأ وأضاف:

ـ أجل سمعتُ. ما الذي جرى؟

ـ أطلق أحدهم النار على أحدهم في الحي، فجرّوني إلى المجالس.

ـ أتعرف؟ لقد أتى رجال أبي نهرا وطرحوا أسئلة بشأنك. أرادوا تفتيش صندوقك، لكنني منعتهم قائلاً: لن يفتّش أحد أيّ شيءٍ هنا. دخلوا وتصرّفوا كما لو أن المكان ملكهم. قلت: إياكم أن يعبث أحدكم معي هنا فلست أعمل لحسابكم. وأنا لا أتلقى الأوامر، إلا من القائد الأعلى الريّس.

صقل أبو طارق شاربيه، ثم أكمل حديثه بلهجته الشمالية.

ـ قلت لهم: عليكم برمي أسلحتكم عند البوابة حين تدخلون وإلا لن أدعكم تدخلون ثانية. لكن ذلك لم يعجبهم. اسمع أنت عامل كادح. ولو أنك حقاً أقدمت على ما يتهمونك به لما عدت إلى هنا لتكسب رزقك، صح؟

أومأت له.

ـ أبرحوك ضرباً، قطاع الطرق أولئك، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ ليلة غد ترسو باخرة إيطالية. سوف نكون في حاجة إليك لبضعة أيامٍ بعدها، فكن حاضراً. أما الليلة فالعمل خفيف، عد إلى منزلك وارتح.

عدت في المساء التالي إلى المرفأ وعملت. صعدت إلى سطح الباخرة وقت استراحتي، وبحثت عن القبطان. كان القبطان أشرف، وهو مصريّ، يتناول الطعام في المطبخ.

جلست وقلت له:

ـ أنا أعمل هنا في المرفأ.

نظر إليّ وقال:

ـ حقّاً؟

ـ أريد الرحيل قريباً.

ـ ألديك فيزا؟

ـ ما وجهة باخرتك؟

ـ وجهتها مارساي. هل تملك فيزا إلى فرنسا؟

ـ لا.

ـ لا أستطيع السماح لك بذلك.

ـ وكيف نستطيع تسوية الأمر؟

لزم الصمت وتناول المزيد من الطعام، وسأل أخيراً:

ـ أيدفعون لك مالاً وفيراً هنا؟

ـ أملك مالاً.

ـ ثمانمئة دولار.

ـ معي ستمئة.

لم يجب القبطان، بل وقف على مهل واستعدّ للمغادرة.

ـ أستطيع إعطاءك سبعمئة، مبقياً مئتين لأواجه مصيري، حين أصل إلى هناك.

ـ سنغادر نهار الأحد. توكّل على الله، واجلب معك سترة سميكة، فالجوّ يبرد هنا أثناء الليل.

١٤

كنت مستلقياً على سريري منتصف الليل، حين قرع أحدهم بابي.

كانت جارتي تبكي وتصرخ:

ـ قتلوه. قتلوا الريّس.

اغتيل أعلى قائد للقوات المسيحية اللبنانية خلال زيارته لأحد مجمّعات حزبه السياسي. كان في الداخل يلتقي أحد مسانديه حين انفجرت قنبلة وهدَّمت المبنى بأسره. في تلك الأثناء، استسلم الفلسطينيون واليساريون للقوات الإسرائيلية في بيروت الغربية. شاركت في مراسم دفن الرئيس عبر الراديو الذي ذاع أيضاً خبر انسحاب القوات الفلسطينية من لبنان إلى تونس.

اتّشحت نسوة الشرقية قاطبة بالسواد، وذرفن الدموع. اتّصلت بي نبيلة لتؤكّد لي أنها حلمت بالأمر نفسه الليلة الماضية، وأنها تناولت حبوب الفاليوم، إثر إحباطها جرّاء أخبار الاغتيال. قالت لي إنها تكلّمت مع جورج الذي أخبرها بأنهم ألقوا القبض على مشتبه به، يدعى الطاحونة، أو شيئاً كهذا، وهو عضوٌ في

الحزب السوري القومي، كما عثروا في منزله على رسوم هندسيةٍ لأساس المبنى المهدّم.

وافق جوزيف أخيراً على خطة سرقة المال التي اقترحتها عليه. فرحت أراقب الكازينو على مدى أيام: يأتي جابيا المال التابعان للميليشيا كل أمسيةٍ يركبان سيارة مدنية بملابس مدنية. قطعت الطريق، حين دخلا صالة البوكر وألقيت نظرةً على سيارتهما لأتأكد إن كانا يحملان أسلحة غير التي يضعانها على خصريهما. خرجا، فتبعت سيارتهما من بعيد وحفظت طريقهما، فهُما يتوقفان عند صالة بوكر أخرى، ثم يتوجهان مباشرة إلى المجالس، متَّخذين طريقاً فرعية طويلة غير معبَّدة توصلهم إلى المقر.

انتظرنا أنا وجوزيف في اليوم التالي شريك نجيب في لعب البوكر، حتى يعود إلى المنزل.

صعد جوزيف إلى سطح بنايته، بينما انتظرت أنا في الشارع.

بعد قليل رأينا الشاب يوقف سيارته ويصعد الدرج. صفّرت واضعاً إصبعي في فمي، فنزل جوزيف على الدرج يسعل ويغطّي وجهه بمنديل أبيض. تظاهر بأنه يسعل حين مر بالقرب منه وضربه على وجهه.

طرت على الدرج حاملاً معي شريطاً سميكاً وقبل أن يتمكن شريك نجيب من إصدار أي صوتٍ، أقحم جوزيف منديله في فمه، وقيّدتُ يديه وكاحليه، ثم رمينا به على سطح مبناه وأخذت

مفاتيح سيارته. انطلقنا بسرعةٍ نحو منزل جوزيف الذي صعد إلى شقّته وأحضر الكلاشنكوف وأسلحة سواه.

قدت أنا وملأ جوزيف مخازن الأسلحة بالرصاص، ثم تفقد سلاحه وسلاحي. توقفنا عند حانة البوكر ورأينا الجابيين يدخلان. انطلقنا نحو الطريق غير المرصوفة التي تؤدي إلى المجالس. وفتحت هناك غطاء محرك السيارة وقطعت الطريق. وقفت وراء الغطاء المفتوح وحين رأيت سيارة الجابيين وضعت جورباً على رأسي بينما اختبأ جوزيف في الخندق.

أوقف الجابيان سيارتهما، وتوجَّها إلى سيارتنا وهما يشتمان، فركض جوزيف خلفهما حاملاً الكلاشينكوف.

ظهرت من وراء الغطاء شاهراً مسدسين في وجهيهما وصحتُ:

ـ على الأرض يا «أخوات الشرموطة»، على الأرض.

ردّد جوزيف ورائي:

ـ على الأرض قبل أن أفرغ الرصاصات في جسديكما.

رفع الرجلان أيديهم، ثم انبطحا على بطنيهما. وضعت قدمي على عنق أحدهما، وسحبتُ سلاحه، بينما فتش جوزيف الآخر.

قيّدنا أيديهما بالشريط، وتركناهما قرب السيارة المفتوحة الغطاء. قدت سيارتهما التي تحوي على المال بدلاً من سيارتنا. عكست اتجاهها وقدت في الطريق التي أتيا منها، وتوقفنا في طريقنا عند مصنعٍ قديمٍ. تركنا السيارة هناك، بعد أن أخذنا المال

من الأكياس. وأفرغنا كل شيء في فان توزيع كنا قد أوقفناه هناك خلال النهار، وتوجّهنا نحو الجبال.

توقفنا أخيراً. أحصيت المال، وقسمته مناصفة.

قلت له:

- ثمة باخرة ستغادر إلى فرنسا غداً، سأركبها. خذ، اذهب لرؤية نبيلة. تعرفها أليس كذلك؟

- خالة دي نيرو؟

- نعم.

- أعطها مفاتيح شقتي، واطلب إليها أن تهتم بها. قل لها إنني سأبحث عن الشخص الذي أعطتني اسمه، وسأفي بوعدي. هيا الآن أنزلني عند التقاطع أسفل الهضبة. سأركب سيارة أجرة. يفضل أن يسلك كل منا طريقاً.

تبادلنا القبل وافترقنا.

- مجنون. لن أنساك أبداً يا مجنون!

صاح ذلك وابتعد.

ركبت سيارة أجرة، وتوجَّهت نحو الجبال قاصداً فقرا. توقفت وسط القرية، وملأت تنكةً بماءٍ من الجدول الصغير الذي يخرّ ليلاً تحت أكواخ القرويين، وتسلّلت عبر الشجر الكثيف، وابتعدت نحو أعلى التلال. توقفت أخيراً وسكبت الماء على الأرض مكوِّناً بركةً من الوحل، لطخت به وجهي ويديّ. مشيت

الليل بطوله عبر منازل القرية بحثاً عن سيارة الـ B.M.W ذات الزجاج الداكن. اختبأت وراء المنازل حين نبح الكلاب، ثم عبرت الأزقة المعتمة ما بين الشاليهات. فتشت المنطقة بأكملها، لكنني لم أجد أثراً للسيارة. في الصباح الباكر، جلست في أعلى التل ورحت أراقب السيارات العابرة.

رأيت سيارة B.M.W تسرع نحو أعلى التل. بدا سائقها ثملاً، يقودها في خطٍّ متعرّج، كأنه حمار يصعد التل.

ركضت وراء السيارة مبعداً بيدي الأغصان المتدلية. قطعت الدرج الحجري وانتظرت توقف السيارة. فتح رجلٌ الباب وترجل منها ببطء. كان رامبو.

توجهت نحوه. وحين سمع وقع قدميّ التفت إلى الوراء وشهر مسدسه بحركةٍ بطيئة. توقفت ولمحت وجهه فراح قلبي يخفق دقات موتٍ وطبول. شعرت أن علي المشي الليل بطوله مجدداً، وسحق كل فراش يغريني بالنوم. تصبّبت جبهتي عرقاً، بلّل وجهي وكأنه دلوٍ من الماء البارد، ومر نسيم الصباح الجليدي محملاً بعطر الياسمين. خفقت الفراشات بأجنحتها العملاقة جاعلةً ضباب الجبال يرتفع من الأودية، ورفرفة جفوني. مددت يدي إلى الأمام وضغطت على الزناد بسبابتي وأطلقت عليه النار. ابتسم وأنا أُفرغ مخزن مسدسي، فتطايرت الرصاصات لتغوص داخل لحمه الذي يفوح منه العطر، وصدرت نهداته الأخيرة مفعمة بالويسكي، وبدت أصابعه متشبثة بمقبض باب سيارته. ترافق صوت طلقاتي عبر الوادي السحيق، مع قرع

الأجراس وطلقات النار الصادرة من بندقيات الصيادين في شمس الصباح. ظلّلت أطلق عليه حتى وقع على الأرض، وإلى أن مر الضباب السميك ليخطف معه آخر أنفاسه.

فتشت رامبو بحثاً عن مفاتيح سيارته. وجدتها تحت جسده. لمست سترته الجلدية وقميصه الحريري الأبيض الذي استحال بنياً ممزوجاً بالدم والتراب الأحمر. شاهدتني عيناه للمرة الأخيرة، ورأيت صورتي تغرق في بؤبؤي عينيه الحالكين، فدب الذعر بي.

تناولت المفاتيح، وقدت السيارة عبر المنحدرات. توقفت إلى جانب الطريق، وترجلت منها لأتقيأ عند حافة الجرف، وأنا جاثٍ على ركبتي ورأسي منحنٍ نحو الأرض. كانت الباخرة ستغادر تلك الليلة. وضبت بعضاً من ثيابي، واصطحبت جواز سفري وأموالي، ونزلت الدرج للمرة الأخيرة بعد عودتي إلى المنزل. كانت نسوة المبنى يسكبن المياه على الدرج الرخامي، ذلك أن المياه عادت ذلك النهار، وكانت على الأسطح تتدفق من الحنفيات، لتصعد النسوة بدلاءٍ تملؤها وتهبط بها.

نظرت بعضهنّ إليّ، وأحجبت أخريات. عرفت ما الذي جال في فكرهنّ، فأنا أعرف من منهن كانت غائبة بيديها ودلوها مشيت على رؤوس أصابعي فوق جدول صغير من الماء والصابون، ومضيت مسرعاً دون أن أخطابهن بكلمة. فلم أمسح معهنّ ولم أحمّل معهنّ، بل وطئت الماء بحثاً عن البحر.

مشيت في الشارع، وفكرت في أن شيئاً لا يتغير هنا. هذه

النوافذ ستبقى إلى الأبد. وسوف يتزايد عدد السيارات التي ستصطف وتنمو كالنباتات، كأشجار الرصيف الملونة. لم ألتفت حولي ولم ألقِ التحية على أحد، ولم أبكِ. كنت أغادر فقط.

مرت بي سيارةٌ، ثم توقفت وعادت. كان دي نيرو الذي يقود، وطلب إليَّ الصعود.

قلت له إنني على ما يرام، ولا بد لي من الذهاب إلى العمل.

لكنه أصرّ:

ـ سأوصلك. علينا التكلم.

كانت عيناه حمراوين، من احتساء الخمر أو تعاطي المخدِّرات. ربما لم يستطع النوم بسبب ضوضاء الرصاص ووقع الجزم الحربية.

طلبت إليه أن يمضي ويدعني، لكنه ترجَّل من السيارة، وأمسك بي وقبّلني على جبيني قائلاً:

ـ أنت أخي.

مشى بي إلى الجانب الآخر من السيارة، وأجلسني على المقعد المجاور لمقعده، وعاد إلى مكانه. كان طوال الطريق يلامس مقود السيارة براحة يده ويلف راحة اليد الأخرى على عنقي ووجهي، الراحة نفسها التي وضعتني في سيارته.

قاد بسرعة ولم يتوقف أو يدوس على المكابح. كان ينظر

إليّ، يبتسم تارةً ويوشك على البكاء تارةً أخرى. لزم الصمت إلى أن قطعنا الكرنتينا ثم التفّ بالسيارة نحو الطريق العام الذي ينتهي عند أسفل الجسر، ليسرع مجدداً يغيِّر ناقل الحركة في السيارة ويجعلها ترج. أبطأ قليلاً تحت الجسر، حيث أوقف السيارة وراء الأساس الإسمنتي. كانت مياه المجارير التي حملت معها خطايانا الجماعية تندفع على مقربة.

بقينا صامتَيْن نواجه كومةً كبيرةً من الرمل والحجارة والبناء غير المنجز. وكان مسدس جورج مرميّاً على المقعد بيننا.

راح جورج يضحك ولم يستطع حتى النظر في عينيّ. أخرج سيجارتين، أشعلهما وأعطاني إحداهما.

كان دمٌ جديدٌ يلطّخ بنطلونه العسكري. وكادت بقعةٌ سوداءٌ كبيرةٌ منه تلمع وتبرق.

رآني أنظر إلى البقعة، فأخذ زجاجة ويسكي وشرب قليلاً. عرض علي الشرب، لكنني رفضت.

قال أخيراً:

ـ لقد قتلت اليوم.

أومأت برأسي بلا دهشة. فقال، وهو يعبث بمسدسه:

ـ قتلت الكثير، الكثير.

أومأت برأسي مجدداً، ولزمت الصمت لوقتٍ أطول، ثم قلت:

ـ عليّ الذهاب.

فلم أعد مهتماً بسماع أصوات المذابح أو وقع الكعوب الغليظة، أو فرقعة الألعاب النارية. لم أستطع سماع سوى الأمواج وهي تتكسر عند الجسر لتثب على زجاج السيارة الأمامي وتحط عند قدميّ.

أخرج جورج أنبوباً واصطاد بأنفه الذرار ليتنشّقه. مرّر راحته على أنفه ثم نظر إليه في المرآة. استدار إليّ وابتسم متمتماً:

ـ عشرة آلاف. عشرة آلاف أو أكثر. لا بد أننا قتلنا عشرة آلافٍ منهم.

ـ ممَّن؟

ـ من الأولاد والنسوة، حتى أننا قتلنا الحمار.

وضحك.

سألته بلين:

ـ ما الذي جرى يا جورج؟

حمل المسدس وصوّبه نحو الزجاج الأمامي ثم نظر إليه مطلقاً ضحكةً مكبوتة.

ـ تكلّم. فأنت لم تأتِ بي إلى هنا إلا لتتكلم.

ـ سأخبرك بكل شيء. سأخبرك بكل شيء.. هاجمنا مخيماً فلسطينياً وقتلنا بالمئات وربما وبآلاف.

ـ متى؟

ـ عليّ الذهاب.

فلم أعد مهتماً بسماع أصوات المذابح أو وقع الكعوب الغليظة، أو فرقعة الألعاب النارية. لم أستطع سماع سوى الأمواج وهي تتكسر عند الجسر لتثب على زجاج السيارة الأمامي وتحط عند قدميّ.

أخرج جورج أنبوباً واصطاد بأنفه الذرار ليتنشّقه. مرّر راحته على أنفه ثم نظر إليه في المرآة. استدار إليّ وابتسم متمتماً:

ـ عشرة آلاف. عشرة آلاف أو أكثر. لا بد أننا قتلنا عشرة آلافٍ منهم.

ـ ممَّن؟

ـ من الأولاد والنسوة، حتى أننا قتلنا الحمار.

وضحك.

سألته بلين:

ـ ما الذي جرى يا جورج؟

حمل المسدس وصوّبه نحو الزجاج الأمامي ثم نظر إليه مطلقاً ضحكةً مكبوتة.

ـ تكلّم. فأنت لم تأتِ بي إلى هنا إلا لتتكلم.

ـ سأخبرك بكل شيء. سأخبرك بكل شيء.. هاجمنا مخيماً فلسطينياً وقتلنا بالمئات وربما وبآلاف.

ـ متى؟

- في الأيام القليلة الماضية.

- كيف؟ لِم؟

- خيّمنا في مطار لبنان الدوليّ.

ردّد ضاحكاً:

- الدولي. لم ننم طوال الأسبوع الذي أعقب اغتيال الريّس. صرخ الرجال مطالبين بالانتقام. أتى جنديّ إسرائيلي يدعى إيتان برفقة أبي نهرا، وقال إن المخيمات الفلسطينية لا تزال فيها بؤر مسلَّحة بعد الاستسلام. فقال أبو نهرا إن علينا تطهير هذه المخيمات.

ضحك جورج وحمل المسدس ولقّمه، وأكمل:

- دي نيرو ممثلٌ رائع بحق. أتذكر يا بسام أحد مشاهد ذلك الفيلم، حين قام بخداع صديقه المقرب؟ أنت صديقي المقرب وأخي، أنت كذلك.

حاول معانقتي، لكنني دفعته بعيداً عني.

- كنّا خمسمئة أسد متمركزين في المطار. لم يستطع شيء إيقافنا. لا شيء. تقدمنا كالرعد نحو مخيمات اللاجئين في صبرا وشاتيلا على طول طريق الأوزاعي العريضة. مررنا بالقرب من مجمع هنري شهاب الحربي وانضمّت إلينا وحدات إضافية من جيش الجنوب، رجال قادمون من قرىً كالدامور والسعديات والناعمة. لم ينسَ أولئك الرجال قراهم المحروقة قط، وكانوا

أسوداً مثلنا. نظر إلي أحدهم وهو رجل أكبر سناً وقال: انتظرنا مطولاً من أجل هذا. لذلك قتلنا وقتلنا! أطلقنا النار على الناس عشوائياً وقتلنا عائلاتٍ بأكملها على موائد الطعام مخلفين جثثاً في ثياب النوم وأعناقاً مشروطةً وأيادي منفصلة عن الأجساد ونسوة مقطّعاتٍ تصفين بالفؤوس. حاصر الإسرائيليون المخيمات. ثم قام ملازم إسرائيلي يدعى رولي، كان متمركزاً قرب بير حسن قبالة الاستاد، ببعث رسالةٍ إلى لجنة المخيّم يطلب فيها أن يجلب جميع رجالنا الأسلحة إلى الاستاد. فأجبناه بأننا لا نتلقى الأوامر منه، بل من أبي نهرا فقط، وأن القائد الإسرائيلي الأعلى على علمٍ بالأمر. تقدَّمنا أكثر فقامت طائرة حربية إسرائيلية بإسقاط قنابلٍ مضيئة بعيار ٨١ مم، مضيئةً المنطقة بأسرها وكأننا في فيلمٍ هوليوودي، وأنا دي نيرو أشارك في الفيلم. اشرب!

صاح فجأةً:

ـ هيا اشرب!

إلا أنني أبعدت الزجاجة عن وجهي.

شرب، ثم تكلم مجدداً:

ـ كان كل شيءٍ مضاء باللون الأبيض الباهر، وكانت الرؤية واضحة للغاية وكأننا في ضوء النهار. أنيرت السماء كأن المسيح بلحمه ودمه قد ظهر. كانت الوحدات الجنوبية قد سبق أن دخلت المخيم. وطارد بعض رجالنا المصابين إلى مستشفى عكّا ليجهزوا عليهم. سمعنا صراخ امرأةٍ حين وصلنا إلى هناك: كان

ثلاثة رجالٍ يغتصبون ممرضةً على طاولة طبيب. بدأ طبيب آسيوي يضع صورة عرفات في مكتبه يتكلم معي بالإنكليزية، فقلت له:

- إرهابي! أنت إرهابي وتملك صورة إرهابيٍّ معلقة على الجدار.

تكلم بالإنكليزية مجدداً، فضربته بطرف مسدسي.

شرب دي نيرو المزيد وأردف:

- في العراء جثث تمرَّغت بالتراب وانتفخت. وتحوّل الدم إلى بقعٍ داكنة يقتات عليها الذباب الأخضر. أما الجرافات فحفرت، وأقحمت الجثث بحفرٍ في الأرض. بدا كل شيء كأنه مشهد من فيلم. وكأنه مشهدٌ من فيلم: فقد تناثر الأموات في كل مكان. أتود سماع المزيد؟ أتود سماع المزيد؟ المزيد؟

صاح بي:

- هيا اشرب!

لقَّم مسدسه، وشهره في وجهي وقال:

- اشرب.

أخذت الزجاجة وارتشفت القليل.

- ما اسم والدي؟

- لا أعرف.

- بلى تعرف، أنت كاذب. أنت تتكلم مع نبيلة وتزورها في غيابي. لقد رأيتك. أتود سماع المزيد؟ خذ اشرب المزيد. أجل

تود سماع المزيد، وأريد إكمال قصتي. ربطنا رجالاً معاً بالحبل، وأطلقنا النيران على رؤوسهم، الواحد تلو الآخر. وانتشلت الكلاب أوصال الجثث، وهربت بها خلف الأودية الصغيرة. كان سوري لعينٌ يجرّ عربته ويبيع الخضر عليها. سألته عن جنسيته فأجاب بأنه سوري! سوريون لعينون! أتوا جميعاً إلى هنا للاستيلاء على أرضنا! فركلت عربة الخضر، ولم يضع أبو حديد الوقت، إذ أطلق النار على معدة السوري. قلت: فليقف الجميع بمحاذاة الجدار. فراحت النسوة يصرخن ويتوسلن قائلات: بأنهم قد سبق أن استسلموا. أمسك كميل بشعر إحداهن وطرحها أرضاً، وداس عنقها. صرختُ بهن: لا أريد سماع أي صوتٍ هنا. فليذهب الجميع إلى الإستاد. ضحك بعض أولئك المحاربين في طريقنا إلى هناك، وألقوا قنابل يدويةً وسط الحشود.

بعد أن أطلعني على هذا، سكن جورج لبعض الوقت. وغدا أشد سُكراً، فقد كان يتكلم ثمّ يحدق إلى الفراغ. شرب المزيد ثم تمتم. تمتم شيئاً عن والدته وعن قتله لها. بدأ يهذي. وفجأةً ارتسمت معالم الحزن على وجهه. ظننت أن التعب نال منه، فحاولت سحب المسدس من يده، ولكن ما إن لمسته حتى وثب في مكانه وهدَّدني بالقتل. وظننت بأنه قد يفعلها.

ـ قتلت والدتي. لقد قتلتها.

قال هذا وانفجر بالبكاء.

ـ ماتت والدتك في المستشفى جراء إصابتها بالسرطان.

فصاح:

ـ نخب الريّس!

ودفع الزجاجة وشرب المزيد.

قلت:

ـ عليّ الذهاب.

ـ لن يذهب أحدٌ إلى أيّ مكان. ليس قبل انتهائي من الكلام. استمع إلى ما حدث هناك في ذاك المخيم. اسمع! كان لدى كميل مخدرات، تعاطيناه وصحنا: نخب الريّس! جعلنا المزيد من الرجال يقفون بمحاذاة الجدار، والنسوة والأطفال بمحاذاة جدار آخر. قتلنا الرجال جميعهم أولاً فراحت النسوة والأطفال ينتحبون، بدَّلنا المخازن وأطلقنا النار عليهم أيضاً. صراخهم وبكاؤهم هما اللذان حرَّضاني. فأنا أكره بكاء الأطفال. أنا لا أبكي أبداً. أرأيتني أبكي يوماً؟ ومن جاء بعدهم أصيب بالذعر لرؤيته الجثث الملقاة على الأرض. بال بعضهم في ثيابه، ورأيت ثلاثةً يهربون من الخلف فطاردناهم في الأزقة الضيقة. انفصلت عن البقية وأضعت الجميع. وأمسيت وحيداً. كسرت الأبواب ودخلت منزلاً فرأيت امرأةً على الأرض محاطةً بجثث بناتها. نظرت في وجهي، فقلت:

ـ تودّين الانضمام إلى عائلتكِ، أليس كذلك؟

ـ أكمل ما بدأته يا بني.

قال جورج:

ـ بني! بني!

وضحك.

ـ لكزتها بطرف بندقيتي مراتٍ ومرّات، هكذا (وراح يلطم الهواء بمسدسه) فتدفق الدم من رأسها كالشلال وانسكب على فخذيّ. همت في الأزقة وحيداً. رأيت امراةً تكمم أولادها بيديها... كانوا يبكون. فاضت المنازل بجثث نسوة ذبيحات في مآزرهن، وجثث رجالٍ ملقاةٍ بالقرب من زوجاتهم وبناتهم المغتصبات. ثم توقفت. لن تصدق ذلك فقد سمعت هديل طائر، يشبه هديل الطائر الذي اصطدناه في الجبال، أنا وأنت يا بسام. أنا وأنت. طاردته عبر الجدران الضيقة فهرب ولحقت به. قفز فوق جثثٍ مغمورةٍ بجداول من مياه الطبخ. رأيته يطير فوق أشجار الزيتون وفوق التلال، ثم توقف وحطَّ على جثة رجلٍ ميت. رأيت يد رجلٍ ميتٍ تداعب ريشه.

صاح جورج:

ـ لقد رأيت ذلك!

وعبّ المزيد.

ـ طاردته مجدداً فدخل كوخاً. ركضت داخله ورأيته ينسلّ تحت سرير. رفعت الشرشف فرأيت ولدين صغيرين متقوقعين في خوفٍ تحت، وكانت جثة والدتهما ملقاة في الغرفة، تنظر إليهما بعينين مفتوحتين.

أضاف جورج:

ـ لم أرد إلّا اصطياد الطائر. لم أرد إلا ذلك.

ثم قبع ساكناً صامتاً. سحب مسدسه وأفرغ منه رصاصتين، ثم لقَّمه مجدداً، وقال لي:

ـ ثلاثة من أصل خمسة. اللعبة قائمة، خذ.

رفضت ذلك، وحاولت سحب المسدس من يده، لكنه نعتني بالجبان.

ـ لستَ برجل، لذلك كانت امرأتك تبحث عن رجل.

صوّب المسدس إلى رأسي وقال ساخراً:

ـ جبان!

ـ أنت الجبان الوحيد هنا.

نظر في عينيّ ثم قال:

ـ ستغادر. ها هي حقيبتك. تظن أن عليك الرحيل. انظر إلى وجهك المجروح والندبة في عينيك.

ـ إنها من رئيسك. إنها هدية وداعه لي. لقد قتلتَ، أعرف ذلك فقد قتلت ذاك الرجل العجوز وزوجته. لطالما قتلت.

ـ لطالما قتلنا يا بسام.

نظر إلى عيني مجدداً وردّد:

ـ لطالما قتلنا. اعترف الرجل الذي قتل الريّس وذكر اسمك. أنت الذي أعطيته خريطة ذاك الأساس، وأنت الذي قتلت الريّس.

ـ ألهذا أتيت؟

ـ أجل أتيت لتسليمك إلى المجالس فهم يريدونك هناك. تعرف، من أجل المزيد من الفقاقيع والصفعات.

ـ إذاً لم توجَّهت إلى هنا؟ فغرف التعذيب في ذلك الاتجاه.

ـ لا يا بسام. فغرف التعذيب قابعة داخلنا. لكنني عادل وأنت أخي. سأدعك تفلت، لقد أخذت رنا منك.

قال هذا، وصوب المسدس جاعلاً عينه تفيض بحمرة الدم وقساوة الحجر، حاجبةً معها الأرواح، ولامعةً تحت ضوء الزجاج الأماميّ.

باريس

١٥

وصلت إلى المرفأ، ورحت أبحث عن الباخرة وعن القبطان المصري.

قال:

ـ ها أنت ذا. هل جئت بالمال؟

دفعت له، وقادني إلى غرفة المحرِّك، وقال:

ـ هذا مصطفى الميكانيكي. ابق معه هنا ريثما تغادر الباخرة، ثم اصعد إلى السطح. سنغادر قريباً.

وصعد إلى السطح مجدداً.

شرع المحرك يزأر ويزمجر، وانتفخت الأنابيب وقرقعت.

ابتسم لي مصطفى سائلاً:

ـ أهي المرة الأولى لك على متن باخرة؟

ـ نعم.

فضحك وأردف:

ـ اصعد إلى الأعلى وتنشق هواءً نقيّاً، إن شعرت بالدوار،

ثم ابتسم مجدداً.

أبحرت الباخرة على مهلٍ تمخر عباب المياه.

مرّت بضع ساعاتٍ، كنت طوالها جالساً هادئاً خالي الذهن. وأردت أن أبقَ هكذا لوقتٍ طويل. صعدت أخيراً إلى السطح، وشاهدت الضوء الخفيف عند الشاطىء يتوارى خلف عتمة الليل. هرع بعض البحارة، أعلى الدرج وأسفله، ثم إلى السطح. شاهدتهم فتمسّكت بحقيبتي ومالي ومسدسي، وبسترتي التي وضعتها على ركبتيّ.

كان الهواء ساكناً، وأبحرت الباخرة بهدوءٍ من ظلمةٍ إلى ظلمة ومن مياهٍ إلى مياه، ومن يابسة إلى يابسة إلى أرض. وشاهدت الأضواء المتلألئة على الأرض تفارق الحياة ببطء. عشرة آلاف موجةٍ تهادت تحت الدبابة العائمة التي ابتعدت عن وطني.

عشرة آلاف سمكةٍ غنت تحت الأمواج، والتهمت النفايات التي رمتها يدا الطبّاخ.

نظرت إلى السماء فوجدتها ملأى بإشاراتٍ ضوئيةٍ تبعثها كواكب بعيدة تتدفق غازاتٍ ومشاعل سعيدة لجثثٍ بشريةٍ تنشد أغاني محاربين في مشهدٍ لحجارةٍ محترقة. سماءٌ ترسل إشارات مورس نحو سفنٍ يقودها قباطنة ثملون إلى جزرٍ تسكنها حوريات البحر التي تغني في الخمّارات، وتقدم أجهزتها التناسلية المالحة

التي يشبه مذاقها مذاق السمك المنقوع المقدَّم خلال الاجتماعات العائلية أيام الآحاد، بعد تحمّلها للخطابات الأخلاقية التي يلقيها الكهنة المكتنزون الذين يغرقون الرعايا ببخور أحرقته أياديهم وهم يهزّونها بحركةٍ ثابتة، بحركةٍ تتمايل كأراجيح الحدائق العامة التي تفيض عربات أطفالٍ تدفعها مربياتٌ دخلن البلد بتأشيراتٍ مؤقتةٍ ليتقاضين أجوراً ضئيلةً يرسلنها خلال أعياد الميلاد إلى عائلاتهن البعيدة التي تعيش في أكواخٍ قرب البحر الذي يتلقى إشارات مورس من تلك الكائنات القديمة في الفضاء الوهمي. تقرأ هذه الكائنات السرية الردود والرسائل الطويلة التي أرسلتها إلى عائلاتهن، المربيات اللواتي يهتممن بأولاد الموظفين الإداريين الكبار وهم يسكبون الرمل في دلاءٍ بلاستيكيةٍ ويتسلقون مكعباتٍ هندسيةٍ مرتدين «شورتات» بحارةٍ مقلمةٍ بالأحمر. كما تستطيع هذه المخلوقات تفسير رسائل بعثت بها إلى عائلاتهن ممرضاتٌ يرتدين المآزر البيضاء ويتجوَّلن في مصاعد دور العجزة ليغيّرن شراشف المسنّين، والقباطنة المتقاعدين وسيدات المجتمع الغافلات تماماً عن وجود أبنائهم الذين يرتدون بزّات من ثلاث قطع، وغير مدركات لشكاوى كنّاتهن الحادة، شكاوى أشبه بشكاوى طيور النورس التي تقتفي آثار طعوم البحارة لتقتات عليها، ثم ترتاح على السطح فترمقني بنظرات رهاب الأجانب، وتشحذ مناقيرها لتنطلق إلى كواكب أخرى على متن أجنحةٍ أسطورية.

بحث مصطفى عني. جلس قربي وقدّم إلي سيجارة.

- رأيت ركاباً يتقيّأون لأيام. أنت لا تصاب بدوار البحر فأنت مغادر.

ابتسم.

- نعم. فلا شيء لي هناك.

- نعم لا شيء، في هذه الأماكن.

دخنّا السجائر، ثم توجّه مصطفى إلى مؤخر السفينة فوق الأمواج التي تهادت تحت أقدامنا الهاربة بلا توقف. انطفأت المصابيح الصغيرة، وبقيت غرفة القبطان تشعّ وحيدةً في وسط البحر. اشتدت برودة الرياح. فنزلت إلى الأسفل، وعبرت الأزقة الضيقة لأجلس في المطبخ. نزل القبطان ببطء، وجلس هادئاً يفكِّر، ثم وقف وملأ المرجل بالماء، وقدم لي الشاي.

- لديّ مقصورة لك. تستطيع الحصول عليها بعد الساعة الحادية عشرة، فالبحار الأفريقي مامادو تبدأ نوبته عند تلك الساعة. تستطيع النوم في سريره.

ارتشفنا الشاي في صمت، ثم لحقت بالقبطان الساعة الحادية عشرة. قرع باب مقصورةٍ ففتح له رجلٌ أفريقي على مهل. فسّر له الوضع، فأومأ مامادو برأسه ولوّح بيده ودعاني لأدخل. استلقيت على السرير وحاولت النوم تحت صوت المحرك العالي. كان صوته عالياً لكنه مكتوم كأنه سلسلة إشاراتٍ يصدرها مصنع مقرقعٌ مطمورٌ تحت سابع بحر. تخيّلت مصنعاً يعمل فيه جيوش من عبيد القرود، يعلّبون سمك التونة في

عبوات من تنكٍ، ويلصقون عليها رقعاً بلغاتٍ سرّيةٍ، ويضعونها في صناديق موسيقية عازلة للماء تعزف سيمفونيات شيطانيةٍ، ويشحنونها على ظهور أحصنة البحر نحو قرىً تحت الماء تفيض بجنودٍ غرقى وخادماتٍ مخطوفاتٍ وبرابرةٍ غزاة وصائدي كنوزٍ وأميرةٍ حبسها جنيّ ذو حلقةٍ واحدةٍ داخل زجاجةٍ محكمة الإغلاق، وهي الآن تنتظر صياد سمكٍ لحل الأحجية وإعادتها إلى قصرها المفقود، حيث ستنضمّ إلى الخليفة في حديقةٍ من الياسمين والكهرمان، وتتجول عبر أقواس بغداد قبل أن يقوم جيش الغزاة بحرق كتبها المفضّلة وتدمير آلاف وآلاف الحكايا.
قرع مامادو باب المقصورة في الصباح، وتبادلنا الأماكن. ما إن وطئت بقدمي خارجاً حتى ابتسم وأخبرني أن آخر راكبٍ رفض أن يتشارك في سريره مع رجلٍ أسود، وهز رأسه وابتسم مجدداً. صعدت إلى سطح الباخرة فلم أجد سوى زرقة المياه والسماء تعانق الباخرة. هرع البحارة على طول السطح وأسفل الدرج وأعلاه. وشقّت الباخرة طريقها عبر المياه التي اندمجت مع السماء، فأمست جسداً واحداً. وجدني مصطفى على سطح الباخرة، وسألني إن أكلت فأجبته بالنفي.

نزلنا إلى المطبخ وقدم إلينا الطباخ الطعام في صحونٍ بلاستيكية. تمايل المركب وتمايلت معه الصحون بين أيدينا، واهتزّ الطعام من جهةٍ إلى أخرى في أفواهنا. كان الجميع صامتين. قطع هدير المحرّك نظرات عيون البحارة الخجولة وتصرّفاتهم الهادئة وخطواتهم المتوازنة. تكلّم بعد قليل بحار أزرق العينين مع مصطفى بلغةٍ إنكليزيةٍ مكسّرة، وأخبره شيئاً عن

المرجل في الخلف. نهض مصطفى وذهب إلى مكان الحدث على مهل. جلس الرجل مكان مصطفى وراح يتناول الطعام متجاهلاً وجودي. أنهيت طعامي وصعدت إلى السطح. كانت الريح قد ازدادت قوةً، فعبقت رائحة البحر في الباخرة بأكملها. جلست وفكرت في بيتي. حاولت تحديد وجهته لكنني وجدت نفسي ضائعاً في الأرض التي تعوم بعيداً شيئاً فشيئاً، وكأنّما التيار قد جرف معه حيّي فطافت قطعة أرضي مع حربها ووالديّ المتوفين على وجه المياه. مددت عنقي، ووقفت على رؤوس أصابعي إلا أنني لم أستطع رؤيته؛ فقد طاف حولي بعيداً عني تجرفه الأحداث المتدفقة. مِلْت على الدرابزون وشاهدت الزبد الأبيض يرتطم بأسفل الباخرة مداعباً أطرافه ومغيّراً شكله. ظهر حجل وقال لي: الظروف ليست خالدةً، ولسوف أحمل لك غصناً حين تدنو الجبال العائمة من رجليك.

زرعت سطح الباخرة جيئةً وذهاباً، بينما راحت الأمواج المتناثرة تلطِّخ وجهي بلونٍ أزرقٍ محيطيّ. وحين ارتفعت السفينة فوق موجةٍ عاليةٍ مددت يدي ولامست السماء فأنزلتها واختلست النظر، ثمّ تركْتُها مجدّداً، فوثبَت وارتعشَتْ لتعود وتستقر مكانها.

خيّم الليل مجدداً، فجلس مصطفى قربي وسألني:

ـ أترغب في القليل من الكيف؟

أومأت برأسي مبتسماً. أخرج كيساً صغيراً ولففنا الحشيش الزيتي في ورقٍ رقيقٍ قطعناه من ستارة السماء الممددة بمقصٍّ

عملاق. مرر مصطفى لسانه فوق حافة الورقة فختمها بالسائل الذي عمل كغراء النجار. مددت يدي واستللت شعلة من نجمةٍ محترقةٍ. أما مصطفى فأمسك بالريح ودكّها في صدره. ثم مرّر لي الريح والسماء والنار فجذبتها كلها نحو شفتيّ وسحبتها كالثقب الأسود، ثم أطلقتها. عامت وحطت على وجه الماء، ثم وثبت على الأمواج وجذبت سرباً من الأسماك الطائرة التي تجمّعت في حلقة داخل الدخان، وغنت ألحاناً مائيةً فوق بنفسجية للقرود المستعبدين تحت الماء، الذين رددوا بدورهم أنغاماً علت على ضجيج آلات التونة الهادرة، أنغاماً ناعمة تذكّرهم بأصوات الطيور في مواطنها المدمرة منذ الأزل، مواطنها القابعة بين الأغصان المتأرجحة.

قال مصطفى:

ـ لن تعود أبداً. يبدو أنك من النوع المتجوّل يا أخي.

فهمست:

ـ وإلامَ أعود؟

ـ لم أزل في البحار لسنوات وسنوات. غادرت مصر حين كنت شاباً، وسافرت إلى أماكن عديدة يا صديقي. ذهبت إلى اليابان ورأيت الأنوار المتلألئة، ودلّكتني نسوة صغيرات الحجم ووقفن على ظهري. وذهبت إلى أفريقيا حيث ثملت في الخمّارات. ضاجعتُ عاهراتٍ من شتى الألوان في القارات كلها. بذّرتُ أموالي في المطاعم والحانات، ودخّنت الأفيون منتشياً بأفضل الكوكايين. عملت على متون بواخر عديدةٍ، ورأيت

مومساتٍ بمقلٍ سوداء حالكة كالآبار العميقة تطلب إلي إنقاذها من براثن القواد ذوي الأسنان الذهبيّة. مشيت في مدنٍ يضع رجالها وشوم مرساةٍ على أيديهم ونسوتُها جاثمات على عتبات النوافذ ينادونك لمضاجعةٍ سريعةٍ قبل عودة أزواجهن.

دخّنا أنا ومصطفى وأخبرنا الحكايا وانزلقت الباخرة لأيامٍ فوق الأمواج التي مرت مرور الكرام من غير عودةٍ. شدّ البحارةُ الأشرعة فهبّت الرياح ونفخت ودفعت بنا شمالاً سارقةً الدخان من أنفاسنا. وحين أمست الرياح عاليةً عالية، أبطأ البحر تحرّكاته وكذلك الأمواج والأشرعة والأسماك، وحام الحجل فوق رؤوسنا تحت ملاءات السماوات الإغريقية، ورأتنا حوريات بعيونٍ واحدةٍ وتجمَّعن للاستماع إلى حكايانا الغرائبية، تسحرهن رائحة نباتاتنا المحترقة التي خلنها الشذى الذي يعبق من الآلهة الطائرة.

أقلع الحجل قبل أن نصل إلى مارساي بيومين، ليتوارى بعدها عن الأنظار.

١٦

حين وصلت الباخرة إلى المرفأ، قادتني مجموعةٌ من البحارة إلى غرفة المحرك. قبعت خلف المرجل أتعرق وأتوارى عن أنظار المفتش الذي تفقّد المقاصير. وحين غادر، هرع مامادو ومصطفى إليّ وجلبا لي الماء، وهما يضحكان على شعري وثيابي المبلّلين.

ذهبنا أنا ومصطفى في تلك الليلة إلى الشاطىء على متن قاربٍ صغير. قطعنا سياجاً وبعض السكك الحديدية، ثم ابتسم مصطفى لي قائلاً:

ـ وصلت إلى مارساي. أنت لوحدك الآن.

ومشيت.

مشيت في الشوارع المقفرة ومررتُ بمنازل تفتح أبوابها مباشرةً على حافة الطريق. نبحت بعض الكلاب حين مررت. كان ظلّي مفروشاً على الأرض، يرقص ويغيِّر شكله بحسب وضعية مصابيح الطريق التي عُلِّقت عالياً على أعمدة محنية. مرت بي سيارة، فدوّت موسيقاها العالية في أذني قبل أن

تتلاشى خلف المباني، حين قامت بانعطافٍ حادّ. أكملت طريقي أبحث عن وسط المدينة لعلّني أجد مكاناً أرتاح فيه. نظرت إلى السماء، فإذا بي أمام ضوء الفجر البنفسجيّ الذي كان قد بدأ يبزغ من وراء البحر. سمعتُ الموسيقى العالية نفسها تقترب مني مجدداً. فتعرَّفت صوت السيارة من دون أن أنظر إلى الوراء، فأمسكت بحقيبتي ونقلتها من الخلف إلى الأمام وفتحت قفلها غير المجدي لأخفي يدي بداخلها. ثم لقمتُ المسدس.

علمت أن السيارة تبطىء خلفي من امتداد أنوار السيارة على الرصيف، ومن مرورها ببطء على أبواب المنازل.

كان فيها ثلاثة أولادٍ ما انفكوا يحدّقون إلي. مدّ السائق يده خارج النافذة مثلما يفعل سائقو الأجرة في وطني. أما الآخران فغيّرا وضعية رأسيهما ليلقيا نظرةً أفضل عليّ.

سمعت أحدهم يقول:

Une merde de beur ici chez nous.(١)

ثم نادى القائد:

ـ أنت! لا نريد قذارةً مثلك هنا.

نظرت في عينيه لم أتفوّه بكلمة، ثم تابعت المسير. شتمني الأولاد ثم انطلقوا مبتعدين. عادت السيارة مجدداً بعد أن وصلت إلى آخر الشارع مُسلطة أنوارها في وجهي. وفتح الأولاد

---

(١) حثالة عربية في بلدنا.

الأبواب وخرجوا من السيارة يمشون ببطء نحوي، ولامست ظلالهم الشريرة الطويلة أطراف حذائي، وكانوا يحملون العصي والأنابيب في أياديهم. استدرت وركضت في الجهة المعاكسة مبتعداً عن أضواء السيارة التي أعمت بصري. سمعت وقع أقدامٍ تهرع خلفي ووعودٍ بتهشيم جمجمتي والدوس على جسدي.

انعطفت عند الزاوية وتوقفت في وسط الطريق الضيق بين منزلين، واستطعت سماع نباح كلاب في الأفق. انتظرت مطارديّ الذين انعطفوا عند الزاوية وتوقفوا فجأة لدى رؤيتي. أبقيت مسدسي وراء ظهري. وحين اقتربوا مني يربّتون بالعصي على راحاتهم ويطلقون ضحكاتهم الساخرة في وجهي، ويلقون النكت ويهزأون من ميولي المازوشية، شهرته في وجوههم على مهل. شتمت مطارديّ بلغتي ولوّحت بيدي متحدياً بأن رصاصاتي ستقبّل جزمهم العالية وتمرّ عبر سترهم الجلدية، وتنوّر رؤوسهم الحليقة، وتعيد رسم أوشامهم وتستعمر أرواحهم، وتفتح كحنفيات المياه جلودهم، وتجعلهم ينشدون لحن كورسٍ كنائسيّ.

هرب أبعدهم عني، وبقي الاثنان اللذان كانا يتراجعان في خوفٍ، والأنابيب في أيديهما منحنية كالأزهار العطشى نحو الأرض.

ابتسمتُ ملوّحاً بالمسدس أمام وجهيهما الشاحبين، وشتمت أمّهاتهما وأجدادهما وأمرتهما برمي أنابيبهما وعصيّهما. ثم جعلتهما يجثوان على الأرض. آنذاك أمرتهما بخلع أحذيتهما وبنطلونيهما.

وصحتُ:

- Les Pantalons aussi sharmouta![1].

نبحت الكلاب خلف الأبواب، وأُضيئت بعض الأنوار في المطابخ وفوق عتبات البيوت، وملأت وجوهٌ فضوليةٌ نوافذ مربّعة صغيرة. أزاحت نسوة يرتدين ملابس نومٍ شفافةٍ ستاراتٍ مسرحيّةٍ وأطلت رؤوسهنّ بعصبيّة كاتبٍ مسرحيّ.

ركلت كلا الولدين، ثم ركضت بعيداً حاملاً أحذيتهما بين يديّ. حين وصلت إلى الشارع الذي كنت أمشي فيه، رميت الأحذية وركضتُ عبر أزقةٍ وجادّاتٍ غريبة. ركضت حتى الفجر، إلى أن استلقيت أخيراً على مقعدٍ في المتنزّه. ورحت أستمع إلى صوت الموج، وأشاهد تغيّر الألوان السماوية البطيء.

سطع ضوء الشمس القوي بحلول الصباح، جاعلاً المدينة تستلقي تحت ظلٍّ داكن. رأيت جدراناً مانوية منفصلة وأوراق أشجارٍ متلألئة ومقاعد مظلّلة. فتحت المقاهي أبوابها وراح الناس يتجولون في المتنزّه. مشيت بمحاذاتهم وجاوزتهم، ثم أبطأت سيري لأحاذيهم مجدداً. بحثت عن مكانٍ لأصرف مالي فعثرت عليه، وقمت بما عليّ فعله، ثم توجهت إلى مقهى. جلست هناك وتناولت الطعام وشربت وتصفّحتُ جريدة، ولم يبدُ صاحب المقهى العجوز الذي وقف وراء المنضدة أنه فوجئ برؤيتي. مشيت مجدداً، ثم قررت البحث عن مكانٍ للإقامة فيه.

---

(١) البنطلونات أيضاً يا «شرموطة».

دخلت أول نزلٍ وقعت عيناي عليه. طلبت إلي امرأةٌ ضخمةُ البنية تقف وراء المكتب وتبدو غير مهتمةٍ أو ضجرةٍ، أوراقي الثبوتية. فأخبرتها بأنني سأجلبها من السيارة. خرجت ولم أعد قطّ.

عوضاً عن ذلك. تجوّلت النهار بطوله من دون هدفٍ. نظرت إلى الناس، وانتقلت من مقهىً إلى آخر. أخيراً، فتّشت في جيبي عن قداحةٍ فسحبت معها الورقة التي أعطتني إياها نبيلة. كُتبَ عليها اسم: كلود ماني، وأيضاً نمرة هاتف وكلمة «باريس» أسفلها. فجأةً أدركتُ كم أنا بعيد عن نبيلة وأنني قد تركت بيروت ورائي. لكن هذا الإدراك أعطاني في الوقت عينه حسّاً بوجود هدفٍ في حياتي. فقررتُ الاتّصال بهذه النمرة كما وعدت. وجدت كشك هاتفٍ وطلبتها. رنّ الهاتف لكن لم يجب أحد. غير أنني بقيت في الكشك على الرغم من ذلك أنظر عبر الزجاج بنظراتٍ فارغة. شعرت أن بإمكاني العيش داخل هذا الكشك وأنا أتحسّس حوافه مطالباً به لنفسي. تظاهرت بأنني أتكلم على الهاتف، ولكن جلّ ما رغبت فيه هو البقاء داخل الكشك. وددتُ البقاء هنا ومشاهدة كلّ مارّ. أردت تبرير وجودي وتشريع قدميّ الغريبتين ومشاهدة المارَّة الذين لم يكلِّفوا أنفسهم النظر إليّ أو التلويح مرحّبين حتى. لم أتعرف أحداً. لذلك انتظرتُ وألصقت السماعة على أذني واستمعت إلى النغمة الطويلة المملة. استمعت إلى أن جاء صوت امرأةٍ مسجّل ليعطيني خياراً من اثنين: إما أن أطلب النمرة مجدداً أو أغلق الهاتف.

اخترت الأول، فرد علي هذه المرة صوت نسائي ناعم، فقلت بالفرنسية.

ـ أبحث عن السيد ماني.

صمتت المرأة لبرهةٍ ثم قالت:

ـ السيد ماني متوفٍّ.

صمتنا كلانا.

ـ من أنت؟

أجبت بحذر:

ـ أنا صديق لابنه جورج.

صمتت مجدَّداً، ثم سألت:

ـ من أين تتّصل؟

ـ من مارساي.

ـ أنا زوجة السيد ماني.

لم أعرف ماذا أقول، لكنني أردفت:

ـ لديّ رسالة للسيد ماني.

ـ أأنت من لبنان؟

ـ نعم.

صمتت للمرة الأخيرة، ثم أضافت:

ـ أتستطيع القدوم إلى باريس؟ نودّ أنا وابنتي لقاءك. ركبت الباص إلى باريس، عبرتُ حقولاً من الكرمة المغروسة في صفوف. التفّت هذه الكروم حول عناقيد عنبٍ مدلاةٍ بيضاء تارة وحمراء تارة، بين أوراق خضراء. مررنا بقرى بسيطة تتكوّن أسطح منازلها من القرميد الأحمر، وكنائسها قائمة على كثبانٍ بسيطةٍ، وفيها مساحات خالية شاسعة، بدت وكأنّ هدفها الأوحد تأمين منظرٍ للفلاح الذي يمر بين الفينة والأخرى على متن دراجته الهوائية حاملاً سلة ملأى بالخضر. توقّفت الحافلة في بعض القرى الصغيرة، ودخل الركاب وغادروها بهدوء. وخصّ السياح الكنيسة بزياراتهم. جلست وحدي واتكأت على النافذة وغفوت. ترجّلت من الحافلة حين وصلت إلى باريس. ورحت أبحث عن المرأة التي كلّمتها عبر الهاتف.

كانت ترتدي فستاناً كحلياً طويلاً، كما قالت. اقتربت منها وابتسمت.

ـ أتحمل أمتعة؟

ـ لا.

مشت بقربي مبتسمةً.

ـ السيارة في الجهة المقابلة. أنا جنفياف، زوجة كلود.
أومأتُ لها برأسي.

ـ متى وصلت إلى فرنسا؟

ـ منذ أيام.

ـ هل جئت من بيروت مباشرةً؟

ـ نعم.

ـ أنا أعرف المدينة منذ وقتٍ طويل، قبل اندلاع الحرب. عرفت بيروت وكانت بيروت جميلة.

في السيارة تفحّصتُ جنفياف. كانت في أواخر الأربعينات أو في أوائل الخمسينات، كان صعباً معرفة عمرها الحقيقيّ بالنظر إلى ثيابها وأناقتها.

ما برحت تنظر إلى المرآة. وقبل أن تنعطف نظرت إلى المرآة الخلفية ونظرت إليّ بسرعة.

ـ إذاً تعرف جورج؟

ـ نعم، كنّا صديقين حميمين.

ـ أطلَبَ إليك أن تتّصل بكلود؟

ـ لا. خالته نبيلة هي التي أعطتني النمرة.

ـ وماذا عن والدته؟

ـ توفيت.

أومأت جنفياف برأسها قليلاً.

وصلنا إلى المنزل، فأوقفت سيّارتها وطلبت إلي اللحاق بها. فتحَت بوابة مبنىً قديم ضخم أبيض اللون، وعبرنا المدخل. وركبنا مصعداً صغيراً، مصنوعاً من الخشب الأحمر والمعدن الصلب. استطعتُ رؤية درجٍ لولبيٍّ عريضٍ خلف القفص الصاعد

من وراء الشبك الحديدي. حين وصل الصندوق إلى الطابق الذي تقطن فيه جنفياف (بعد أن سحبته شياطين تعيش على السطح برأيي)، أصدر صريراً قوياً لا تتوقّع سماعه إلا في أروقةٍ ضخمةٍ تعزف موسيقى كلاسيكية، أو في حفلاتٍ أرستقراطية. وضعت جنفياف المفتاح في قفل الباب، لكن أحدهم فتح الباب من الداخل قبل أن تتمكّن من إدارته. حيّت خادمةٌ سيدة البيت.

دعتني جنفياف إلى الدخول، وطلبت إلي الجلوس.

جلسْتُ واختفت هي. أحضرت الخادمة لي عصيراً وبعض البسكوت.

شربت وأكلت ونظرت إلى السقف العالي والسجاد الشرقيّ واللوحات اليابانية الضخمة والخشب ذي اللونين الماهوغوني والكرزي. وقفت، وتوجهت ببطء نحو النافذة، وحدّقت من هناك إلى الشارع الذي امتد على طول الجهتين، مصطفاً بمحاذاة الشرفات والسيارات الصغيرة وخطوط السير البيضاء التي جعلت باريس تبدو متناسقةً ومقسّمة.

عادت جنفياف إلى الغرفة، وسألتني:

ـ هل أعجبك المنظر؟

ـ نعم.

ـ أين ستبقى؟ أتعرف أحداً في البلدة؟

ـ لا.

ـ هل جئت على متن طائرة؟

ـ لا، بل على متن باخرة.

قالت بصوتها اللطيف الناعم:

Oh, mon Dieu, c'est long ça, non?[1].

لاحظتُ تصرّفاتها اللبقة وفستانها الطويل وشعرها الكستنائي بتسريحته الجميلة.

ـ وعدت نبيلة أن آتي لأقابل والد جورج.

ـ أهي خالة جورج؟

ـ نعم.

ـ اسمع. والد جورج متوفٍّ كما قلت. لكن ابنتي الأخت غير الشقيقة لجورج، قادمة إلى هنا، وهي متلهِّفة للقائك. هي في طريقها. ولعلك تخبرنا كل شيء حين تصل. سنتعشّى معاً. أتودّ الاستحمام؟ أستطيع إعطاءك بعض الملابس.

كانت الحنفيّات المذهَّبة تنتشر في الحمام، وتتدفق المياه منها بوفرة. نثرت رغوة الصابون المعطر على بشرتي والشامبو الناعم الحريري على شعري المجعّد. قرعت الخادمة الباب وقهقهت خجلةً وسلّمتني آلة حلاقة. فحلقتُ وجعلت الماء يتدفق على جسدي انتقاماً لندرة المياه في بلدي. قرعت الخادمة الباب

(١) يا إلهي، المسافة طويلة، أليس كذلك؟

مجدداً وأعطتني بنطلوناً وقميصاً وجوربين. كان كمّا القميص كبيرين قليلاً فغطّيا مؤخرتي يدي، فطويتهما، وارتديت الجوربين وخرجت. سمعت صوت امرأتين تتحدّثان في غرفة الجلوس. دخلت فتوقفتا كلتاهما عن الحديث، وابتسمتا لي. وقفت شابةٌ ودنت منّي لتقبّلني على خدي. كان لها شعر طويل فاتح اللون وعينا جورج.

ـ أنا ريا. أخت جورج.

ـ تعرّفت إليك.

ـ حقّاً؟ هل أشبه جورج؟

ـ العينان أنفسهما.

ابتسمت، وأمسكت بذراعي وقالت:

ـ فلنأكل.

جلسنا، وصبّت جنفياف النبيذ في كؤوسنا. أكلنا في صمتٍ لبعض الوقت، ثم تكلّمت ريا، ليقطع صوتها قرقعة الملاعق الفضية الثقيلة التي غاصت داخل صحونٍ مذهَّبة الأطراف وخرير النبيذ وهو ينصبّ في كؤوسٍ كبيرة من الكريستال.

ـ قالت لي أمي إنك قدمت على متن باخرة.

أومأت بالإيجاب.

ـ لم غادرت؟

ـ بسبب الحرب.

ـ وهل جورج سعيد هناك؟

ـ لم يرد المغادرة قط.

ـ حاول والدي إحضاره إلى هنا، أتعرف، إلا أنّ والدة جورج قاومت. ولم نعرف ما جرى لهما بعد اندلاع الحرب. بعث والدي برسائل عبر السفارة، لكن بدا أنّ والدة جورج لم ترد التعاطي معنا أبداً.

بقيت صامتاً.

قالت لي جنفياف ممازحة:

ـ بسّام رجل الكلمات المختصرة.

ـ اسألي، وسوف أجيبك.

صاحت ضاحكةً:

ـ Ah, bon![1].

سألت ريا:

ـ إذاً ماذا يعمل جورج؟

ـ يعمل في مجال الأمن.

تبادلت الأم وابنتها النظرات وصاحتا بدهشة:

Quoi?[2].

---

(١) حقاً!

(٢) ماذا؟

ـ أتقصد أنه حارس شخصيّ؟

ـ تقريباً.

تمتمت جنفياف من وراء كأسها المائل المعلّق:

.[1]C'est dangereux, ça, non?

قبعت موجةٌ برغنديةٌ على شاطىء شفتيها تنتظر رحيل الكلمات.

ـ ألديك صورة له؟

ـ لا.

ـ أهو طويل القامة؟

ـ أطول منّي بقليل.

ـ هل عملتما معاً في مجال الأمن؟

ـ لا. نحن صديقان منذ الطفولة.

ـ منذ أيام المدرسة؟

ـ نعم. كما جمعت بين أمي وأمه صداقة حميمة.

ـ تتكلّم الفرنسية بشكلٍ جيّد. أظن أنكما تعلّمتما الفرنسية في المدرسة.

ـ نعم.

---

(١) هذا خطير، أليس كذلك؟

ـ هل جئت إلى هنا لتقابلنا؟

ـ لقد وعدت نبيلة خالة جورج بذلك.

ـ ألم يرسل جورج شيئاً معك؟ أَوَلم يسألك عنا؟

ـ لا. لم يحصل ذلك حقيقة. ولطالما سرقه عمله.

ـ هل يعرف شيئاً عنّا؟ وهل علم بموت والده؟

ـ لم أناقشه في أمور عائلته قطّ، فمن المستحسن ترك بعض الأمور على حالها. فهي حسّاسة للغاية في مجتمعنا.

ـ هل تعني الافتقار إلى والدٍ شرعيّ؟

ـ نعم.

ـ لكنك كنت تعرف ذلك.

ـ نبيلة هي التي أشارت علي بالقدوم إلى هنا.

توقّفت، ومضغتُ طعامي على مهلٍ وبلباقة.

أصرّت ريا قائلةً:

ـ إذاً أتيت لتقابلنا دون أن تحمل أيّ رسالة.

ـ كانت نبيلة تأمل أن يرسل السيد ماني جواز سفر فرنسيّاً إلى جورج.

ـ بدأت الأمور تتضح. أحسب أن جورج يرغب في القدوم إلى هنا؟

ـ لا. نبيلة هي التي تريد له ذلك.

سألت ريا:

ـ أوَليست لدى جورج رغبة في القدوم؟

هززت رأسي وأدخلت الشوكة في فمي. كنت متهالكاً من الجوع وحاولت تناول الطعام على مهلٍ وبلباقة مستعيناً بتصرّفاتٍ تليق بالمحيط الثريّ، غير أنّ الأسئلة أقلقت راحتي. وبالمقابل أشعرت أجوبتي المقتضبة مضيفتيّ بالإحباط. بالكاد أكلتا؛ لكنّهما ارتشفتا النبيذ. طوال الوقت كانتا تداعبان كأسيهما ولا ترتشفان منهما دائماً. فجأةً، راحتا تتكلّمان بصوتٍ عالٍ وبوتيرةٍ سريعةٍ في الوقت نفسه.

أكملتُ تناول الطعام، وراقبتُ الخادمة تأخذ الصحون من تحت أنوفنا. لمست في ريا روحاً مشاكسة راقت لي. كانت حازمةً تلوّح بيديها، أو تطرق بهما على الطاولة حين تتكلّم. كما كانت بحركات ملؤها الرقة ترفع شعرها بإصبعها لتكشف عن بشرةٍ فاتحة وعينين صغيرتين وأنفٍ مستدقّ. أمسكت بالشوكة والسكين وهي تبدي ارتياحاً، وتوزّع اهتمامها، على تقطيع الخضر واللحمة إلى قطعٍ صغيرةٍ، من غير أن تثقبها بالشوكة. كانت تتكلم دون أن تنظرَ إلى أمها. وحين انهمكتا في محادثةٍ سريعةٍ متشتتة، على غرار مونولوجيستَيْن يتنافسان، بدونا، أنا والخادمة، وكأننا لا علاقة لنا بالموضوع.

جالت عيناي في الغرفة مجدداً. وكنت على الدوام أجد شيئاً جديداً لأستكشفه، كخرائط قديمة مؤطّرة مع بوصلةٍ تشير إلى الشمال، أو أثر لرحلةٍ إلى أرضٍ غريبةٍ، أو أقنعة أفريقية،

أو تمثال صغير لآلهةٍ مصريّةٍ، أو رفوف كتب، أو طاولات قهوةٍ، أو كتب.

حوّلتا انتباههما إليّ أخيراً، وسألتني جنفياف إن كنتُ أودّ البقاء في باريس. فقلت:

ـ لستُ متأكداً من ذلك.

ضحكت:

ـ هل أنت تائه؟

ـ لقد وصلت لتوّي.

انفجرت ريا بوجه أمها طالبةً إليها أن تدعني وشأني.

ـ Laisse-le, putin, laisse-le![(١)].

راحتا تتجادلان، فوقفت وتوجهت إلى النافذة، بينما نظّفت الخادمة الطاولة.

نظرت مجدداً إلى الشارع الطويل، ولم أستطع تذكّر ما إذا تغيّر شيءٌ منذ أن ألقيت عليه آخر نظرة. بدا كل شيءٍ من خلال زجاج النافذة وكأنه صورة بطاقة بريدية.

كنّا نرتشف القهوة، حين قالت جنفياف أنّها ستسأل محامي العائلة، موريس، إن كان بالإمكان فعل شيءٍ لمساعدة جورج. فشعرت بالندم مجدداً لأنني لم أطلعهما على كل شيء أعرفه. لكن الكلمات أبت مغادرة فمي.

---

(١) دعيه، دعيه وشأنه.

التفتت جنفياف نحو ريا وطلبت إليها أن تتابع موضوع موريس، لأنها ستغادر في اليوم التالي لقضاء بعض الوقت في بيتهم الواقع جنوب فرنسا.

جادلت ريا والدتها ونعتتها بالشخص غير المسؤول.

فردّت الوالدة:

ـ Franchement, mais franchement[1].

قدّمت المرأة إلي كعكةً، لكنني رفضت، وشكرتهما وهممتُ بالمغادرة. تبعتني ريا على الدرج.

ـ هل ستعود؟

رجّع صوتها صدىً تلاشى عبر فراغ تلك الجدران العالية والدرج الرخامي الفسيح.

ـ لا أعرف أبحث عن مكانٍ للإقامة.

ـ هل تحتاج إلى مال؟

ـ لا. لكنني لا أحمل الأوراق اللازمة لاستئجار غرفة.

ـ حسناً سنهتمّ بهذا. انتظر هنا.

هرعت إلى الشقة، وجاءت بحقيبتها وتبعتني على الدرج ثم إلى الشارع. أمسكت بمرفقي معظم الوقت وهي ترشدني. دخلنا فندقاً صغيراً، حجزت فيه غرفةً باسمها، ودفعت الأجر.

---

(١) بالله عليك، بالله عليك.

أخبرت عامل الاستقبال أنّ الحجز لأسبوعين، ثمّ التفتت نحوي، ورمقتني بنظرة فيها ابتسامة شقيّة منتصرة.

رافقتني على الدرج ووقفت عند باب غرفتي، وقالت:

ـ Voilà[١].

قبّلت وجهي ومضت وثباً على الدرج. توقّفت وهي تهبط، والتفتت إليّ، ثمّ ابتسمت مجدداً، وأرجعت شعرها إلى الوراء وقالت:

ـ تبدو وسيماً في ثياب والدي.

خلعتُ ثيابي وأرحتها على جذع كرسيٍّ كان موضوعاً تحت مكتبٍ صغير. بدا وكأنه مكتب رحالةٍ. توقّعت أن أرى يد رجلٍ فرنسيٍّ تمسك بالريشة وتغطّسها في محبرة صغيرةٍ لتحمل بين طيّاتها بضع نقاطٍ وتحوّلها إلى سيلٍ من الكلمات المنمّقة على ورقٍ أصفر متقنٍ الصنع، كلماتٍ تبدأ بـ: ...ma chère[٢].

لمحتُ الثياب الملقاة على الكرسيّ، وتساءلتُ عن وجود أيّ معنىً لملء ثياب رجلٍ ميتٍ بميتٍ آخر.

استلقيت على السرير، وتفحّصت الأشياء الموضوعة في الغرفة والتي بدت غريبة عليّ، كالمقبض الذي يفتح الأباجور والفسحة الاقتصادية الصغيرة التي جعلت النافذة تبدو أكبر.

---

(١) ها هي غرفتك.

(٢) عزيزي.

استلقيتُ على السرير المفرد الموضوع إلى جانب الهاتف الضخم السكّري الذي ليس له أرقام لتطلب بها ولا حتى ثقوب دوّارة تدخل فيها أصابعك. قادني فضولي إلى الحمام حيث المغسلة والصابون الصغير الحجم والمناشف البالية المطويّة توحي بلمسة اهتمام من الإدارة. وقفت فوق المرحاض وحللتُ حزامي، ثم تركت النبيذ الأحمر المتحوّل ينفجر ويتدفّق على مهلٍ وبإلحاحٍ داخل انحناءٍ من قوس القزح باللون الأصفر الأوحد، فغزاً الخدر يديّ ثم عينيّ لينتشر أخيراً في رجليّ.

نظرت من النافذة ولم أستطع الاختيار: أأعود إلى الشوارع أم أستلقي على السرير؟ فتحت حقيبتي وأخرجت منها المسدّس وملابس داخلية في حاجة إلى الغسيل وكنزة الصوف التي حاكتها لي والدتي. تذكّرتُ أنّ والدتي ظلَّت لأسابيع تطلب أن أدير لها ظهري حتى تفرش الصوف على كتفيّ وتمرّر يدها فوق عمودي الفقريّ لتفرد الرقعة التي كانت تنظر إليها من خلف نظارتها التي وضعتها لتصحيح قصر نظرها. حاكت وحاكت إلى أن أمست حديث كلّ عنكبوتٍ في العليّة وحديث كل صياد. حاكت وحاكت وطار الصوف إليها من تحت أنوف رعاة الغنم ليستقرّ في حضنها. وحين انتهت من كنزتي الصوفية راحت تحيك علبياتٍ ومفارش وأغطية تلفاز. حاكت إلى أن فاض المنزل كلّه بشباكٍ أحاطت بي فخنقتني.

أخذتُ المفاتيح وحقيبتي وقرّرت التنزه في المدينة. حاولت وأنا أسير أن أتذكر طريق عودتي إلى الفندق. لاحظت أنّ

الشوارع أوسع من شوارع بيروت، والمباني أنظف، والسيارات لا تكاد تزمّر هنا. وصلت إلى ضفّة قناةٍ وشاهدت من هناك المراكب العائمة. جلست وقارنت ما كنت أراه بما سبق أن تخيّلته من القصص التي أخبرنا عنها السيد دافيد يان، أستاذ التاريخ. قصص عن فتوحاتٍ وأوامر ورؤوس متدحرجة عن نصل المقصلة، وقائد قصير القامة من كورسيكا امتطى أحصنةً عظيمة واكتسح البلدان هارباً على متن قاربٍ صغير من الإنكليز الخونة وزوجاتهم الصارمات.

مشيتُ مؤثراً الضياع بين الحشود الجالسة في المقاهي الصغيرة الجاثمة على حافّة الرصيف. مشيت لساعاتٍ وساعات ولم ينظر أحد إلى عينيّ، مع أنني نظرت مباشرةً إلى عينيّ كلّ من مرّ بقربي. حتى أنني تحدّيت بعضهم بنظراتي الشرسة. تحدّيتهم بأنني سأصفع وجوههم بقفّازي الأبيض آملاً في مبارزةٍ أختار فيها سلاحي. شعرتُ بالأمان لوجود مسدّسي في حقيبتي يثقلها. ولو اضطررت لشهرت المسدّس في كلّ زقاق وعبر كلّ نورٍ واهنٍ وبين السيارات الصغيرة.

عرفت أنني سأجد مسدسي في ثانية، لأنني ارتديت الكنزة التي حاكتها لي والدتي، ولأنني تركت ملابسي الداخلية منقوعةً في حوض الاستحمام.

أستطيع الآن الدفاع عن هذه المدينة التي بدت بعيدةً كلّ البعد عن الصور القديمة المدرجة في الكتب التاريخية. أستطيع الآن قتل الأدميرال البريطانيّ نلسون لألتحق جندياً في جيش

الامبراطور. سأكون أسرع مطلق نارٍ على صهوة حصان. وسأذبح الكهنة وأشنق الأرستقراطيّين على أشجارٍ تفيض بالبسكويت المعلّق. تخيّلت العواء الأوبّرالي حين وصولي إلى القصور، وتخيّلت خدوداً مطلية بالأحمر ومؤخراتٍ مكتنزة تحت فساتين اتخذت شكل اليقطين. تخيّلت أرستقراطيين ينزلقون في رعبٍ ووجلٍ عبر الأراضي الرخامية اللامتناهية. واستمعتُ إلى صوت البيانُ القيثاريّ الذي تصدره السيوف الماضية وتأمّلته. صوتٌ سيملأ عيني أي ثوريٍّ بدموع الانتصار.

لذلك همتُ لساعاتٍ، وحاولت مصالحة باريس مع خيال طفولةٍ قرأت فيها كتباً واستمعت إلى قصص أستاذ، لكنني أخفقت في ذلك. وبطريقةٍ أو بأخرى، وكأنّني عشتُ هنا قبلاً، اقتفيتُ طريق عودتي من خلال القصور المنهوبة والمواقع الأثرية العظيمة لرؤوسٍ متدحرجةٍ وشعورٍ مستعارة متناثرة. وعدت أنا، جنديّاً منتصراً، إلى غرفتي الصغيرة بمكتبها الصغير ونافذتها المطلة على المشهد الجميل. أخرجت ثيابي الداخلية المنقوعة من الحوض وعلّقتها ناشراً بللها على الكرسي وفوق المكتب وعلى حافة السرير. لم ألوّح بأي قطعة قماشٍ بيضاء خارج النافذة.

استسلمت للنوم.

١٧

حين أفقت من نومي، شعرت بالتوازن، وكأنّما البحر قد تبخّرت مياهه، والدوار قد توقف في رأسي.

نظرت عبر نافذتي إلى الجهة المقابلة من الشارع. استطعت رؤية الشرفات، كان يلطّخها الضباب والمطر الباريسيّ. بحثت عن سيجارةٍ، إلا أنني وجدت العلبة فارغة بعد أن قام الأرستقراطيون، في الليلة الماضية، بطلب آخر سيجارةٍ يدخنونها قبل أن أعدمهم.

غسلت عينيّ بالمياه لأحرّر آخر قطراتِ نبيذٍ من بطني. استحممت ونظفت أسناني وهرعت على الدرج المعتّم. توجهت إلى المحلّ وابتعت علبة سجائر من نوع جيتان غير مفلترة. دخّنت بينما راح جنودي يأخذون كلّ المجوهرات من الجثث ويضعون شعر الأرستقراطيّين المستعار، ويهزأون من تصرّفاتهم الأنثوية، ويفتّشونهم بحثاً عن أي عملات، وينحنون احتراماً أمام جثث نسوتهم اللواتي أغمي عليهن، تحت أيديهم؛ فينتزعون الخواتم الثمينة من أصابعهن. أمرتهم بحرق الجثث قبل تصاعد

رائحة ذرار الخدود العفن. وحين استعرت النيران، مشيت نحو اللهب وأشعلت سيجارةً أخرى.

رنّ الهاتف عند منتصف النهار. كانت ريا التي طلبت إلي النزول إلى مكتب الاستقبال.

ارتديت ملابس والدها ونزلت للقائها.

حين رأتني، ركضت إليّ وقبّلتني للمرة الثالثة منذ لقائنا. ثم قالت:

ـ فلنذهب.

تبعتها إلى حيث قادتني. النساء في رأيي جزءٌ من الثورة. لذلك ينبغي قبول ما تقدّمه إلينا.

مشينا، وانهمرت زخات المطر علينا، فلجأنا إلى مقهىً صغير. لم أكن الوحيد الذي نفث دخاناً ثورياً في الداخل. شققنا طريقنا عبر ضبابٍ من الزبائن مع صحفهم التي ترفرف صفحاتها كالأجنحة بين أيديهم. وصارعنا حتى نصل إلى طاولةٍ صغيرةٍ مستديرةٍ في الخلف. طلبت قهوةً و«كرواسان» كان بمذاق الحليب الدسم والزبدة. كانت ريا تبتسم لي طوال الوقت. نظرت إلى عينيّ كما لم يجرؤ أحد.

ـ هل يمكنني إمطارك بأسئلتي؟

انحنت علي انحناءة لعوب.

ـ بالطبع.

ـ أخبرني عن جورج.

قبل أن يتسنّى لي فتح فمي أكملت:

ـ أنا متحمّسةٌ جدّاً لفكرة العثور على أخي. لطالما شعرتُ بالوحدة. فقد كان والدي يسافر دائماً. أما والدتي فمشغولةٌ بحفلاتها وارتباطاتها الاجتماعية. هو أكثر من مجرد حارس أمن صح؟ هل هو حقّاً محارب؟

ـ نعم.

ـ لمن يحارب؟

ـ انضمّ إلى الميليشيا المسيحية في بيروت الشرقية.

ـ أخبرني المزيد.

تردّدتُ لأنني لم أعلم من أين أبدأ ولا كيف أنتهي، فقررتُ أن أخبرها قصصاً عن أيام المدرسة، وكيف لعبنا أنا وجورج معاً، وعن منزله الذي لم يكن بعيداً عن منزلي. أخبرها يوم زحفنا داخل برميل نفايات المدرسة بحثاً عن نسخة امتحان اللغة الفرنسية، ويوم اقتحمنا الكنيسة لنسرق صندوق الهبات، ويوم سرقنا مفاتيح سيارة والدي وانطلقنا بعيداً. أخبرتها أيام بدأنا التدخين في الأزقة الصغيرة، وكيف بدأت الحرب ونحن لا نزال ولدَيْن، وكيف جمّعنا الرصاصات الفارغة وهياكل المدافع ولمّعناها بالليمون الحامض لنقايضها بالسجائر. توقّفتُ عن الكلام فابتسمت ريا وأصبحت كالطفلة الصغيرة عند موعد النوم، تُطالب بإعادة سرد القصص وبعدم التوقف أبداً. أخبرتها أننا

عملنا أنا وجورج معاً. وأنه قرر الانخراط في صفوف الميليشيا، لأنه احتاج إلى المال. لم أخبرها كلّ شيءٍ عنه. وحين رأيت مدى سعادتها، غيرت أسماءً وزرعت أشجاراً ورسمت بيوتاً إسمنتية في حيّنا القديم بألوانٍ استوائيةً، وجعلت الناس يرقصون ويضحكون حتّى تحت القذائف المنهمرة.

ـ هل يعلم بوجودي؟

ـ لم يأتِ على ذكركِ قط.

ـ هل سأل يوماً عن أبيه؟

ـ لا. لكن حين كان تلاميذ المدرسة يغيظونه ويلقبّونه بـ «ابن الزنا»، كان يحاربهم صغاراً وكباراً، حاربهم حتى لم يعد يجرؤ أحد عن التفوّه بكلمة.

ـ هل كان يخجل من فكرة عدم وجود أب شرعي له؟

ـ إن كان كذلك، فهو لم يظهر ذلك قط، ولم نتكلم عن الأمر. لكنّ الجميع كان يدعونه بجورج «الفرنساوي».

ـ هل كنت تدعوه بهذا أيضاً؟

ـ لا. كنت أناديه باسم عائلة والدته الذي كان يستخدمه.

ـ وما هو اسم العائلة؟

نفضت ريا السيجارة.

ـ مشروقي.

ردّدت ورائي:

ـ مشروقي. جورج مشروقي. لا بد من أنه تألّم جراء هذه المضايقات، فالأولاد قساة وكذلك البشر والحياة.

شَرِبَت الشاي بسرعة، ثم أمسكت بيدي ووقفت وشدّتني معها.

ـ فلنذهب. أود أن أريك باريس.

مشينا أنا وريا قليلاً لنصل إلى حديقة لوكسمبورغ. أعادتني الرقع الخضر تحت العديد من التماثيل العارية والحمائم والبيارق إلى غرفتي في وطني. لا بد من أن المنزل خالٍ الآن. تساءلت إن كانت نبيلة قد أخذت المفاتيح، وإن مددت الأغطية على كل شيءٍ، وإن عبقت الغرف برائحة منزلٍ مغلقٍ مهجور، وإن كانت العناكب والأرواح تقطنه معاً. وتساءلت إن كان لا يزال لوالديّ، كروحين، حقوق شرعية على المنزل، وعما قد يفعلانه إن عادا إليه، ليكتشفا أنني نجحتُ أخيراً في الرحيل، وأنني قد دخلت تلك الملصقات التي تصوّر الينابيع البهيجة والحمام، مثل هذا المكان هنا، تاركاً ورائي براداً غير مغلقٍ ونفايات غير مجمّعةٍ ولم أترك رسالة وداعٍ حتّى.

رأيت على العشب حجلاً يتصرّف بجنونٍ مع حمامة. تعاركا حول فتات خبزٍ تحت قدمي سيدة عجوز. قال الحجل:

ـ أنا جائع. ولا شيء لي هنا سوى فتات ترميه يد معوزة.

أكملنا طريقنا وشاهدتُ ريا تتمشّى قربي وتخبرني عن الهندسة وعن الألمان الغزاة والصحون النحاسيّة الصغيرة التي

حُفرت عليها أسماء المقاومين الفرنسيين الذين قاتلوا وماتوا في سبيل تحرير وطنهم. توقفنا عند ضفة النهر، في مكانٍ يبيع كتباً مستعملة. مكانٌ مررت به الليلة الماضية، فأمرتُ جنودي بتنظيف مشهد الحرب وإيقاف إطلاق النار والسرقة والشغب احتراماً لريا. أمرتهم بالنزول تحت الأرض ومحاربة الفاشستيّين الغزاة، فابتهج جنودي. جلسنا أنا وريا على مقعدٍ، بعد أن تجوّلنا في المكتبة وشاهدنا المياه تخرّ على مهلٍ تحت الجسور المقوّسة. أبقت الوحوش الحجريّة الجاثمة على سطوح الكنائس عيونها على العدو، فيما ارتاح جنودي وأكلوا.

ـ ماذا تعمل؟

قلت في نفسي إنني لن أخبرها عن ميولي الثورية ولا عن دوري الحاسم الذي أدَّيته في الثورة، ولا عن مساندتي للمقاومة الفرنسية، وربّتت على جوادي الناصع البياض.

ـ كنت أعمل في المرفأ.

سألت بعينين مفتوحتين مستديرتين:

ـ وماذا فعلت هناك؟

ـ قدتُ رافعة.

ـ ألا يزال والداك هناك؟

ـ لا. توفّيا كلاهما، ودُفنا قريباً من منزل الحانوتيّ.

ـ بكيت لأيامٍ حين توفّي والدي. لم أكن أنا ووالدي

قريبين. لطالما كان رسمياً حتّى معي، دائم الأناقة والترتيب وكان يتكلم كالأرستقراطي (فكرت في العفو عنه لأنه والد ريا وجورج) ولبق التصرّف كسائر الديبلوماسيين. لكنه كان يتركنا لأسابيع وأشهر. في البدء سافرنا معه، ثم قرّرت والدتي البقاء في باريس حيث وجدت لها عشيقاً وغدا والدي يسافر أكثر فأكثر.

ـ كان من المفروض أن يتعرّف جورج إليه.

أجابت بسرعة:

ـ نعم، نعم. كان من المفروض أن يتعرّف إلينا جميعاً، ألدى جورج حبيبة؟

ـ لا.

ـ ماذا يفعل في رأيك الآن؟

ـ الآن؟

ـ نعم في هذه اللحظة.

ـ إنه بعيد.

ـ إنه بعيد، نعرف ذلك.

قهقهت، وأكملت:

ـ فلتأكل. لا بد من أنّك جائع. سنركب سيارة أجرة.

وقفت على ناصية الشارع، وأطلقت يدها في الهواء، وهي تقف على رؤوس أصابعها، واستدارت كراقصة بالية تلوّح

براحتها، كما يفعل الأحباء في محطات القطار. جلسنا في سيّارة الأجرة متباعدين جدّاً كلٌّ على نافذة. شاهدت باريس تمرّ عبر زجاجٍ بلّلته قطرات المطر الهاطلة، مُفقدة كلّ شيء وضوحه وهويته. غير أن ريا التي عرفت المدينة وناسها، تأمّلت الزجاج المنقوع وقطرات المطر تتساقط كالدموع من المقل.

سألتني ريا خلال بعد الظهر إن كنت أودّ شرب الشاي في منزلها.

مشينا في شارع أراس تحت مظلّةٍ خبّأت سطوح الكنائس العالية وتماثيل الملائكة في أفاريز المباني وأوراق الأشجار التي انحنت وهي ترزح تحت ثقل المطر المنهمر، والنصب التذكارية المنادية بالانتصار والدخان من سجن باستيل الأبديّ الاحتراق.

تركنا المظلّة في رواق ريا، تقطر ماءً، ودخلنا منزلها. كان أصغر من منزل والدتها وفيه أشياء أقلّ. جلستُ وانتظرت، بينما توارت ريا في المطبخ، ثم انتقلت إلى غرفتها. خرجت ترتدي ثياباً جديدةً جافة ووضعت موسيقى هندية، وأشعلت بخوراً، ثم عادت إلى غرفتها. ظهرت بعد دقيقةٍ وأوعزت إلي أن أصب القهوة لنفسي في المطبخ. سمعت صوت مجفف الشعر في غرفها. وفي الخارج، أرسلت السماء عاصفة رياحٍ ومطرٍ قوية ارتعشت لها الأشجار.

ارتشفتُ قهوتي، ومشيت نحو رفوف الكتب الموضوعة في غرفة الجلوس، رأيت على أحدها صورةً لريا مع رجلٍ، لاريب في أنه السيد ماني. التُقطت هذه الصورة في مكانٍ ما في

الشرق، لأنّ معبداً بوذيّاً كاد يشغلها كلّها. لا بد أنها التُقطت من بعيد، لأنها أظهرتهما بالكامل.

لم يكن السيد ماني يشبه جورج إلا في ابتسامته العريضة ربّما. تذكّرت كيف كانت ابتسامات جورج نادرة وكيف كان يفاجئك بها، بين الفينة والأخرى، فقط ليعترف بوجودك. بدا السيد ماني ببشرته الباهتة من العرق السلافي أما جورج فكان أشبه بوالدته جمال، ذات البشرة الداكنة بلون الزيتون.

ـ كانت هذه رحلتنا إلى تايلندا وهذا والدي.

قالتها وهي تدنو منّي. لامست طرف الإطار فأدرت رأسي نحوها وقبّلتها على خدّها. ضغطت بوجهي على بشرتها الدافئة فأدارت رأسها على مهلٍ وتلاقت شفاهنا في قبلة.

تمتمت:

ـ عليك أن تخلع ثيابك فأنت مبلّل. تعال إلى غرفتي. سأعطيك منشفة.

بقيتُ مع ريا في الأيام التي تلت كنا نتنزّه كل يوم، نغدو من مقهىً إلى آخر. زرنا متاحف ومعارض، أرتني فيها لوحاتها المفضّلة. ووثبنا عبر أجنحةٍ تفيض بصور ذهبيّة وعملاقة لحكّام وسيدات من الطبقة الأرستقراطية وتماثيل رومانيّة بيضاء. توجّهنا مباشرةً إلى قطعها المفضلة التي أبهجتها بمجرّد رؤيتها، وكأنّها صديق طفولةٍ مفقود. رسمت على وجهي ابتسامة حماس عريضة،

وأخبرتني عن حياة الرسام وعن الحقبة التي عاش فيها والتقنيات التي استخدمها والرمزية في عمله.

ذهبنا في أحد الأيّام إلى معرض صورٍ فوتوغرافيةٍ، ومشت متمهّلةً أمام كلّ إطار، متمركزة أمام كل صورة.

قالت:

- الصورة الفوتوغرافية تعبير عن الموت. فهي تحفظ وهم لحظةٍ ماضيةٍ لا يمكن استعادتها أبداً.

ليلاً، نمت في سريرها ومارسنا الحبّ. كانت تضيء شمعةً قبل أن تأوي إلى السرير.

قالت لي:

- أحبّ أن يكون الجوّ مظلماً بحيث يمكن رؤية أشكال وليس الكثير من التفاصيل.

سألتني ذات ليلة.

- هل يمكنك أن تصف لي جورج؟

- مع التفاصيل؟

ابتسمت.

- يملك عينيك الخضراوين وابتسامة والدك. بشرته داكنة تشبه بشرتي. لنا القامة نفسها تقريباً. شعره أسود أملس لم ينفك ينسدل على وجهه. لم يرتدِ نظارة في حياته، أنفه معقوف كأنف والدته الخالة جمال. نحيلٌ بعض الشيء لكنّ ذراعيه قويتان وتستطيعين رؤية ذلك من العروق النافرة دائماً منهما.

ـ هل يدخّن؟

ـ نعم.

ـ أيّ نوع؟

ـ المارلبورو.

ـ ماذا يفعل غير ذلك؟

ـ كان يقود درّاجة وكنا نصطاد معاً.

ـ ماذا تصطادان؟

ـ الطيور. الطيور في الأغلب.

استسلمت ريا للرقاد تلك الليلة، لكن لم يغمض لي جفن. استلقيت على ظهري لبعض الوقت ثمّ توجّهت إلى النافذة ومنها إلى الشرفة الخلفية. دخّنت ونظرت إلى النجوم القليلة التي زيّنت السماء، وفتّشت بينها عن الحرائق السماوية وعن إشارات مورس المرسلة من الفضاء.

هل بيروت كبيرة؟ كيف هي أزياء شعبها؟ كيف كانت والدتك؟ هل أحببت والدك؟ كان ريا تكثر من أسئلتها بعد ممارستنا الحبّ. أرادت مني أن أصف لها الأشياء وأصرّت على ذلك كطفلةٍ مهملة. فتحت زجاجة نبيذٍ في إحدى الليالي، حين كنا نتناول العشاء، ووضعت أغاني حب فرنسيّة. ودعتني لأجلس على الأرض قربها، ثمّ أخرجت ألبوم صور.

ـ فلنشاهد الصور.

قلّبت الصفحات على مهل. نظرتُ إلى صور طفلةٍ صغيرةٍ تحبو على الأرض، وإلى جنفياف في فساتين من أيام السبعينيات وأحذية مستدقة ونظارات داكنة، وريا بين يدي والدها، وخلفهما أفريقيا.

ـ هذه مربّيتي. وهذه أنا في سنغافورة. وهذه الصورة في كيبوتز، بإسرائيل.

قاطعتها:

ـ متى كنتِ هناك؟

ـ منذ وقتٍ قصير.

بالطبع أرادت ريا معرفة كلّ شيء، حين أخبرتها أن جورج قد ذهب إلى هناك لتلقّي تدريباتٍ عسكرية.

ـ متى ذهب إلى هناك؟ لمَ كان في إسرائيل؟ وكيف تمكَّن مجيئها من لبنان؟

أخبرتها أن جورج قد ذهب في مهمّة سريّةٍ لتلقّي التدريبات.

ـ Oh, ,mon Dieu![1]. ربما كنّا هناك في الوقت نفسه؟ متى ذهب؟ في أغسطس، سبتمبر، نوفمبر؟ في أي سنة؟

ـ السنة الماضية.

ـ أتعرف في أي منطقة كان؟

---

(١) يا إلهي.

ـ لا. كان من المفترض أن يخضع لعملية تدريبٍ سرّية

ـ هل عرف أنّ والدنا يهوديّ؟

ـ لا أعرف.

ـ أتظنّ أن والدته ناقشته في هذا الأمر؟ لا بد من أن جورج قد طرح عليها أسئلة حول أبيه.

أزاحت شعرها عن وجهها.

ـ لست متأكّداً من ذلك.

ذابت الشمعة تحت لمسات نارها التي احترقت فوق بركةٍ من المياه. حدّقت إلى النار بينما جال ذهني في الماضي أيام جثونا أنا وجورج بملابسنا البيضاء على المقاعد الخشبية، نتمتم بشفاهنا ونمضغ جسد ابن الإنسان، ونرتشف دمه ببهجة، عارفَيْن أنه سيحبّنا دائماً كما نحن، آكلي لحوم بشر، وقطّاع طرق بائسين، وسيّئين تقودنا هرموناتنا، ولصوص شموع، ومستمنين.

حين عدت إلى فندقي في الصباح التالي، استحممت واستلقيت على سريري أنظر إلى السقف، وأملأ الغرفة بصباب السجائر المحترقة. طويت الثياب التي كنت قد تركتها مرمية، وخبّأتها داخل أدراج الغرفة الصغيرة. لم يكن لديّ أيّ خطّة وأدركتُ أنني لا أستطيع وضع أيّ منها. لم يعرفني أحد في باريس سوى ريا. ولم يتوقّع أحد منّي أن أتناول معه العشاء، ولا أن أمشي في موكبٍ جنائزي، ولا أن أعمل أو آكل أو أحمل الجرحى وأسرع على الدرّاجات النارية. فكّرت في أنني

أستطيع التجوّل في باريس مجدّداً. ثم تذكرت قصة جدتي التي استعبدها الأتراك أيام شبابها، والتي كوت قمصان جنودٍ فرنسيين لقاء القليل القليل من قطع النقود أيام نضجها، وقصة أخيها الذي انضمّ إلى ستة آلاف لبنانيّ مؤلّفين فرقة كناسة خلال الحرب العالمية الثانية، تحت إمرة القوات الفرنسية للتحرير. وتذكّرت قصة جدتي البطولية عن حربهم في معركة بير حكيم. تذكرت كيف أخبرتني عن أخيها الذي هلك في الصحراء متعطّشاً لبيته في أعالي الجبال، ولسلسلة الجبال، ولقرع الأجراس، وللعنزات التي تطحن العشب.

لذلك أشعلت سيجارتي الجيتان وتمشيت في شوارع باريس أبحث عن أسماء أجدادي لعلّني أجدها منقوشةً على ألواح رخاميّة أو على أقواس النصر. مشيت وكأنني جاسوسٌ متنكّرٌ حاملاً قبعة في يدي وخبزاً فرنسياً تحت إبطي. وحين رأيت رجال فيشي وجستابو يحيطون بآلاف وآلاف الناس الذين يشبهونني ولهم الأنف نفسه والبشرة نفسها، استدرت وتوغّلت في المجارير. خفت من أن يأسروني ويزجّوني في القطار. وخفت من الليالي الباردة من دون طعامٍ. وخفت من أن يسلبوني قبّعتي وساعتي وخبزي الفرنسي وكمانِي وأحبّائي. خفت أيضاً من الثمن الذي سيتحتّم عليّ دفعه بطريقةٍ أو بأخرى، أكان ذلك في الحاضر أو في المستقبل. وخفت من بساتين الزيتون، حيث يتقوقع اللاجئون في خيامهم حاملين بأياديهم مفاتيح منازلهم التي لن يروها بعد اليوم، وصوراً لأرضٍ سيسلبها السلوفاكيون في يومٍ من الأيام، سلوفاكيون ينتعلون الصنادل ويبرّرون كلّ شيء

بمخطوطات مقدّسة. زحفت في المجارير إلى أن وصلت إلى سراديب الموتى في روما، حيث استرحت بين آلاف الجماجم التي يضيئها مشعل واهن. أو ربّما كان ذلك طرف سيجارتي التي ومضت في عينيّ!

بعد ظهر اليوم التالي أتت ريا لزيارتي. قبّلتني على خدّي، ومشينا كأننا نعرف كلانا ماذا نفعل.

سألتها إن كانت تعرف كيف التقى والدها والدة جورج.

ـ كان والدي في ذلك الوقت دبلوماسياً في مصر، لكنه غادرها بسبب الحرب الإسرائيلية ـ العربية. ذهب إلى بيروت في طريق عودته إلى فرنسا لينهي بعض الأعمال. كانت والدة جورج خلال ذلك الوقت تعمل كسكرتيرة في القنصليّة الفرنسية. قال والدي الذي كان عازباً، وكان لا يزال شاباً ووسيماً إنه أحبّ لهجتها. لا بد أن لهجتها تشبه لهجتك (وابتسمت)، وكانت قد تلقّت الدروس على أيدي الراهبات، لكنها أخبرت والدي أنها تمرّدت عليهنّ لاحقاً. أظنّ أنّ والدي قرّر إخباري بكلّ شيء عن حياته بعد أن اكتشفنا أنه مصاب بالسرطان. أخبرني أن الراهبات قد عمدن إلى استغلال والدة جورج، لكنهنّ مع ذلك منحنها ثقافة مهمّة مكّنتها من العمل في القنصلية. طلب والدي مقابلتها عدة مراتٍ قبل أن تقبل الخروج معه. بيروت.. لطالما تكلم والدي عن بيروت مع شيءٍ من الحزن والحنين. بعد أن غادر والدي المدينة، بقيا لبضعة أسابيع يتراسلان. ثم توقّفت عن المراسلة على حين غرّة. لا بدّ من أنّها اكتشفت حملها.

ولسنواتٍ لم يعرف والدي عن وجود ابن له قط. فلم تخبره والدة جورج بذلك. وهو من جهته لم يشكّ في الأمر. ولم يعرف عن ابنه إلا بعد مرور سنوات، حين كان مسافراً إلى روما والتقى هناك رجل أعمالٍ لبنانيّاً كان يعرف العائلة، فقال له إن والدة جورج قد حملت من رجلٍ فرنسيٍّ غادر البلاد، وأنها قررت الاحتفاظ بالطفل على الرغم من كل المحرّمات الاجتماعية، والمشقة التي عليها تكبّدها وتهديدات الحرم الكنسي والعزل الذي واجهته من عائلتها ومجتمعها. سألتُ والدي لماذا لم يعد يوماً إلى بيروت لرؤية جورج ووالدته؛ فأخبرني أن بيروت أمست خطيرةً لأناس مثله بعد الحرب.

نظرت ريا إلى عينيَّ وأضافت:

ـ كانت والدة جورج جريئةً أليس كذلك؟

ـ كانت أيضاً كريمة وأحبّتنا كلينا.

ـ كيف توفّيت؟

ـ بمرض والدك نفسه.

ـ وربّما في الوقت نفسه.

١٨

لم تتصّل ريا بي في اليومين اللذين تليا حديثنا عن والدها ووالدة جورج، ولم تأتِ لتزورني في الفندق، فذهبت في الليلة الثانية إلى منزلها. وقفتُ قبالة مبناها عند تقاطع شارعين، وتحت إشارة السير. استنشقتُ الدخان مع الضوء الأصفر ونفثته مع الأخضر. وعند الضوء الأحمر، وقفتُ بين المشاة المجتمعين وشاهدتُ ملابسهم الملوّنة.

رأيتُ رجلاً كبيراً أنيقاً ينتظر عند مدخل مبنى ريا. ورأيت أنوار الشارع ترسل شعاعها إلى وجهه، فأمسى يغيّر ألوانه كما الحرباء. ثم رأيت ريا تنزل إلى الشارع. رجعت إلى الوراء ووقفت في ظلال الزاوية. قبّلت ريا الرجل العجوز ثمّ مشيا معاً في الشارع. كان نحيلاً له ملامح ناعمة ووجه طفوليّ. تبعتهما ملتزماً طريق الظلال طريقاً. وكنت أجمد مكاني كالفريسة بوجود المفترس، حين كانا ينظران إلى الوراء.

دخلا حانةً، فتح هو باب مدخلها لريا. تكلَّمَتْ طوال الطريق، وكان هو يومئ برأسه فحسب، ويميله ناحيتها. انتظرتُ خارجاً. دخنت سجائري كلّها وبقيت مع ذلك واقفاً أراقب عبر

النوافذ. كانت النادلات يرحن ويجئن حاجباتٍ معهنّ الضوء المركزيّ المعلّق وسط إطار النافذة وكأنّه سفينة فضائية. كانت تحرّكات النادلات تجعل الضوء يتلألأ في عينيّ أحياناً، فبدت كإشارات مورس التي تأمرني بعدم إضاعة رعاياي، وباللحاق بهم، وبتسجيل كلّ ضحكةٍ يطلقونها، وكلّ محادثةٍ ينهمكون فيها، مهما تكن مبتذلةً مراقبةُ حركات أجسادهم وضبطُ أيّ عملية تبادل أوراق أو علب سجائر أو نظرات أو ابتساماتٍ أو أصواتٍ حنونة.

انتظرتُ لساعاتٍ. وتقتُ إلى سيجارةٍ أخرى وإلى الشموع المحترقة فوق سرير ريا. تقتُ إلى صورها وأسئلتها التي لا تنتهي.

حين غادرت ريا والرجل الحافة أخيراً، جمدت مكاني ولم يرفّ لي جفن. توقّف الرجل على الرصيف وأخرج علبة سجائر وولاعةً قديمة، أشعل سيجارة ونفث الدخان ومشى بقرب ريا. تبعتهما في طريق العودة إلى منزلها. أوصلها الرجل إلى الباب، قبّلته ثم غادر. انتظرت حتى مرّ بقربي، فتبعته إلى محطة المترو. وقفتُ هناك على مسافةٍ قريبةٍ منه وراقبته عن كثب. كانت أضواء النيونات المعلّقة تظلّل وجهه بأشكالٍ مزعجةٍ تعارضت مع عينيه الزرقاوين وربطة عنقه الحريرية وشعره المسرّح.

تبعته إلى كلّ محطةٍ نزل فيها وغادر منها. تبعته إلى كلّ مكانٍ غير آبه لملاحظته ذلك أم لا.

ركضت خلفه عند آخر محطةٍ غادرها وهو يجتاز زقاقاً، طلبت منه سيجارةً فأجابني بوقاحة أنه لا يملك أية سيجارة.

ـ أعرف أن معك واحدة!

جاوزني مسرعاً بشيءٍ من التعجرف وطلب إلي أن أغرب عن وجهه، فسحبت مسدّسي وشهرته في وجهه.

ـ أعطني السيجارة وإلا استخدمت المسدس. أيّهما تفضّل؟

أخرج العلبة من الجيب الداخلي لسترته وأعطاني إيّاها.

ـ القداحة أيضاً.

فتّش في ثيابه عن القداحة ثم أخرجها من جيب بنطلونه وقدَّمها إلي على مهلٍ، وهو لا يزال ينظر إليّ بعينين لم تعرفا الخوف. أخذتها ومشيت في الاتجاه المعاكس. قرّرت ألا أركب المترو، فربما طلب الرجل الشرطة، آنذاك ستكون المحطات في حسبان رجال الشرطة لا محال.

مشيتُ سريعاً عبر الشوارع المقفرة وشعرت بالجوع، ذلك أنني لم آكل طوال النهار، حيث كنت أنتظر اتصالاً من ريا، وكنت أنتظر مشاطرتها الطعام والنظر إليها وهي تحدِّق مباشرةً إلى عينيّ كما لم يفعل أحد في هذه المدينة؛ وأشتمّ رائحة شعرها الذكية.

وصلت أخيراً إلى شارعٍ مزدحم، فوقفت خلف شجرةٍ صغيرةٍ وأشعلت سيجارة. شعرت بثقل القداحة وتفحّصتُ لونها الذهبيّ

فرأيتُ أحرفاً أولى محفورةً عليها. لكنّني قرّرت النظر إليها لاحقاً، تحت ضوءٍ أفضل. فتحتها وأغلقتها، فرجّعت صوتاً حاكى صوت باب السجن وباب غرفة التعذيب وصوت جدال الأحباء في السيارات والمواقف، وصوت الباب لدى خروج والدي من منزلنا ليلاً، ولدى خروجه من حانات المقامرة في الصباح. كنت عطشاً، إلا أن فكرة المياه أعادت إلي ذكرى يد رامبو على عنقي وهو يغرقني فانقطع الهواء من رئتيّ جاعلاً إيّاي أستنشق السيجارة لوقتٍ أطول وأمشي بخطىً أسرع. وكلما أسرعت بخطواتي شعرت بأنني غريب. تقت إلى نزهاتي المطوّلة تحت القذائف المتساقطة. فالقذائف في رأيي ليست مصنوعةً للقتل فحسب، بل هي أشبه بإشارات مورس الملأى بالرسائل والكلمات. غير أنّ باريس خالية من القذائف المنهمرة. باريس مدينة صامتة.

في اليوم التالي، اتّصلت ريا بي من هاتف الفندق. قالت إنها ستصعد إلى غرفتي.

أغلقت الباب وراءها بقوةٍ حين دخلت (كإغلاق قداحة ذهبيةٍ ثمينة).

- تبعتني الليلة الماضية.

لم أقل شيئاً.

- أجل فعلت فقد رأيتك. رأيتك تنتظر خارج الحانة، قبالة الشارع تعرّفت إلى وقفتك وحقيبتك وسجائرك. بقيت هناك لساعاتٍ كالمطارد. تعرّفتُ إليك من طريقة تدخينك ومن طريقة

نظرك في الاتّجاهين من تحت قبّعتك وياقة معطفك. أجل وقفت تحت الضوء المعتم ظناً منك أنّ أحداً لن يتعرّف إليك. لكنني لطالما تعرفت إلى الناس من خلال أشكالهم. أطلت مكوثي في الحانة لأنني لم أرد المغادرة قبلك، لكنك عنيدٌ للغاية، بقيت، واقفاً هناك وكأن أحدهم دفع إليك المال لتقوم بذلك. وقفت هناك وأخافني منظر جسدك الجامد التعيس وكأنّه جثة منتصبة. لا تملك الحقّ! لا تملك حق ملاحقتي! رأيتك تتبع رولان بعد أن تركني. رأيتك! لم تبعته؟ من أين لك الحق في ذلك؟

حدَّقت إلى عينيّ مباشرةً، إلا أنّ نظرتها كانت جديدةً هذه المرة. نظرة لم أعهدها قط. عينان نصف مغمضتين تشبهان نظرة الرامي وهو يطلق النار أمام الشمس، ونظرة بحارٍ ضائعٍ، ونظرة شخصٍ ينظر عبر دخان سيجارةٍ أو حشيشة تحترق.

صاحت:

ـ لِمَ؟ لِمَ؟ أخبرني الآن لم تبعتني؟ لم؟

فتمتمتُ:

ـ لحمايتك.

ـ ماذا؟ لحمايتي؟ ممّاذا؟ ممن؟ من طلب إليك ذلك؟ من؟ ليس لديك أيّ حقٍّ عليّ، أتفهم؟ أشفقت عليك، وشعرتُ بالأسى تجاهك. لذلك مارست الحب معك. لكن ذلك لا يعني أنك تملكني مفهوم؟ لا تلاحقني بعد اليوم!

رفعت إصبعها في وجهي وقالت:

ـ لا تزعج رولان، لأنه ليس ناعماً ورقيقاً كما يبدو.

استدارت، وأغلقت الباب بقوة (أجل بدا صوته كصوت باب سجن). شاهدتها من نافذتي تقطع الطريق، ورأيتها تمشي على خط السير الأبيض وتختفي وراء جدرانٍ حجريّةٍ بيضاء.

زرعتُ غرفتي جيئةً وذهاباً، بين النافذة والحمّام، باحثاً عن شيءٍ جديدٍ أتفحصه. كان ينقصني الصابون وكنت في حاجةٍ إلى منشفةٍ جديدة، فنزلت إلى الرواق.

كان عامل الاستقبال رجلاً جزائرياً يضع نظارة سميكة، يقرأ كتاباً. طلبت منه منشفة جديدةً وصابوناً فأخبرني أن عليّ الانتظار إلى أن تحين عملية التنظيف التالية. سألته إن كان يملك كتاباً يعيرني إياه، فانحنى تحت المكتب وأخرج بضعة كتب.

ـ تفضّل. ينسى الناس كتبهم في الغرف فنحتفظ بها.

أمسك برزمة مترنّحة من الكتب كالمحترف، ووضعها كلّها أمامي.

ـ اختَر كتباً منها وأرجو أن تعيدها بعد انتهائك من قراءتها أو قبل مغادرتك.

انتقيت كتاب «الغريب» لكامو.

قال قبل أن يضحك.

ـ Ah oui. On est tous comme ça ici, mon frère[١].

---

(١) آه طبعاً، نحن كلّنا، كذلك يا أخي.

صعدتُ إلى غرفتي، واستلقيت على السرير. «توفيت والدتي اليوم، أو ربّما البارحة. لست متأكداً». كانت هذه أول جملة من الكتاب. نهضتُ وجلستُ عند النافذة أقلّب الصفحات. ونظرت إلى الشارع فرأيت رجلاً يمشي مع كلبه، شاتماً إيّاه. شعّ نور الشمس بقوّةٍ، وعلى نحوٍ منخفض جاعلاً باريس تغوص في حرارةٍ متوسطيّة، وعبقت المقاهي برائحة الزعتر. وكلّما سكبت الشمس حرارتها، غاصت باريس داخل شواطىء أفريقيا الشمالية. رأيت بطل الرواية يمشي على الشاطىء بيده مسدس بين طيّات الصفحات... قال المدّعي «هذا الرجل المتّهم معنوياً بقتل والدته» وشهر مسدّسه نحو المتّهم.

غادرتُ قاعة المحكمة على عجلٍ ورميت بالكتاب على السرير، لأشاهد باريس وهي تكمل طريقها تحت أمواجٍ من النور الأحمر المتلألىء. وانضمت انعكاسات رمال الصحراء إلى أمواج البحر الأبيض المتوسّط. كان الحر شديداً ممّا جعلني أشعر بالدوار. وأحسست بالعرق يتصبّب في ظهري شلالاتٍ انسكبت في بنطلوني عابرةً مؤخرتي، فشعرتُ بالبلل في مفاصلي خلف ركبتيّ.

هرعتُ إلى سريري ورميت بنفسي عليه وأنا أشعر بالإعياء وبالقلق الشديد يعتريني. وصلتُ إلى الهاتف وأمسكتُ بالسمّاعة فأجابني العربيّ تحت.

ـ هل أجد خلّاً عندكم؟

أردتُ أن أبلل قطعةً من القماش بالخلّ وأضعها على جبهتي كما كانت تفعل جدّتي حين كنت صغيراً وحرارتي مرتفعة جدّاً.

ـ خل؟ هذا فندق وليس لدينا خل.

ـ أريد خلّاً!

أقفل عامل الاستقبال السمّاعة، فرميت بالهاتف على الأرض وذهبت إلى الحمام ونظرت هناك من النافذة. في الخارج، كانت الرياح تنثر الرمال كأنّها رذاذ أمواج البحر في المرافىء والأرصفة. رأيت بعيداً في الصحراء رومل ورجاله يتقدّمون نحو الشرق، فأمسكتُ بمسدّسي وانحنيت تحت النافذة أنتظر مرورهم.

طار الحجل وحطّ على عتبة النافذة وقال لي:

ـ سأطلعك بمغادرتهم.

استيقظتُ بعد قليلٍ ولم أعرف الوقت. كان قميصي مبللاً ودفعني عطشٌ صحراوي إلى بلوغ الحمام سريعاً حيث ملأت كأساً من المنهل وشربت. نظرت إلى المرآة، فإذا بي أرى شعري مبللاً وجسدي هزيلاً وعينيّ المستديرتين حمراوين تغوصان تحت وجنتيّ الصفراوتين المرتفعتين. كان الغبار يغطّي ثيابي. لا بد وأنني زحفت على الرمل الحارّ، تحت عيون الأعداء. ولا بد من أنني تسلّلت من تحت جزمهم الطويلة الجلدية.

استحممت وتحسّست جبهتي تحت الماء، فوجدتُ الحرارة قد تبدّدت. خرجت من الحمام وبحثت عن ساعتي. كانت الرابعة بعد الظهر، إلا أنّ ذلك لم يفدني كثيراً لأنني لم أستطع

بالتحديد تذكر متى بدأت باريس تزحف جنوباً أو متى هجرت مستعمراتها لتعود إلى الشمال مجدداً.

اتصلت بالجزائري وسألته إن كان يتذكّر في أي يوم طلبت منه الخل، فضحك ولم يجب. وسألني عوضاً عن ذلك إن كنت قد انتهيت من قراءة الكتاب، فأجبته بالنفي.

«توفيت والدتي اليوم أو ربما البارحة. لست متأكداً».

ترددت هذه الجملة الأولى في ذهني مراراً وتكراراً إلى أن ضحكت لسخافتها. ضحكت لذكرى قريبة والدتي البعيدة التي جاءت من الشمال متشحةً بالسواد ورمت بنفسها على قبر والدتي المفتوح، وراحت تتحدث معها في نواحٍ ميلودراميٍّ. أخبَرَتْها أن ابنها بسام لا يزال هنا، لكنه أمسى وحيداً الآن. كما ذكّرت والدتي بأنها لا تزال صغيرة على الموت جاعلةً بذلك النسوة الملتحفات بالسواد كلهن يذرفن الدموع في المناديل. جعلني مشهد النساء، وهن يحطن بجثة والدتي ويرتدين الأسود ويذرفن الدموع ويرتشفن القهوة ويقبّلنني على جبهتي وينشدن ويلطمن صدورهنّ، راغباً في الضحك أكثر فأكثر. كذلك تذكّرت الأب سمعان الملتحي، القصير القامة والكاهن المكتنز الذي جاء إلى غرفتي ملوّحاً بالبخور أمام ملصقات فتيات شبه عارياتٍ ولاعبي كرة قدم، وأيضاً أمام الحمائم التي تحطّ خارج نافذتي والتي طارت في أسرابٍ لدى رؤية ناره ودخانه، وجثمت على السطح المقابل ترمقه بنظراتٍ مخبولة. جل ما وددته هو أن يغادر الحشد المنزل. لم أكن متأكداً من تاريخ وفاة والدتي: أكان ذلك اليوم

أم البارحة أم قبل ذلك بكثير. وها هن النسوة يتكلّمن معها وكأنها لا تزال هناك تنصت إليهن. دخلن المطبخ بمفردهن وأعددن القهوة ودخنّ السجائر وفتحن البراد ليشربن ماءً بارداً وأنعش بعضهنّ بعضاً بماء الورد، بعد أن أغمي عليهن كمغنيات الأوبرا الإيطاليات عقب نواحهنّ. في ذلك اليوم، جلّ ما رأيته من جنازة والدتي قماشٌ أسود يمتدّ فوق رؤوسٍ بكّاءةٍ عديدةٍ جاثية تحت قماش أسود أوحد، تتحرَّك في حزن كوحشٍ مترنّحٍ جريح يعاني سكرات الموت. ثم جاء الرجال وشقّوا طريقهم بين فساتين النسوة السوداء، يحملون التابوت باثني عشر ساعداً، بينما طافت والدتي نحو المقبرة عبر الشوارع الفائضة بالسيارات والجيران الفضوليين الجاثمين على الشرفات كمخلوقاتٍ نصف نسرية ونصف بشريةٍ، مقوّسة المخالب مشيت في الجنازة ونظرت إلى أكاليل الأزهار وأربطتها البيضاء المعقودة في الوسط، وبطاقات الإهداء التي تحمل أسماء الحادّين. مشيت، وحين أدركت أن أحدهم يمسك بيدي خوفاً من أن أغيب عن الوعي أو أنزلق أو أزحف وراء التابوت، حدَّقت إلى عينيه وطلبت منه سيجارة.

في باريس، زحف نور المساء الناعم عبر سطح الأرصفة، بينما ارتفعت نسمة في الخارج تحمل معها رائحة الشوارع المبللة حديثاً. فتحتُ درجاً وأخرجت منه ظرفاً وأحصيت المال، فوجدت أنه يكفيني لأسبوعٍ أو أكثر. كانت الغرفة مؤجرةً لبضعة أيامٍ أخر. إلا أنني لم أتوقّع من ريا أن تجدد الإيجار.

أخذت نقودي وتوجهت إلى الأسفل فوجدت أن الجزائري قد رحل ليحلّ محل آخر يبدو وكأنه سنغاليّ. طلبت إليه أن يجدّد إقامتي لأسبوعٍ آخر بالاسم عينه.

- من هي ريا؟ فالغرفة باسم ريا ماني.

- صديقتي الحميمة.

أومأ برأسه ولم يطرح سؤالاً سواه. ملأ بعض الأوراق. دفعت له، ومضيت أبحث في الخارج عن طعام. كانت ظلال أعمدة المصابيح تنعكس على الشوارع المبللة بأشكالٍ مبهمة، فبدت وكأنها أشباحٌ شيطانيةٌ بمعاطف واقيةٍ من المطر وبشعورٍ محترقة.

ابتعت خبزاً فرنسياً مع نقانق، ثم توجهت إلى النهر واتّكأت على الدرابزون لأدفن الطعام في معدتي.

كانت القصور المقابلة للنهر مضاءةً بأنوار خضراء وحمراء. أما فوق، فجعل الطقس الضبابي السماء أقرب فبدت المدينة محدودةً ومتواضعة.

هبطت الدرج إلى حافة النهر، حيث جلست على مقعدٍ أنتظر هبوط الضباب ليلامس سطح الماء.

أمسى كل شيءٍ غير مرئي الآن، وتوارى كل شيء عن القوانين والعيون والإدراك. لا بد من أنه الموت، حيث يمسي كل شيءٍ غير مرئي. اكتسيت بالضباب ومشيت فيه نحو الليل.

رنّ الهاتف في اليوم التالي. قال الجزائري:

- Une nan t'attend en bas. Elle veut que tu descendes[1].

عرفت أنها ريا فارتديت بنطلون والدها، وركضت حافياً إلى الأسفل.

كانت في الرواق تتكلم مع الرجل الذي سرقته منذ ليالٍ. نظرا كلاهما إليّ في صمتٍ ثم تبادلا النظرات. سألتني ريا بنبرة سريعةٍ شبيهةٍ ببزة رجال الأعمال:

ـ ألديك وقت لاحتساء القهوة معنا؟

ـ نعم. سأعود حالاً.

ارتديت جوربيّ وحذائي وقميص والدها الذي غسلته من دون أن أكويه. خارج الفندق، نظر الرجل إليّ بصمتٍ، بوجهٍ يخلو من التعابير. مشينا معاً إلى مقهى وجلسنا.

نظرت ريا إليّ مؤنّبة، وقالت بقساوة:

ـ هل قداحة رولان معك؟

سحبتها من جيبي، وأعطيته إياها.

ـ والمسدس؟ من أين جئت به؟

ـ من بيروت.

سألني رولان وطيف ابتسامةٍ باردةٍ يلوح على وجهه:

---

(١) تنتظرك امرأة تحت. تريدك أن تنزل إلى هنا.

ـ دخلت البلد مع مسدس؟

ـ نعم فعلت.

فأضاف:

ـ حملُ المسدس في هذا البلد يعدّ جريمة خطيرة.

هززت كتفيّ باستهجان.

ضغطت ريا على ذراعي عبر الطاولة، وقالت بنبرة، حادَّة:

ـ اصغ إليه يا بسام، فرولان يعني ما يقول! اصغِ إليه، نظر رولان حولَه، وكأنما المخبرون يحيطون بنا، وأردف:

ـ عليك التخلص منه. أتحمله معك في حقيبتك؟

ـ نعم

فصاحت ريا:

ـ C'est pas vrai![١].

رفعت الجزء الأعلى من جسدها، ثم خبطت يدها على الطاولة المستديرة الصغيرة، وأردفت:

ـ Mais c'est ridicule, non?[٢]

قال لي رولان همساً:

ـ اذهب الليلة وارمِ به في النهر.

---

(١) غير معقول!

(٢) لكن هذا سخيف، أليس كذلك؟

ـ أطعْه. أطعْه فهو يعرف.

قال رولان:

ـ اذهب وارمِ به في النهر.

ـ وسننسى كل شيء.

ذهب إلى المنضدة ودفع الفاتورة.

نظرت ريا إلى أظافرها محاولةً تجنّب نظراتي. وكان شعرها الناعم يُغطي وجهها. وامتزجت الهمهمات والهمسات حولنا بقرقعة الأواني وبدخان السجائر الذي انسلّ من نهدات الأحباء وبموسيقى الأكورديون الناعمة الحزينة التي رافقت عدم ارتياحنا وصمتنا.

عاد رولان، فوقفت ريا وحملت حقيبتها الكبيرة. دفع رولان بعلبة سجائر نحوي وهو يغادر، قائلاً:

ـ تفضَّلْ احتفظ بهذه لعلّها تمنعك من أي عملٍ بطوليٍّ في المستقبل.

فدفعتها ناحيته، وقلت:

ـ حين أحتاج إلى شيءٍ سآخذه بنفسي.

قبعت في المقهى لبعض الوقت وشربت المياه المعدنية التي طلبتها ريا من دون أن تمسّها.

غادرت ومشيتُ عبر شوارع باريس، فأحسست بثقل المسدس يرزح في حقيبتي أكثر من ذي قبل. تساءلت إن كنت

سأمشي بالطريقة نفسها إذا لم يكن ثمة حمل على ظهري. تساءلت إن كنت سأشعر حينها بأنني عارٍ. ما الذي سيظنه الامبراطور إن رميتُ بسلاحي في النهر؟ لا بد من أنها مؤامرة، فرولان أرستقراطيٌّ ثريٌّ ولن يخدم فقداني لمسدسي سوى مصلحة الغرور والوراثة والاضطهاد.

عدت إلى غرفتي، وانتظرت ريثما تغوص الشمس في أعماق المياه فيرتفع منسوبها ليملأ الأرض ويبتلع الأنهار والينابيع كلها. كنت نائماً بشكلٍ أفقيٍّ على السرير، أعوم بتوازٍ تامٍّ مع السقف المنخفض. حملت مسدسي ومددت ذراعي. صوّبت نحو اللوحة المعلقة على الحائط التي تحمل رسمة لصيادي غزلانٍ وكلابٍ تشتم الأرض. ثم صوّبت المسدسي باتجاهي ونظرت إلى فوَّهته. هل كنت لألعب بقدري لو كان بيدي مسدس من نوع البكاراه عوضاً عن الأوتوماتيكي؟ هل كنت لأدع رصاصةً واحدةً من أجلي لأدير الفوهة على غرار ما فعله العديد من الشبان في بيروت خلال الحرب، بعد أن شاهدوا فيلم صائد الغزلان؟ مات الكثير في لعبة دي نيرو. لم يعلم سوى القليل منا أن روجيه، ابن مريم الأرملة، قد أطلق النار في إحدى الليالي جاعلاً دماء دماغه تلطخ الكوكايين على الطاولة وقميص جورج ووجه عصام وصدري. حملناه على الدرج أنا وعصام، ثم وضعناه على المقعد الخلفي للسيارة. قال لي جورج، لا فائدة من قطع مجرى الدم. فقد مات. وصلنا إلى المستشفى وانتظرنا في الرواق ندخن من دون ندم. دخنّا إلى أن خرج المسعف ليسألنا عن اسم الرجل المتوفَّى وعن كل ما جرى. فأخبره جورج أن روجيه

تلقى رصاصةً وهو يحارب في الجبهة، لكن المسعف لم يصدق القصة. فقد اشتمّ الأكاذيب من قمصاننا الحريرية ومن الكولونيا التي طغت على رائحة الدم. نظر إلينا بعينين ملؤهما الشك، وتمتم بتردد: أُطلقت الرصاصة من مسافة قريبةٍ للغاية. أخذ جورج المسعف جانباً، ووضع يده على كتفه، وهمس في أذنه رافعاً يده إلى عنقه. استرسل في الحديث معه، ثم أفلته مع دفعة. رجع الرجل غاضباً، وخلع معطفه الطبي، ورماه على سريرٍ نقالٍ معترضاً يشتم الحرب وعمله والآلهة ووطن الجنون.

أنشد الزغلول خلال الجنازة زجلاً، ورقص الرجال مع التابوت. مشت والدة روجيه في الشوارع تصرخ للشرفات: إنه بطل. ابني بطل. لقد ولدت بطلاً، بطلاً!

خيّم الليل على باريس مجدداً، فذهبت لأواجه النهر مرّةً أخرى. شتمتُ الأنهار الممتدّة من الأردن إلى الميسيسيبي كلّها. وقفت عند ضفّته وحملت حقيبتي لأفتح السحّاب. صرخت: يا لها من أنهارٍ غدارةٍ تغسلك فتتركك عارياً وبرداناً! أخرجت المسدس لكنني لم أرمِ به.

عدت إلى الفندق وتوقفت في طريقي عند المتجر واشتريت أكياس نايلون وحبلاً. عدت إلى غرفتي ولففت المسدس بأكياسٍ عديدةٍ، ثم ربطت حولها الحبل وأحكمت الرباط. عدت مجدداً إلى النهر وتوجّهت إلى أبعد مكانٍ فيه، حيث يخلو المكان من الناس. وقفت هناك على جسرٍ قديم مهترىءٍ يقف وحده من دون أن يشهد أحدٌ على عتمته. مشيتُ تحته فرأيت هناك آثاراً

للتشرّد ونيرانٍ صغيرةٍ مشتعلة. ربطت آخر الحبل بعارضةِ الجسر ورميت بالمسدس في النهر، فغاص لينضمّ إلى قذيفةٍ مهترئةٍ وجنود عطاشى وأحصنة الامبراطور التي رعت تحت ضفاف النهر.

عدت إلى الفندق وأحسستُ بخفّةً لا تُحتمل. بدت الحقيبة على ظهري بلا قيمةٍ أو أهميةٍ وكأنها صدى حشرةٍ كبيرةٍ تطنّ تحت أذني.

رأيت سريري قد رتّب في الغرفة، وزوِّد الحمام بمجموعة جديدة من الصابون ومنشفة جديدة، وورق تم لفّه وثنيه عند طرفه.

فتحت النافذة، وتركت الهواء ينفذ إلى الداخل. تساقط رذاذ الماء من المرشة على أعضاء جسمي ليزيل عنها رغوة الصابون، وسكّرت الحنفية، وأخذت المنشفة لأنشِّف بها جسمي. وأنا أرتدي ملابسي الداخلية فقط تناولت كتابي فتحته: ... و«هل تفوّه بكلمة ندمٍ على أكثر جرائمه فظاعة؟...» فأجبت: لا. ولِمَ؟ وافقنا جميعاً على المشاركة. وكان ذلك خيارنا وقام كلٌّ منا بتلقيم مسدسه، وكان لكلٍّ منا أربع فرصٍ من أصل خمسٍ. عملنا جميعاً بحسب قناعاتنا وعاطفتنا. أوَتسأل سيدي المدعي العام بينما نحن نتعرّف في هذه المحكمة التي تغصّ برجالٍ وقضاةٍ فرنسيين. السبب ليس سوى خرافةٍ مجدية. غادرتُ المحكمة وقلبت صفحةً أخرى من الكتاب: «... بيد أن الحماسة كلّها أرهقتني فرميتُ نفسي بثقلٍ على خشبة النوم».

١٩

رنّ الهاتف عند الصباح.

هتف الصوت على الطرف الآخر قائلاً:

ـ أنا رولان.

ـ نعم.

ـ ينبغي أن نلتقي. تعال لكن من دون ذلك الشيء.

ـ أصبح في النهر.

ـ هذا جيد جيد، ممتاز. إذاً تعال بعد ظهر اليوم. ينبغي أن نتحادث. سألتقيك الساعة الرابعة عند محطة ميترو مونبارناس.

نزلت إلى الصالة، ثم غادرت لأشتري قهوة.

سألني حكيم (اكتشفت أن هذا هو اسم الجزائري) إن كنت قد أنهيت قراءة الكتاب.

ـ نعم. ولكنني سأحتفظ به.

ضحك وقال:

ـ لكن عليك دفع ثمن أعمالك.

ـ سأفعل.

التقيت رولان عند محطة الميترو، وكان أنيقاً مسرَّح الشعر يفوح منه العطر كالعادة. خرجنا من المحطة وركبت سيارته الرينو.

ـ هل أنت جائع؟

ـ نعم.

ـ حسناً. تعال معي إلى منزلي وسأحضّر لك عشاءً صغيراً. كانت شقّة رولان مكتظة باللوحات والتحف والسجاد، وكانت نافذته الواسعة تطل على برج إيفل. فتح زجاجة نبيذٍ أخرجها من قبو النبيذ الصغير، وسكب محتواها داخل جرة، ثمّ سكب لي كأساً بعد مضي دقائق.

سألت بعد الرشفة الثانية.

ـ هل ستجيء ريا؟

ـ لا.

ـ أهي منزعجة؟

ـ نعم. إنها كذلك، لكنها بحاجة للمساعدة. ريا ليست لك، فأمامك حياة أخرى.

ـ لم لا تزال في حاجة إلى المساعدة؟

ـ لدى ريا قناعاتٌ ومعتقداتٌ دينية، كما أنها ترى فيك أقرب شخص إلى أخيها.

أكمل حديثه وهو يصبّ الزيت في مقلاة:

ـ كنا نناقش إمكانية المجيء بجورج إلى باريس حين تبعْتَنا الليلة الماضية. ريا قلقةٌ بشأن أخيها. ومع أنها لم تلتقِه في حياتها، فإن فضولها يتحوّل ببطء إلى نوعٍ من ... كيف أصوغها؟ ليس الحب، لكن ربما الهوس في رأيي.

ـ لكن ذلك طبيعيّ أليس كذلك؟

ـ هل طبيعي أن تُفتن بشخصٍ لم تلتقه قطّ؟

ـ لا أعرف، لكنني أتفهَّم ذلك، لاحتمال أنها تشعر بالوحدة من دون عائلة. ما هي شهرتك؟

بدا متفاجئاً:

ـ شهرتي؟ موسيكليي.

ـ القداحة ليست لك. فالأحرف الأولى لا تطابق اسمك.

ـ كانت ملكاً لكلود، والد ريا.

ـ هل أعطاك إياها؟

ـ لا، احتفظت بها بعد موته.

ـ أكنتما مقرّبين؟

ـ نحن في الواقع عملنا معاً.

ـ ديبلوماسيين؟

ضحك رولان:

ـ نعم. ديبلوماسيين.

ـ لم تضحك؟

ـ ريا تدعونا بالجواسيس.

ـ هل أنتما كذلك؟

ـ حسناً. ربّما كان كلّ الدبلوماسيّين جواسيس إلى حدٍّ ما.

ـ إذاً لم دعوتني إلى هنا؟

ـ طلبَتْ إلي مساعدتك. كنت متردداً في البدء لكنها أصرّت على ذلك. عليك مغادرة فرنسا. فليس معك أوراقٌ ثبوتية ولن تحصل عليها إلا بعد سنوات. وستلقي الشرطة القبض عليك عاجلاً أم آجلاً. وأحسب أن لا مال لديك وإلا لما كنت مستميتاً لتحصل على سيجارة، إن فهمت قصدي.

غمزني، وأكمل:

ـ إذاً يا عزيزي الصغير، إليك اقتراحي. آمل أن تكون من محبّي وجبة البزّاق مع صلصة الكزبرة. اقتراحي بالمختصر المفيد هو التالي. هل ترغب في مزيد من النبيذ؟

سكب لنفسه المزيد، وقطّع بعض البقدونس ثم استدار وغسل يديه.

ـ حسناً كما قلت... قرّب كأسك... إليك ما أقترحه: كندا.

ـ كندا!

ـ نعم. اتّصل بهذا الرجل الذي يعرف أحداً يعرف بدوره آخر يستطيع تأمين تأشيرة سفرٍ مزيفةٍ إلى كندا.

ـ أنت الآن تتكلّم كالجاسوس.

ـ إنّك بالفعل شابٌّ حاد الملاحظة. هل جئت ومعك جواز سفر، أم أسلحة فقط؟

ابتسم رولان.

ـ نعم معي جواز سفر.

ـ حسناً. هذا يعني أنك لست عديم المسؤولية بعد كل شيء. اركب الطائرة؛ وحين تصل إلى مطار مونتريال في كندا قل إنك لاجىء. سأعطيك نمرة الشخص لاحقاً. ستتكفّل ريا بكل شيء، ثمن التذكرة وغيرها من التكاليف. ستهاتفك بشأن ذلك، هيا فلنأكل الآن. بهالمناسبة، هل رأيت جورج قبل مغادرتك؟

ـ لا.

هزّ رولان رأسه وقادني إلى مكاني عند الطاولة.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى كشك هاتفٍ عام.

اتّصلت بالنمرة التي أعطاني إياها رولان، فردّت علي امرأة. قلت لها إنني أتصل بشأن بذلة الزفاف الذي سيجري خارج المدينة.

ـ ما لون البذلة وقياسها؟

ـ أزرق. أما القياس فسبعة.

ـ حسناً. أين يمكننا اللقاء؟

ـ في ميترو مونبارناس. سأرتدي قميصاً أبيض بكمين طويلين يغطّيان يديّ.

ـ سأجدك غداً عند الثامنة والنصف صباحاً.

أغلقت السماعة، ثم ذهبت إلى مقهىً مجاورٍ حيث طلبت فنجان قهوة. كان النادل مهذباً ويناديني (Monsieur)[(١)]. تناولت جريدة وتصفّحتها على مهل. قرأت خبراً عن عبوةٍ ناسفةٍ انفجرت في سيّارةٍ شرق بيروت مخلِّفة خمسة قتلى وثلاثين جريحاً. أظهرت الصورة امرأة ملطّخة بالدماء منقولةً إلى المستشفى.

اقتربتُ من نافذة المقهى أكثر وحملقت في الصورة محاولاً التعرف إلى المرأة، أو إلى أي أحدٍ آخر فيها، فالتعليق تحتها حمل اسم «الأشرفية»، أي حيث عشت. كانت الأرض مغطاة بالزجاج المحطم والحصى، وفي الخلفية رجل يشير إلى الشرفة فوقه. كانت القصة الصحفية حقيقية إلى حدٍّ مقلق؛ لكن من دون تحقيقٍ أو خبر.

حاولت قدر المستطاع التعرف إلى أحدٍ في الصورة إلا أنني

---

(١) بالسيد.

لم أستطع. لذلك شربت قهوتي وحين كان النادل ينظر بعيداً مزقت الصفحة على مهلٍ، ثنيتها بيديّ تحت الطاولة ووضعتها في جيبي.

عدت إلى الفندق ومنه إلى غرفتي. وهناك سحبت الصفحة من جيبي ووضعتها على المكتب. استلقيتُ على سريري ونظرت إلى الجدران. وبعد فترةٍ أخذت كتابي. كنت قد وصلت إلى آخر الصفحات فقرأت: «أخبرته بأنني كنت أحملق في الجدران منذ شهورٍ خلت، ولم يكن هناك أحدٌ أو شيء في العالم... حياةٌ أستطيع تذكرها، هذه الحياة على الأرض. هذا جلّ ما أريده».

أغلقتُ الكتاب ونظرت إلى الشمس التي تغلغلت أشعّتها في الغرفة كأنها مواساةٌ حزينة.

مشيت بعد ظهر ذلك اليوم نحو منزل ريا وانتظرت قرب مبناها. لم أقرع الجرس لكنني لم أختبىء، بل وقفت تحت الضوء واضطربت كما الورقة في الخريف ودخنت، ونفثت إشاراتٍ هنديةٍ أصليّةٍ، أبعث لها من خلالها تحذيراً بقدومي.

رأيت بعد قليل معطف ريا الطويل ومظلّتها يعومان فوق الأرصفة، ويقتربان منّي على مهلٍ ليمسيا أكبر فأكبر. رأتني ومرّت تتفادى نظراتي، وذهبت مباشرةً إلى بابها.

اقتربتُ منها وتسلّلت تحت مظلّتها.

ـ تكلّمت مع رولان.

ـ حسناً. يمكنك المغادرة الآن.

ـ تريدينني أن أغادر؟

ـ اسمع، إن ما فعلته لا يُغتفر، بل هو في الحقيقة مخيفٌ. لم يقبل رولان في البداية أن يساعدك؛ لكنني كنت ملحّة على ذلك.

ـ لم تساعدينني؟

ـ إكراماً لجورج.

فتحت باب مصعد بنايتها فأمسكتُ بطرفه قبل أن يتسنّى لها إغلاقه، وسألتها إن كان باستطاعتي الدخول.

لم تجب، فتبعتها إلى الداخل. لم تنطق بكلمة في المصعد. بدل ذلك ظلّت تنظر إلى حذائها طوال الوقت، إلى حذاءٍ أسود لمّاع مسطّح ومستدير مع كعبٍ صغير مبلل بقطرات من المطر. تبعت حذاءها على طول الرواق. تبعت حذاءها الجلديّ الأسود كجروٍ مبللٍ وكأحد كلاب البودل التي تعجّ في شوارع باريس بأرسانها الممتدة كخيوط العنكبوت من أيادي أصحابها.

فتحت ريا باب الشقة ورمت المفاتيح في صحن. وذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب وراءها ثم عادت وسألتني إن كنت جائعاً.

ـ لا.

ـ هل اتّصلت بالجماعة؟

ـ نعم.

ـ حسناً. اتّخذت قرارك إذن؟

ـ لا. لكنني اتّصلت بهم.

ـ ليس لك أيّ مستقبلٍ هنا. عليك أن تغادر.

أمسكت بيدها وقرّبتها منّي. حاولَتِ الابتعاد عني لكنني أحكمتُ قبضتي. حجبت نفسها عنّي تحت شعرها الناعم. فرفعتُ شعرها على مهلٍ وداعبت وجهها. وقفت هناك بلا حراكٍ، متردّدة. قبّلتها على خدها، ثم على عنقها. وصلت إلى شفتيها فأبقتهما مغلقتين.

ـ أنت مبلّل. من الأفضل أن تعود إلى نزلك وتغيّر ملابسك.

دفعتني بلطفٍ بعيداً عنها.

ـ اتصل بي حين تحصل على التأشيرة، وسأحجز لك تذكرة.

غادرتُ شقتها واقتفيت أثر دعساتي البودل المبلّلة على طول الرواق. نظرت ورائي، فرأيتها تراقبني من خلال فتحةٍ صغيرة في الباب.

في اليوم التالي، وقفت عند مدخل مترو مونبارناس. سحبت امرأة في الأربعينات من عمرها كميّ الطويلين وابتسمت. مشت أمامي فتبعتها. وصلنا إلى حديقةٍ صغيرةٍ فيها بعض المقاعد. جلست وحدَّقت إلى وجهي.

ـ متى وصلتَ إلى هنا؟

ـ منذ بضعة أسابيع.

أومأت وأضافت:

ـ من أين؟

من لبنان.

قالت بلهجةٍ لم أستطع التعرّف إليها:

ـ الوضع سيئ هناك. لم غادرت؟

ـ لم يعد وجودي هناك مرحَّباً به.

ـ من وراء ذلك؟

ـ أشخاص في السلطة.

ـ هلا سمحت أن توضح كلامك؟

ـ هل تودّين سماع القصة؟ حسناً لقد اتّهمت خطأً بقتل أحدهم وتمّ تعذيبي.

ـ أخضعت لمحاكمة؟

ـ لا.

ـ من عذّبك؟

ـ الميليشيا.

ـ لمَ؟

ـ لأنهم، كما قلت لك، اتهموني بسرقة أحدهم وقتله!

ـ ذكرت القتل أول الأمر، ولم تذكر السرقة.

ـ حسناً، هذا أيضاً.

ـ حدّثني أكثر عن التعذيب. هل كنت بمفردك أم مع صديق؟ أم مع أحدٍ من أفراد العائلة؟

ـ بمفردي.

ـ كيف؟

أخبرت المرأة عن رامبو وعن مغطس المياه، وكيف غطّس رأسي فيه وكيف أخرجه قبيل اختناقي. أخبرتها عن حرمان النوم ورحلات السيارة والاستجواب الطويل.

ـ لمَ في رأيك اختاروك؟

ـ لمَ اختاروني؟ لأنني أتعاطى المخدرات، ولأن القائد، على ما أظن كان يعرف أن عمّي شيوعيّ.

طرحت المرأة العديد من الأسئلة عليّ. أرادت الحصول على التفاصيل، كاسمي الكامل وعمري وموعد مغادرتي بيروت بالضبط.

ـ طلبتُ لقاءك لأنني أريد جواز سفرك. هذا أولاً؛ وليكن في علمك ثانياً أننا لا نقوم بهذا العمل من أجل الربح. نقوم به فقط من أجل اللاجئين، فنحن منظّمة إنسانية سرية. أتفهم هذا؟

ـ نعم.

ـ حسناً. هل تحمل جوازك؟

ـ نعم.

ـ حسناً. انظر إلى سيارة الأجرة المركونة هناك هل رأيتها؟

ـ السيارة البيضاء الصغيرة؟

ـ نعم.. اركب السيارة بعد مغادرتي، ودع السائق يوصلك إلى منزلك واترك له جواز سفرك. سنعلمك بموعد انتهاء التأشيرة، وآمل ألّا تحاول التكلم مع السائق، وألّا تتّصل بنمرتنا مجدداً. تجنّب الشرطة والأماكن العامة المكتظّة، ولا تدع الشرطة تلقي القبض عليك. سنصل إليك فور انتهاء كل شيء.

ركبت السيارة. وفي الطريق رميت بالجواز على المقعد الأمامي. وصلنا إلى الفندق فقلت له إنّ هذا هو مكان إقامتي. وطالبني السائق بالأجر.

مرّ يومان ولم أحاول خلالهما رؤية ريا. انتهيتُ من قراءة كتابي، فوضعته في حقيبتي على أمل استعادة بعض الوزن الذي فقدته في غياب مسدّسي.

في ليلةٍ صافية، عدت إلى المكان الذي وضعت فيه مسدّسي. أملتُ أن يكون قد صعد إلى السطح ليعوم عكس التيار، أو لربما كان في عهدة جنديٍّ فرنسيٍّ ميتٍ تحت الماء. وربما كان يستخدم سرعته الخاصة ودقّته وقدرته النصف أوتوماتيكية ليطلق من تحت ناره على كل المراكب الصغيرة ويفرّق العملاء الأميركيين المتنكّرين بزي سياح وخبراء نبيذ.

وقفتُ لدقيقةٍ أبحث عن فقاقيع، وآمل مجدداً أن يثب المسدس من تحت الماء كالسمك الذي يقفز ليصطاد الذباب الحائم المغرور الذي ينظر إلى طيفه فوق مرآة سطح النهر. لكن المياه كانت ساكنةً. سمعت صوت طلقاتٍ ناريةٍ كتمها صوت تدفق المياه، فعلمت أنّ أحدهم أخذ مسدسي. اقتربت من ضفة النهر بحذر وانحنيت فوق حافته، فرأيت الأشكال المتغيرة للقصور الواقعة فوقي، ورأيت طيفي. رأيت أيضاً مشاهد معارك من بيروت:

رأيت نفسي ولداً، أركض وراء الوطواط الذي كان يستخدم سلاحه الـ AK-47 ليطلق النار من وراء أكياس الرمال. كما رأيتُ يديّ الصغيرتين تلاحقان رصاصاتٍ دافئةٍ فارغةٍ لتجمعاها في قميصي، داخل جيبٍ يشبه جيب الكنغر. رأيت أيضاً الفرحة مرسومة على وجهي وأنا أقفز كالكنغر لأعود إلى منزلي وأتبادل كنزي لاحقاً مع أولاد الحيّ. مرّ يومان آخران ولم أسمع أي خبرٍ لا عن ريا ولا عن المرأة الأخرى. ركبت الميترو صباح اليوم الأول وذهبت إلى برج إيفل. تجوّل السياح كالنمل الصغير أسفل أرجل الوحش المعدنيّ. ونظروا نحوه إلى أعلى يحمون عيونهم بآلات تصويرٍ بلاستيكيةٍ صغيرةٍ، ويتموضعون تحته كالتماثيل المبتسمة، ويضغطون بسبّاباتهم على أزرارٍ صغيرةٍ ليمتصّوا النور من وجوههم الباسمة، ويسجّلوا مرور الوقت في صورٍ كامنةٍ، كدليلٍ على وجود حياتهم الزائلة.

جلستُ، شاهدت الحمام يقتات على فتات حلوى سقط من

أفواه الأولاد. رأيت السيّاح في الباصات يقفزون كرجال الفضاء حاملين حقائب مليئةً بالخرائط والأدلة التي قد تعطيهم مفاتيح لحلّ لغز القمر. تحدّثت تلك الكتب عن أهمية اختيار المطاعم الجيّدة، وقدَّمت إرشاداتٍ حول المتاحف الجيدة حيث أُلقِيَ رفاتُ التاريخ وسرقات الامبراطوريات في صناديق زجاجية تليق بزياراتهم خلال أوقات الصباح وبعد الفطور الفرنسي الضئيل الذي تناولوه، وهم واقفون في الصفوف أمام «البوفيهات» يشعرون بالحنين، وأمام الموائد الطويلة المصنوعة من الفولاذ الصامد، وأمام البيض المنكمش، وقطع البطاطس الكريهة، والمربّى الذي له ألوان النيون، والتوست المقرمش، والقهوة المخفَّفة التي ارتشفوها بالتزامن مع مجيء الفرقة الموسيقية الكبيرة من المطبخ، وقد طعَّمتها همهمات الطباخ الأسود من وراء الأبواب المتأرجحة والنوافذ المستديرة الصغيرة التي تتأرجح أيضاً على نهر الميسيسيبي، في بواخر تحمل طحين السيّاح والذرة واللحم المقدّد المشبع.

في اليوم التالي لازمت فراشي، وبقيت باريس ساكنةً لا تتحرّك قيد أنملة. انتظرتُ ريثما يتغيّر المشهد خارج النافذة، إلّا أنّه بقي على حاله. أسفل الشارع، دعاني صفٌّ من الجنود العائدين من المعركة إلى التقدُّم معهم. فنهضت أخيراً ومشيت نحو قوس النصر. قطعت الطريق الشاسع الذي يعجّ بسائقي السيارات غير الصبورين، وهم يقودون سياراتهم في دوائر. مررت تحت القوس وأعلنت انتصاري على أعدائي. قطعت إلى الجهة الثانية وقررتُ تناول الطعام. جلتُ في المدينة بحثاً عن

الطعام. فجلست في مقهىً وشاهدت الناس جميعهم يهرعون على طول الأرصفة. أكلت ما قدّموه لي، دفعت، ثم عدت إلى فندقي. أبلغني حكيم، عامل الاستقبال، برسالةٍ إلي تفيد بأن بذلتي جاهزة وأن عليّ إحضارها غداً من نفس المكان والزمان.

احتجْت تلك الليلة إلى رؤية ريا. ذهبت إلى منزلها وشاهدت غرفة نومها من مكان بعيدٍ في الشارع المقابل. كانت مضاءة وكنت أختبىء وراء الجدار في كل مرةٍ يمر طيفها أمام النافذة، فأمحو أي أثرٍ لشكلي.

راقبتُ غرفتها إلى أن نفدت سجائري.

في اليوم التالي. التقيت امرأة التأشيرة. مشينا إلى الحديقة حيث سبق أن تكلّمنا، وجلسنا على المقعد عينه.

ـ حصلنا عليها. وأنصت إلى ما يتوجّب عليك فعله. اذهب إلى حمّام الطائرة قبل أن تصل إلى مونتريال... مزّق جواز سفرك وارمه في المرحاض، ولا تترك أيّ أثر له، ثم أخبر الشرطي حين تترجل من الطائرة أنك لاجىء. تأكد من تمزيق الجواز. هل تملك أوراقاً ثبوتية أخرى؟

ـ نعم، شهادة ميلاد لبنانية.

ـ تستطيع الاحتفاظ بها.

اذهب إلى هذا العنوان الليلة عند الثامنة. إنه لمطعم. سيأتي أحدهم ويعطيك الجواز هناك. كن حوالى الساعة الثامنة مساءً. حظٌّ موفق.

شاهدت المرأة وهي تغادر. رأيتها تهرع عبر الحشود وتختفي ما بين المعاطف والحقائب، إلى أن توارت عن الأنظار.

ذهبت مساء إلى المطعم. طلبت زجاجة جعّة ودخنت، وتأملت الليل كما يفعل الباريسيّون.

كان في المكان طاولاتٌ صغيرة مستديرة مزدحمة الواحدة تلو الأخرى. وكان الجميع يتنشّقون دخان الآخرين. شكّلت وضعية الطاولات هذه سلسلةً من الدوائر المتداخلة لم يقطعها سوى مئزر النادل الأبيض الذي يعبر الطاولات بين الفينة والأخرى، كالمقص. انتظرت وبدأت أشعر بالغضب بعد مرور نحو الساعة. لم يقترب مني أحد، كما لم أتكلم مع أحد سوى النادل الذي جاء أخيراً ليعطيني الفاتورة، فانحنى نحوي وقال:

C'est déjà dans ta poche[1].

خرجت، وفتّشت في جيوبي فوجدت الجواز في إحداها. قلت في نفسي إن بإمكاني أن أطير الآن. فطرت فوق باريس أشاهد قبّعات السكان تتحرك كالأهداف المتحرّكة، كلاباً تشتم أذيال بعضها المبلّلة، وأضواء السيارات تحوم في دوائر وتلحق بعضها كالكلاب. كلّما طرت عالياً أمسى الناس صغاراً أكثر وأكثر، تافهين من دون قيمة؛ وبدت المنازل والشوارع موضبةً في دوائر، ومرتبةً كما الطاولات المستديرة التي ينفث الفنانون المكتئبون الدخان حولها، ليساهموا في تطور الضباب الباريسيّ

(١) لقد أصبحت في جيبك.

السميك الذي يحجب أفكارهم العميقة عن البشر الطائرين والكلاب المشتمّة.

هبطت، ومررتُ بالحاجب السنغالي عند الاستقبال. نسيتُ أن أحييه، وركضت مباشرةً إلى غرفتي.

فتحت جوازي فوجدتُ تأشيرةً كنديةً مطبوعةً عليه.

٢٠

في اليوم التالي، استيقظت باكراً وهرعت إلى شقة ريا وقرعت الجرس فجاء صوتها الناعس عبر الهاتف الداخليّ.

ـ حصلت على التأشيرة.

ـ Tu veux du café?[١]

ـ Oui[٢]

أدخلتني ورأيتها تمشي على مهلٍ في المطبخ. كان قميص نومها رقيقاً، أبيض شفافاً. لا بدّ من أنها شعرت بنظرات عينيّ تخترق قميص نومها القصير، لأنها نظرت إلى الوراء وضبطتني أتفرّسها، فدخلت إلى غرفتها بهدوءٍ وارتدت ثياباً عادية ثم خرجت، وجلست قبالتي.

ـ ماذا تفعل هذه الأيام؟

ـ أقرأ وأمشي.

---

(١) أتودّ شرب القهوة؟

(٢) نعم.

أومأت برأسها وقالت:

ـ ما الذي تقرأه؟

ـ قصةً عن شخص قتل عربياً في الجزائر.

ـ L'Étranger?.[1]

ـ Oui, c'est ça.[2]

ابتسمت، وأضافت:

ـ تعال، لنجلس على الشرفة. ستحصل على تذكرة السفر بعد أيامٍ قليلة. سأتأكد اليوم من وكيلة السفر مونيك. هل تعدني بأن تبقّى بعيداً عن المشكلات إلى حينها؟ فأنا لا أحبّ أن يطاردني أحد.

انتهيتُ من سيجارتي. وقلت:

ـ أود أن أمارس الحب معك مجدداً.

ـ قد يحصل ذلك قبل مغادرتك. لا اليوم ولا غداً بل في الليلة التي تسبق مغادرتك ربّما. وأنا الليلة مدعوة إلى حفلة في منزل أحد أصدقائي. تستطيع مرافقتي إن وعدتني بأنك ستحسن التصرف، وبأنك ستطلب ما تريده بتهذيب.

عدت في تلك الأمسية، إلى منزل ريا مجدَّداً وركبنا سيارة أجرة معاً. مضينا إلى الحفلة التي أقيمت في صالة طويلة تحتوي على بعض المصابيح الحمراء والأرائك البنفسجيّة الموبَّرة. كان

---

(١) قصة الغريب؟

(٢) نعم، هي بعينها.

المدخل يكتظ بالحشود غير المبالية التي تتجاهل مرورك عمداً، كالنباتات المنزلية في وضعيّاتٍ أزليّة. رقص أصحاب المكان ذوو الشعور المصبوغة والبنطلونات الجلدية الضيّقة في زاويةٍ واستعانوا بحركات رقصة المونوولك Moonwalk. اختفت ريا ووقفت أنا بمحاذاة الجدار وبيدي زجاجة بيرة. شاهدت جزادين النسوة والكعوب العالية الرفيعة والجوارب المخرّمة السوداء وتصفيفات الشعر المموّجة. بعد فترة لمحت ريا تتكلم مع رجلٍ ثم تبعها على الدرج. مضت به وسار هو وراءها يتمايل على وقع الموسيقى الصاخبة.

اقترب منّي رجل بشعرٍ منفوشٍ وحمرةٍ سوداء وقال:

ـ T'es l'ami de Rhéa?[1].

ـ نعم.

ـ أنا مصفّف شعرها.

ـ ومصفّف شعرها والدتها أيضاً على ما أظن.

ـ Bien oui, je connais la connasse[2].

ضحك متمايلاً بجسمه النحيل الحريري إلى الخلف وإلى الأمام.

ـ ماذا في الأعلى؟

---

(١) أنت صديق ريا؟

(٢) أجل بالطبع، أنا أعرف هذه الغبية.

أجاب قبل أن ينظر إلى السقف:

- آهٍ، إنّه مكانٌ تصعد إليه.

أكملت كأس البيرة وتوغّلت داخل الصالة أكثر. كان كل من الحاضرين يشعرك بلا مبالاته، يبدو وكأنه شخصية أرستقراطية حديثة كاذبة. قلت في نفسي بحزنٍ، ليت المسدس معي، لكنت أطلقت النار عليهم هنا على درجات قصورهم.

بعد مرور نصف ساعةٍ، مللتُ التصرفات الباردة والأحاديث الواهنة ووضعيات التماثيل. أمسكت بالمصفّف وقلت:

- اسمع. هل بإمكانك الصعود وإبلاغ ريا برحيلي؟

- وعلامَ أحصل في المقابل؟

ابتسم، ووضع يديه على وركيه فقلت:

- لا شيء البتة. ستقدّم لي خدمةً وقد أعفو عن رأسك حين اندلاع الثورة.

- سأقوم بذلك من أجل لهجتك وعينيك الواسعتين ورموشك الطويلة الطويلة.

استدار بخفّةٍ وصعد الدرج برشاقة حيوان اللامة.

عاد وقال:

- لم أعثر عليها. قالت جيني: وربما غادرت. نزلتُ الدرج واندفعت إلى الشارع حيث رأيتها تتكلم مع الرجل نفسه الذي كانت معه في الداخل. كان ثمة توتّر بينهما، وبدت ريا مضطربة

وهو غاضباً. انتظرت وراقبت من بعيد. فجأةً، أمسك الرجل بذراع ريا وجرّها نحو السيارة.

ركضت نحوه ودفعته بعيداً عنها.

راحت ريا تبكي، بينما سحب الرجل سكيناً من جيبه ولوّح به أمامي.

ركضت ريا نحوه، وتوسّلته:

ـ Non, Moshe. Arrête! C'est un ami à moi[1].

صاحت في وجهي:

ـ اذهب يا بسّام! لم تتبعني؟

جمدتُ في مكاني.

أمسكت ريا بذراع الرجل وبقيت تصرخ بي:

ـ Va-t'en![2].

ثم فتحت باب السيارة وقالت للرجل:

ـ Bien Voilá[3] سآتي معك.

دفع الرجل بها إلى السيارة، ومشى نحو جهة السائق، وقال لي ملوّحاً بإصبعه في وجهي:

---

(١) لا، توقّف! إنه صديق لي.
(٢) اذهب!.
(٣) حسناً إذن.

- سأتولّى أمرك لاحقاً.

قاد مبتعداً.

حفظتُ نمرة السيارة، وعدت إلى الحفلة أكرِّرها كالـ mantra. بحثت عن مصفِّف الشعر ونزعت منه حقيبته التي أخرجت منها قلم كحلة لأكتب به النمرة على الحائط سريعاً. ثم طلبت إليه أن يحضر لي ورقة، فاختفى ثم عاد ومعه علبة سجائر فارغةٍ، مزّقتها ودوّنت النمرة عليها.

حين غادرتُ طلب إلي مصفف الشعر أن أدوّن نمرة هاتفه أيضاً فصرخ ورائي:

- Putain de macho![1].

دوّى صدى كلماته عبر الدرج اللولبيّ.

وأنا في طريقي إلى الفندق راودتني فكرة الاتصال برولان، فقد يستطيع مساعدة ريا. اتصلت به من غرفتي وأيقظته من نومه وأخبرته القصة فقال:

- من الأفضل عدم التدخّل.

أغلق السمّاعة.

حلّ ظهر اليوم التالي وكنت لا أزال في السرير. اتصلتُ بريا في الصباح إلا أنّ أحداً لم يجب. أخيراً، توجّهت بعد الظهر إلى مكتب الاستقبال وقلت:

---

(١) نذلٌ رجوليّ!

ـ أنت صديقي يا حكيم أليس كذلك؟

ـ ضحك وقال:

ـ ماذا تريد؟

ـ مجرّد سؤالٍ صغير. هل أستطيع معرفة عنوان واسم أحدهم من نمرة سيارته؟

ـ دع النمرة هنا. قد يكلّفك الأمر قليلاً.

ـ كم؟

ابتسم وأردف:

ـ لاحقاً. سأرى ما الذي أستطيع فعله للأخ.

اتّصلتُ بريا مجدداً فردّت هذه المرة.

ـ سآتي لرؤيتك.

صاحت:

ـ لا!

أعدتُ:

ـ سآتي لرؤيتك.

ـ لا. لن أفتح لك الباب.

ذهبت إلى بنايتها واتصلت بالهاتف الداخليّ، فأجابت:

ـ امضِ من هنا!

أبقيت إصبعي على الهاتف.

وسرعان ما رأيت، من خلال زجاج الباب السميك عجوزاً يرافقها كلبان صغيران يشبهان قطع النقانق تتوجّه نحوي من المصعد. مشيت إلى الباب وحين فتحته قلت لها بقمّة التهذيب:

ـ دعيني أساعدك سيّدتي.

أبقيتُ الباب مفتوحاً للعجوز، ثمّ دخلتُ المبنى.

ركبت المصعد، وهرعت نحو باب ريا وطرقته.

فتحت الباب، لكنها حاولت إغلاقه لدى رؤيتي، فأدخلت رجلي إلى الداخل بالقوة وشرَّعتُ الباب.

صاحت:

ـ اخرج!

ركَضَتْ نحو المطبخ وأضافت:

ـ اخرج! اخرج!

كانت محيط عينها أسود وشعرها مشعّثاً، وكان التعب بادياً على وجهها.

ـ من الرجل الذي كان برفقتكِ الليلة الماضية؟

كرّرت:

ـ اخرج.

فتحت درج المطبخ، وأدخلت يدها فيه تقرقع باهتياجٍ المعادن، فأخرجت منه سكّيناً لوّحت به في وجهي، وأضافت:

ـ طلبتُ إليك ألا تتبعني وألا تتدخّل في حياتي.

اقتربت منها فتراجعت إلى الوراء على مهل. أمسكت بمعصمها وسحبت السكين من يدها، ثم جررتها إلى غرفة الجلوس، رميتها على الأريكة وقلت:

ـ أعرف أن جورج يريد مني أن أحميكِ، وسأفعل ذلك ما دمت هنا.

صرخت:

ـ جورج! لا يعرف حتى بوجودي. أنا حرة أتفهم؟ لا تتدخل في حياتي! سأخبر الشرطة بأمرك وأعيدك إلى جورج وإلى أيّ مكانٍ أتيت منه!

لوّحت بيديها في وجهي، ثم أخذت نفساً عميقاً، وأسدلت يديها وقالت بصوتٍ لطيف:

ـ غادر من فضلك فأنت تسبّب لي مشاكل.

دفعتني بلطف فسألتها:

ـ من هو؟ ما هو اسمه الكامل؟

ـ Vas te faire foutre[١].

ـ لا يضرب أحد أخت جورج، ولا يشهر أحد سكيناً في وجه أيٍّ منّا. سأجدك يا موش.

---

(١) اذهب إلى الجحيم.

عبرت الباب فقالت، وهي تتبعني:

ـ أجل اذهب! وخذ هذا معك. رمت الظرف نحو ظهري وأضافت:

ـ غادر، ولا تتدخّل بشؤون غيرك يا Collant de merde![1].

أخذت الظرف وركضت على الدرج. كان فيه تذكرة إلى كندا، وكان موعد الرحلة بعد ستة أيام.

عدتُ إلى الفندق على مهلٍ. وحين وصلت، اتّصلت بالجنرالات وأخبرتهم بوجوب البحث عن رجل الليلة الماضية ووضع خطة. بعثتُ جنديّاً يستجوب الرجل عند مكتب الاستقبال ليسأله إن كان قد حصل على المعلومات حول نمرة اللوحة، فعاد بجوابٍ سلبيّ. ذرعنا أنا والجنود المكان جيئةً وذهاباً ودخنّا الغليون. كان بعضهم يضع رجليه على الطاولة مستعرضاً جزمةً طويلةً. وكانت غرفة العمليات تفيض بالدخان والخرائط الموضوعة على الطاولة والتي أظهرت بالتفصيل أنهاراً وجبالاً وسهولاً طويلةً.

أعلن جنرال له شاربٌ أبيضٌ معقوف: علينا الهجوم قريباً، قبل سفرك إلى القارة الجديدة يا صاحبي!

وافقتُ. وقرّرنا فضّ الاجتماع ليذهب كلّ منا في طريقه وينتظر سماع أخبار العدو.

---

(١) يا حثالة!

أرسلت جنديّاً ليسأل عامل الاستقبال عن نمرة لوحة السيارة على مدى يومين وبقي الجواب على حاله: أنا أعمل على الأمر. أخيراً وفي اليوم الثالث دخل رسولٌ على صهوة جواد إلى المجمّع العسكريّ وقال لاهثاً: حصلنا عليه.

فتحت الرسالة، وقرأت فيها أنّ السيارة مسجّلة باسم ماني وشركائه، جول فافر، **٥٢**، شارع الكومون.

اتّصلت بالثوريين فالتقينا وقرّرنا تنفيذ خطة الهجوم. ذهبت إلى العنوان المدوّن في الرسالة وراقبت المكان.

رأيتُ أخيراً الرجل الذي كنت في انتظاره يقود السيارة عينها. أوقف سيّارته في المرأب ودخل المبنى. انتظرتُ قليلاً ثم دخلت وراءه وشاهدته أسفل الدرجات اللولبيّة بينما تسلّقت سترته الجلديّة نحو السماء.

عدتُ إلى المنزل واستشرت زملائي المحاربين. بقينا يقظين طوال الليل ونحن نحضّر للهجوم. نزلتُ بعد ظهر اليوم التالي إلى قبو الفندق. فتحت هناك سلال النفايات ونظرتُ داخلها، ثمّ مشيت في القبو أبحث، إلى أن وجدت أنبوباً معدنيّاً مرميّاً على الأرض بين مجموعةٍ من الكراسي القديمة وطاولةٍ مكسورةٍ ومغسلةٍ قديمة. أخذتُ الأنبوب وأدخلته في كمّي، ثمّ صعدت الدرج إلى غرفتي. اتصلت بملازمي وأعلمته بوصول الذخيرة فجلب الأحصنة وامتطيناها تلك الأمسية إلى منطقة العدو. كانت سيارة عدوّنا مصفوفةً في الشارع. فتوجّهت إليها ورحت أهزّها

إلى أن راح جهاز الإنذار يدويّ. خلعتُ قبّعتي وصعدت درج الشقة، واختبأت بين طابقين أنتظر أن يفتح أحدهم الباب.

رأيت عبر نور القمر الباهت خيال رجلٍ يهرع على الدرج. أمسى أمامي فأنزلتُ قبعتي فوق عينيّ وقلت له في صوتٍ مكتوم: طاب مساؤك. ما إن جاوزني حتى ضربته من الخلف وقبل أن يتسنّى له الفرصة ليستعيد وعيه هرعتُ إليه وضربته بالأنبوب الذي بين يدي مرات عديدة. فتّشتُ جيوبه، وأخرجت منها محفظته وأخذت مفاتيح سيارته من الأرض. ركضتُ على الدرج وامتطيت جوادي مجدداً. وجرينا عدواً عبر الأرصفة الباريسيّة فيما سمعنا في الخلف جهاز إنذار السيارة ينوح في ألمٍ وأسى.

راودتني سلسلة من الكوابيس تلك الليلة. رأيت نفسي في أحدها أغرق في يمٍّ واسعٍ تقلّص ليتّخذ شكل حوض.

حلمتُ أيضاً برولان يصبّ لي نبيذاً ثمّ يدور حول الفرن الشديد الحرارة لأرى وجه رامبو يقول لي: سنعيدك إلى وطنك يا «حبّوب»! ركضتُ في أحد كوابيسي على الدرج، فظهر جورج أمامي مبتسماً وبيده مسدس. وقف عند الدرج واتكأ على الجدار ولقَّم مسدّسه.

استيقظت والعرق يتصبّب منّي ولم أدرك أنني في باريس إلّا بعد بضع دقائق. هرعتُ إلى باب غرفتي وتأكّدت من أنه مقفل، ثم أقفلت باب الحمّام أيضاً. جلستُ عند النافذة وتأمّلتُ في العتمة لأتأكد أن باريس لا تزال هي هي.

بقيت الذكريات، على الرغم من ذلك، تجتاح خيالي بسرعة ولم يغمض لي جفن. فكّرت في جورج وتوقّعت من رامبو أن يدخل غرفتي ليطلب إليّ المضيّ. نعتُّ نفسي بالجبان وبسواه من الألقاب، لخوفي من شبح البوهيمي المتوفّى. فأنشدت مراراً وتكراراً:

الأموات لا يعودون. الأموات لا يعودون.

شتمتُ رولان لأنه طلب إلي التخلّص من مسدّسي، ولمت كل شيءٍ على غيابه. لم تراودني هذه الكوابيس يوم كان مسدّسي يرقد تحت وسادتي.

ذرعتُ غرفتي جيئةً وذهاباً ودخّنت بكثافةٍ، لأنّ السيجارة هي أكثر ما تقت إليه في زنزانة التعذيب القابعة تحت الأرض.

تذكّرت كيف كنت أتساءل عن التدخين تحت الماء، حين كان رامبو يمسك بعنقي ويملأ أنفي بالمياه الباردة. وتذكّرتُ كيف كانت والدتي تدخّن وهي كانت تسرق الماء من خزّان الجيران. كنت أراقبها أيام طفولتي، وهي تتسلّق الأنابيب السميكة لتصل إلى خزّان المياه، فتبهرني وهي تغطّس الجزء الأعلى من جسدها بأكمله، وكذلك السيجارة المتدلية من شفتيها، داخل الخزان المعدنيّ، وتصعد مجدداً بيدها دلو تفيض بالماء، وعلى شفتيها سيجارة مضاءة. كنت أشاهدها تقف على أصابع قدمَيْها كراقصة باليه قبل كلّ غطسةٍ، وتعرض فخذيها فوق هامتي القصيرة للحصول على المياه، ثمّ تتمتم بشتائم كالبحار (شتائم يدوّي صداها داخل خزّان المياه) لتلعن حياة التضحية

وزواجها من والدي، ذلك المقامر الذي لا يصلح لشيء. مرّت سنواتٌ وغطستُ أنا على غرار والدتي، تحت إشراف معذّبي؛ غطّستُ الجزء الأعلى من جسدي وأنا أفكّر في سيجارة والدتي السليمة ماركة العنقاء التي لم تكفّ يوماً لا عن الاحتراق ولا عن الموت. وحين همس رامبو في أذني ليؤكّد لي موتي القريب، ارتحت لغياب والديّ، لأنّ موتي، على غرار كلّ موتٍ عليه أن يكون موتاً، نهايةً من دون ذكرى أو صورة أو قصص ومن دون دموع أمّ. فيجب أن يتوقّف كلّ شيء عند الموت. وكلّ شيء آخر ليس سوى غرور إنسان وأشياء وهميّة.

مرّت السيارات في الصباح التالي، وزمّرت وشطرت أعلام فريق كرة قدمِ الرياح، ورفرفت فوق السيّارات، ورقص الناس في الشوارع يشربون ويغنّون بصوتٍ قوي. فتحت النافذة فارتفع الصوت. وحين أغلقتها، استقرّ الصوت كما تستقرّ الشراشف التي وضعتها عاملة التنظيف في الفندق على سريري البارحة، الماضي، في حين أنني جلستُ أمامها أشاهد الشراشف تهبط على مهلٍ وبرشاقةٍ كطيران الحجل فوق المياه المشمسة.

راقبت عاملة التنظيف وهي تتوارى داخل الحمّام وترمي المناشف في سلّة المهملات، متجاهلةً وجودي. وربّما شعرت بنظراتي الشهوانية تخترق تنّورتها القصيرة، أو بعينيّ وهي تفكّ مئزرها الأبيض. شكرتها على كلّ كأسٍ غيّرته وكل ورقةٍ لمّتها. شكرتها على كلّ انحناءةٍ وكل كنسةٍ وكلّ غطاء وسادةٍ داعبته وكلّ لحافٍ رتّبته. عرضتُ عليها سيجارةً، فابتسمت وقالت إنها

لا تدخّن، وأخذت منفضتي لتفرغها في كيس. سألتها عن اسمها وعن بلدها. وحين أمسكت بيدها وقلت لها، «سوف أنتظر قدومكِ إلى غرفتي كل يوم، يا ليندا البرتغالية! دعيني أداعب نهدك وأرتمي فوقك برشاقةٍ»، سحبت يدها وهرعت خارج الغرفة وهي تجرّ عربة التنظيف نحو مصعد الحمولة، وتخرج رأسها من الأبواب وهي تُغلق، لتتأكّد من عدم لحاقي بها لأمسك بخصرها، وأعرض عليها المال، وأتنفّس في أذنها، وأوقف المصعد، وأفك مئزرها الأبيض.

جاء بعد ذلك رجلٌ أكبر سنّاً لينظّف غرفتي. كان يدفع العربة ذاتها ويرمقني بنظراتٍ تقول: أعرفك، أعرف جنسك الذي يقتات على خادمات المطبخ، وعلى الأمّهات الوحيدات اللواتي يعملن بكد، والعمّال غير الشرعيين وعاملات التنظيف الصامتات. لم يحيّني وعاملني بازدراء، محوّلاً طيران الشراشف البيضاء الناعم إلى شلالات انتحاريّة وتحطّم طائرات، حارماً إياي من الهبوط الرشيق الذي تقت إلى الحصول عليه من يديّ ليندا.

ـ أين ليندا؟

أجابني بالفرنسية التي تخلّلتها اللغة البرتغالية، وكان عنيفاً:

ـ ابتعد عن ابنة شقيقي، هل تفهم؟

بصق على السجادة، وأغلق باب الخزانة بقوةٍ وراءه.

تلقيتُ ذلك اليوم دعوةً من ريا: تعال لرؤيتي أرجوك. الأمر مهمّ.

ذهبتُ إلى منزلها ففتحت لي الباب من دون أن تنظر إليّ أو تتفوّه بكلمة. جلستُ عند النافذة، في حين أنها اختارت الجلوس على أبعد كرسيٍّ منّي.

- اتّصلت بنا السفارة الفرنسية في لبنان للتوّ. حاولنا إصدار جواز سفرٍ لجورج. لكنهم لم يتمكّنوا من إيجاده. أرسلوا أشخاصاً إلى منزله، وسألوا عنه. كما اتّصلوا بفرد من الميليشيا، ولم يتوصّل أحد إلى معرفة مكانه. فتّشوا في المستشفيات والمشارح، لكن دون جدوى. أنت تعرف شيئاً أليس كذلك؟ أجل تعرف شيئاً ما؛ أشعر بأن ثمّة أشياء لم تخبرني عنها. ماذا حصل له في رأيك؟ أكره صمتك. أنظر إلى عينيك! إنّك لا تنظر في عينيّ حتّى. لا يهمّك الأمر أليس كذلك؟ لا يهمّك الأمر. تكلّم، تكلّم.

نهضتُ وهممت إلى المغادرة، فصاحت:

- أرجوك أخبرني، أرجوك.

لم أتفوّه بكلمةٍ، وغادرت منزلها:

- بسام! أخبرني بسّام. قل أيّ شيءٍ أيها النذل!

ذهبتُ إلى النهر، وجلست هناك على مقعدٍ، وشاهدت المياه الجارية والغيوم العائدة. عزمت على أمر ما، فنهضتُ وعدتُ إلى منزل ريا.

قرعتُ جرس الباب لكنها لم تفتح. وقفتُ في الشارع المقابل وناديتها، لكنّها لم تجب. انتظرت، ومرّت عشرة آلاف

سيارةٍ وراقبتُ واستنشقت دخانها إلى أن توقّفت إحداها في الشارع. تعرّفت إلى رولان يجلس في الداخل مع الرجل الذي ضربته بالأنبوب. اختبأت وراء جدارٍ وراقبتُ رولان يترجَّل. اقترب من النافذة وتبادلا الكلمات فأومأ من بقي في السيارة كأنّه موظف، وذهب رولان، وقرع جرس ريا.

انتظرتُ الآن في شوارع باريس كأسدٍ جائعٍ قليل الصبر ينتظر حلول الليل. هطل المطر وبقيت منتظراً أشاهد خبوّ كلّ ضوءٍ، وكلّ أشعّةٍ غادرت واختفت وراء الطرف الآخر من الأرض. هرعتُ إلى الجسر حين طلع الليل من تحت الأنهار، حيث رميت المسدس. رأيت ناراً صغيرةً تومض وبضع رجالٍ عجزة يلتفّون حولها حاملين بين أيديهم التعيسة زجاجة نبيذ يشربونها بأفواههم الخالية من الأسنان. توجهتُ مباشرةً إلى الحبل الذي تركته هناك وسحبته إلا أنّ الوزن الثقيل منع المسدّس من العودة إليّ. حاربتُ عشرة آلاف شيطانٍ تمسّكوا بالطرف الآخر من الحبل. كانوا يعدّون جميعهم إلى ثلاثة كحركة الأمواج الثابتة ويسحبون الحبل في الوقت عينه. لففتُ الحبل حول ذراعي وسحبته نحوي بكلّ ما أوتيت من قوّة. غير أن الشياطين هزأت بي بظهورها المقوّسة الشعرانيّة، وبأجنحتها المجرّدة من الريش وبأصواتها المغنّية الغليظة الخانعة الحقودة. فرحوا وهم يشاهدونني أتعلّق على حجارة الجسر وأعمدته المعدنيّة، وأنتقل من جنبٍ إلى جنب لأحوم فوق المياه المظلمة.

توغّلت في النهر، وكان طيف النار التي أوقدها الرجال

العجزة يرقص سطح الماء، فغطست رجلي فيه. دخلتُ النهر وسحبتُ الحبل من تحت ثقل الرمل والفضلات المبعثرة. تقدّمتُ نحو العشرة آلاف مخلوقٍ القابعين تحت ضفاف النهر وكبّرت المياه رجليّ جاعلةً مني محارباً عملاقاً في رحلةٍ شجاعةٍ نحو الجحيم. حرّرتُ الحبل على مهلٍ من ثقل التنكات المفتوحة التي قرقعت كصلبانٍ معدنيّةٍ وطردت الشياطين بعيداً. غطستُ تحت الماء وشاهدني الرجال أغرق، فصاحوا، ونادوني لأخرج من المياه. وطلبوا أن أتراجع، وألا أنصت إلى التيّار وحوريّاته الشريرة.

بيد أنني حفرت التربة القابعة تحت النهر بيديّ العاريتين، وسحبتُ رزمة النايلون وشعرتُ بثقل مسدّسي مجدداً. حملته تحت ذراعي وهرعت إلى حافة الحجر المصقول لأحفّ الحبل الملفوف حول الأكياس إلى أن انقطع، فتحرّر مسدّسي.

مشيتُ فوق الشوارع المبلّلة ومنها إلى بوابات المدينة حاملاً مسدّساً في يدي.

٢١

كانت المياه تحتي وداخلي؛ كذلك انهمرت من الغيوم العابرة فوقي.

غطّيتُ مسدّسي بسترتي، وعدت إلى فندقي. وقبل أن يتسنّى للحاجب إدلاء تعليقٍ عن بللي صعدت الدرج نحو غرفتي. دفعت بكرسيٍّ نحو الباب وخلعت ثياب الرجل الميت، وتركتها تقطر على الكرسيّ. استحممت بعدها بمياهٍ دافئةٍ، وارتديت ثيابي القديمة، وسرقت الصابون من الحمّام، ووضّبت حاجاتي، وتسلّلتُ على الدرج نحو القبو، وخرجت عبر المطبخ إلى الزقاق الصغير في الخارج. توقّف المطر.

ركبت القطارات طوال الليل إلى حيث لا أدري. شاهدتُ الأبواب تُفتح وتُغلق وتبتلع بشراً لتنقلهم من مكانٍ إلى آخر. جلستُ في زاوية القطار كما كان جورج يفعل دائماً. كان يقول لي: اجلس دائماً وظهرك بمحاذاة الجدار، ودع المسدّس يتدلّ بحريّة.

توقّفت القطارات بعد منتصف الليل، وترجّلتُ منها إلى

حيث لا أدري. فكرتُ في ملازمة المحطة، إلا أنّ رجال الشرطة كانوا يحومون هناك باستمرار. فمشيتُ، وجلستُ في الأزقّة خلف أبواب المطاعم، حين كنت أشعر بالتعب. دخّنت وأحصيتُ عدد قطرات المطر الصغيرة التي سالت عبر الجدران لتنزلق عن مصابيح المدينة.

اتّصلتُ بالفندق في الصباح. وفكّرت في إعطاء إكراميّةٍ لليندا والاعتذار لها عن نظراتي الشهوانية الملتهمة، وعن عيوني التي طاردتها من مكانٍ إلى آخر.

سألت:

ـ أتعمل ليندا اليوم؟

ـ ليندا؟

ـ نعم، عاملة التنظيف.

توقّف الصوت برهةً، ثم أضاف:

ـ لا، فاليوم دور عمّها.

ـ متى ينهي نوبته؟

ـ ظهراً.

انتظرتُ ظهراً في الشارع خارج الفندق.

رأيتُ الرجل العجوز فتبعته. كان يحمل حقيبةً تحت يده ويمشي بمحاذاة الجدران محنيّ الرأس، يعدّ حجارة الرصيف.

تبعته، وصحتُ خلفه:

ـ سينيور! سينيور!

استدار الرجل العجوز وتوقّف، لكنّه لم يتعرّف إليّ.

ـ سينيور، أنا الرجل الذي يقطن في الغرفة رقم ٢٠١.

استدار وابتعد. مشيت قربه كالكلب، أحني رأسي وأبحث عن عينيه.

ـ سينيور، أودّ محادثتك.

لم يقل شيئاً.

ـ سينيور، أودّ فقط إخبارك بأنني نادمٌ على ما قلته لليندا.

عندها توقّف، ونظر إلى عينيّ قائلاً:

ـ يظنّ أمثالك أن باستطاعتهم استغلال الفتيات العاملات المسكينات.

ـ لا سينيور، فأنا أحترمهنّ.

ـ تحترمهنّ!؟

صمت لبرهةٍ وأردف:

ـ كانت خائفةً. وعملها يستدعي مقابلة رجال مثلك طوال الوقت. في الليلة الماضية كان ثمة رجل عجوز يداعب عضوه. عرف أنها ستدخل فلم يجب حين طرقَتِ الباب. إنها فتاة جيّدة وأمثالكم..

تلفظ كلاماً باللغة البرتغالية لم أفهمه، ورحل.

ـ سينيور، بلّغ ليندا تحيّاتي واحتراماتي. قل لها إنني آسفٌ وإنها فتاة جميلة.

ـ لا.

ـ أرجوك سينيور!

هرولتُ بالقرب منه.

ـ أتيتَ إلى هذا البلد أيها الشاب ولم تفعل شيئاً. أما أنا فقد هاجرت من البرتغال حين كنت في سنّك وأخذتُ ليندا معي بعد أن قتل والدها على يد الديكتاتور سالازار. عملتُ لأربّي ابنة أخي، وهي فتاة مهذبة. أنت لا تستحقّ شعرةً من شعرها!

لوّح بيديه حول صدره، فقلت:

ـ بلى سيّدي، بلى.

ـ لا. فأنت رجلٌ غارق في المتاعب.

ـ لم تقول ذلك يا سينيور؟

ـ أتت الشرطة البارحة وفتّشت غرفتك في الفندق.

ـ الشرطة؟

ـ نعم. اثنان منها.

ـ أمتأكد من أنهما شرطيان يا سينيور؟

ـ اذهب، وكفّ عن اللحاق بي.

ـ هل كان أحدهما مضمّداً يا سنيور؟

ـ ارحل.

ـ أكان رأسه مضمّداً؟ أرجوك قل لي يا سينيور.

ـ نعم! والآن اغرب عن وجهي.

ـ شكراً لك يا سينيور، وقل للليندا إنني سأتذكّر دوماً طريقة قلبها للشراشف وعينيها المستديرتين الجميلتين. قل لها إنني سأرتدي الأسود ليتماشى مع رموش عينيها الطويلة.

لوّح بقبضته في الهواء، وشتمني قائلاً:

ـ Conyo!.

أكمل طريقه يعدّ حجارة الرصيف، ويتمتم إلى الجدران، وينزل إلى محطّات القطار، وينتمّ مجدداً ويبصق على الأرض.

اتّصلتُ بريا.

ـ لا تتصّل بي أبداً. أو اتصل حين تكون مستعداً لإخباري بشيءٍ مهم. لقد مللتُ تعلّقك وأسرارك.

كذبت، وقلت لها:

ـ لديّ اجتماع مع رولان في منزله قبل سفري إلى كندا، لكنني نسيت العنوان.

ـ ٣٥ شارع فوشون.

أغلقت السمّاعة فوراً.

ركبت القطار وتوجّهتُ إلى منزل رولان. راقبتُ مدخل بيته

من الشارع المقابل. بعد قليلٍ، رأيتُ الرجل الذي ضربته بالأنبوب يقود سيارته الكبيرة. انتظرت حتى أوصل رولان وغادر، فهرعت إلى الباب ودخلت إلى المنزل خلفه. أخرجت مسدسي وألصقته بالقرب من كبده.

- فلنشرب الشاي.

استدار رولان على مهلٍ وابتسم حين رآني.

- Ah, te voilà[1] بحثنا عنك الليلة الماضية، تساءلنا عمّا إذا كنت ستغادر اليوم.

- أعرف. لهذا السبب أتيت.

خلع قفازيه ومعطفه.

قال بهدوء:

- لا حاجة إلى المسدّس. تعال اجلس.

دخل إلى غرفة الجلوس وجلس، في حين أنني جلست على كرسي في الزاوية، وتركت مسدّسي يتدلّى بحريةٍ في يدي.

- أنت أحمقٌ مغفل. اسمع. سأعطيك فرصة أخيرة. أنزل ذلك المسدّس.

رفعته وصوّبته إلى وجه رولان.

- أنا الذي يمنح الفرص هنا.

(١) آه، ها أنت ذا.

أومأ برأسه وقال:

ـ حسناً إذن.

ـ الرجل ذو الضمادة يعمل لحسابك.

ـ أتعني موش؟ نعم.

ـ هل طلبت إليه أن يضرب ريا؟

ـ من اللافت أن الأمر يعنيك. اجلس ولا تكن رومانسيّاً أحمق.

ـ لِمَ ضربتها؟

ـ لأنّها لي. لطالما كانت ريا ملكي، منذ أن كانت في الخامسة عشرة من عمرها. هل تفهم؟ كان والد ريا يعمل لدينا. وبعد وفاته، اهتممتُ بها. فوالدتها تدمن السرقة، وهي امرأة مجتمع فارغة، وكانت ريا تعاني الإهمال. اسمعني يا فتى، أنت تدخل الآن مناطق خطرة. لكن الخبر الجيد هو أننا في حاجة إلى شيء منك.

ـ ليس لديّ شيء لكم.

ـ نودّ منك إخبارنا عمّا حصل لجورج.

ـ ولم يهمّك أمره؟

ـ كان جورج يعمل لحسابنا؟.

ـ حسابكم؟

ـ نعم لحساب الموساد. لحسابنا. جنّدناه حين كان في رحلته إلى إسرائيل. يعرف جورج كلّ شيءٍ عن والده. شككنا في أمر تعامل أبي نهرا مع السوريّين، قد يتقرّب منهم أكثر، وخصوصاً الآن بعد اغتيال الريّس الذي كان رجلنا في المنطقة. لقد سلّحنا رجال الميليشيا التابعين له ودرّبناهم وأعطيناهم الخطط. وأنت تعرف أن جورج ظلّ يتتبّعه، حتى غدا مقرباً منه. كان أبو نهرا يثق به.

ـ هل كان جورج عميلاً؟

ـ نعم كان عميلاً ذكيّاً وناجحاً. وهكذا ينبغي أن تكون ذكياً وناجحاً يا بنيّ. أخبرنا عن مكان جورج. نحن نعرف أن آخر مرةٍ رأوه فيها كان قد تطوّع ليقلّك من منزلك. أراد أن يطرح عليك بعض الأسئلة عن تورّطك بعملية اغتيال الريّس. فنحن على علم؛ لدينا عملاء بين أولئك المسيحيّين. جلّ ما علينا فعله هو السؤال. فرصتك الوحيدة هي في التكلّم معنا، فأنت لا تستطيع الذهاب إلى أيّ مكانٍ من دون موافقتنا. هل تفهم؟

ـ ما مدى معرفة ريا للأمر؟

ـ لا تعرف إلّا القليل. لا تعرف إلّا بشأن حاجتنا إليك لتخبرنا المزيد عن جورج.

ـ ماذا عن التأشيرة إلى كندا؟

ـ كان سيتمّ إيقافك في مطار باريس وسجنك بتهمة الاحتيال... وكنّا سنتدخّل ونعطيك خيار التحرّر، ونوكّل لك

محامياً جيداً، إذا ما أخبرتنا عما جرى حقاً لجورج، كنت ستُسجن. وأي مكانٍ أفضل من سجنٍ شرعيٍّ لحبسك؟ وإن اخترت عدم التكلم، فكنا سنرسل إليك شاباً ضخماً لطيفاً ومحبّاً ليكون صديقك. هل فهمت قصدي؟ أنت تافه في هذه اللعبة، تافه للغاية. سأمنحك دقائق قليلة للتفكير. دع المسدس على الطاولة إن كنت تريد التكلم وربّما استطعنا القيام بشيءٍ من أجلك. واعلم أنك لن تذهب إلى أي مكانٍ ما لم تتكلّم، صدّقني.

وقفتُ وصوّبت المسدس في وجهه، وقلت:

ـ ضع يديك على رأسك.

فعل، ففتّشته وأخذت محفظته ونظارته الشمسيّة. كما أخذت بضع مئاتٍ من الفرنكات كانت في محفظته.

ـ على الأرض.

ـ سيصل رجالي إلى هنا في غضون دقائق. أمنحك فرصة أخيرة.

ـ لا تتحرّك وإلا قتلتك.

ـ أنت لصّ مثير للشفقة! أنت أحمق.

دهست النظارة، وهشمتها، ثم هرعت إلى الهاتف الموجود على طاولةٍ قريبةٍ وسحبت الشريط من الحائط ربطتُ يديّ رولاند بالشريط وأخذت مفاتيح منزله من جيبه. توجّهتُ نحو الباب وفتحته على مهل. لم أرَ شيئاً لذا أغلقته خلفي وأقفلته. ركضتُ

على الدرج ومنه إلى الشارع. ثم عبر الأزقّة الخلفية، لأتوجّه إلى منزل ريا.

وصلتُ. واتّصلت بها من كشك هاتفٍ قبالة منزلها.

ـ ألم أطلب إليك ألا تتصل بي مجدداً؟ في أي حال، ألم يحن موعد سفرك؟

ـ أودّ إخباركِ عن جورج الآن.

صمتت لبرهةٍ ثم قالت:

ـ أخبرني.

ـ الخبر سيئ. إنه سيئ. أنا في الشارع المقابل افتحي الباب لي.

وافقت. فصعدتُ الدرج، لأنني لم أرد انتظار المصعد المعدنيّ، ليقلّ معه دقّات قلبي.

فتحت ريا الباب وهي تبكي. ضمّتني لبرهةٍ، ثم تراجعت، وكأنّها أدركت أنها بين يديّ رسول الموت، ووضعت يدها فوق فمها.

ـ إذاً كنت تعلم طوال الوقت ما حدث لجورج.

ـ آخر مرةٍ رأيته فيها كانت قبل مغادرتي.

أومأت بيدها لكي أدخل. دخلتُ، فأدارت ظهرها لي وراحت تبكي. وضعتُ يدي على ظهرها، لكنها هزّت رأسها. أمسكت بكتفيها، وأدرتها نحوي بلطف، فوجدتها لا تزال تبكي والدموع تنحت وجنتيها.

ـ كان جورج أخي.

أخذتُ نفساً عميقاً، ثم تكلّمتُ من دون توقّف:

ـ صعدت أنا وجورج إلى الجبال، مصطحبَين بندقيتي صيد. وقفنا ساكنَين كالأفاعي، حاملين بندقيتين منتصبتين وباروداً سامّاً. وقفنا ساكنَيْن، وانتظرنا ريثما تنحني الأغصان تحت ثقل الريش أو تنحني لنداء تزاوج. أصبنا عصفوراً صغيراً فحملته في يدي. صاح جورج: اقتله وهو لا يزال حيّاً! هيا اقتله! ولكنني لم أستطع قتل العصفور الصغير. كان يفتح منقاره ويغلقه بصمت وكأنه يطلب منّي الماء. وراحت عيناه تنغلقان في راحتي. بدا أخوك غاضباً وصاح: هيا اقتله! لِمَ تنظر إلى ذلك العصفور الجريح؟ اقتله وأرحه من عذابه. اقضِ عليه!

لكنّني كنتُ أنتظر ليطير العصفور مجدَّداً، فانتزع جورج المخلوق الجريح من يدي المفتوحة ووضعه على صخرةٍ وراح يضربه بطرف بندقيته على رأسه المرة تلو الأخرى، ثم ابتعدنا بحثاً عن المزيد.

ـ لِمَ تخبرني هذه القصة؟

ـ لم نقتل العصافير فقط.

ـ هل قتلتم بشراً؟

ـ نعم.

أخبرتها عن قتل خليل، وعن ضروب احتيالنا وجدالاتنا

الصامتة، وعن انضمام جورج إلى الميليشيا. أخبرتها عن السيّد لوران وعن نيكول وعن عملية تعذيبي.

أصغت ريا إليّ، وهي تتكّئ بجسدها على المغسلة، فتنظر إلى عينيّ تارةً، وتارةً أخرى إلى الأرض، أو السقف. ثم قالت:

ـ حسناً، إنك تخبرني كل هذا، لكن أين جورج الآن؟

لم أجبها مباشرةً. وعوضاً عن ذلك، أكملت حديثي عن المجزرة التي جرت في المخيّم. وصفت لها ما أخبرني به جورج عن الأضواء والكلاب والعصافير والجثث التي تراكمت بعضها فوق بعض وتعفّنت، وعن الفؤوس وأنهار الدماء السائلة.

تكلّمت وكانت ريا تهز رأسها. قاطعتني أخيراً، وصاحت:

ـ كفى. لا أعرف... لا أعرف لماذا جئت إلى هنا ولماذا تخبرني كلّ هذا!

هزّت رأسها مجدداً، وأكملت:

ـ انتظرتَ كل هذا الوقت لتحدّثني. أتظنّ أنها لعبة؟ انتظرتَ. وأين أخي الآن؟ أخبرتني كل هذه الأمور، ولا أعرف إن كانت صحيحةً حتى. لا نعرف من أنت. أنا لا أعرف من أنت. ومع هذا، تأتي وتخبرني عن كل تلك الأمور الشريرة.

تجاهلت صياحها، وتجاهلت عينيها الصغيرتين وخدّيها المرتعشين وفستانها البنيّ. تجاهلت اعتراضها وأمسكت بظهرها حين حاولت مغادرة الغرفة، واحتجزتها بمحاذاة مغسلة المطبخ. أخبرتها عن الليلة التي قام أخوها باصطحابي إلى تحت الجسر.

ـ الأمر برمّته يربكني. قصصك ليس لها أيّ معنى. لا أعرف هؤلاء الناس الذين تتكلّم عنهم. تأتي إلى هنا بهذه الطريقة، وتتوقّع مني الإنصات إلى هذا كلّه. عليّ الرحيل. دعني أرحل أرجوك.

لكنّني كنت بلا رحمة، وأكملتُ:

ـ جلست أنا وجورج في السيارة تحت الجسر، وتجادلنا. جاء ليقلّني إلى مقرّ الميليشيا قبيل رحيلي عن لبنان. لم أرد الذهاب معه، ولكنه قبّلني وقال لي إنك أخي. جعلني أدخل سيّارته، ومضينا تحت جسر النبعا. لقد أرسلوا أخاك ليعيدني إلى معذّبي؛ ويقتلوني بعد ذلك. لكنّه قال إنه سيعطيني فرصة. فلعب بمسدّسه، وملأه بثلاث رصاصاتٍ ولقّمه. ابتسم، ثم قال لي إنه سيمنحني فرصة.

أخذتُ المسدس من يده، وصوّبته على رأسي من دون أن يرفّ لي جفنٌ، من دون أن أعطي لنفسي فرصةً للتفكير في البحر والباخرة والمكان الجديد الذي تقت إلى ارتياده، ثم ضغطتُ على الزناد، لكن الرصاصة لم تنطلق.

وضعت المسدّس على المقعد قربي فابتسم أخوك. أخذه على مهلٍ ولم يكن خائفاً، فقد كان هادئاً وشجاعاً أكثر من ذي قبل. حمل المسدّس في يده ثم أدار رأسه نحوي وابتسم لي وأطلق النار.

قرّبت ريا يدها من فمها، وصارعت لتفلت من قبضتي وقالت:

ـ كنت تعلم عن هذا كلّه. كنت تعلم، و...

دفعتها، وقلت:

ـ دفنته هناك. دفنته هناك تحت الجسر. وقع المسدس عند قدميّ، وانهار جورج عليّ. كان ثمة جرح مفتوح، استطعت من خلاله رؤية الجهة الأخرى من وجهه وقطعةً من دماغه تتدلّى. أمسى الزجاج الأماميّ أحمر، وانسكب السائل الأحمر منه ليتدفّق كالمطر نحو لوحة أجهزة القياس. جلستُ وشاهدتُ المنازل والسيارات العابرة تغرق كلها تحت المطر الأحمر على مهل. انسدل شعر دي نيرو على حضني فداعبته. داعبته.

لمستُ شعر ريا من غير تفكيرٍ، فجمدت في مكانها خائفةً. أمسكت كتفيها جيداً، وأكملت:

ـ طمرته تحت الجسر. جررته فوق المجارير نحو كومةٍ من الحجارة ووضعته إلى جانبها. أخذت أول حجر كبير رأيته، ووضعته بمحاذاة رأس دي نيرو، ثمّ وضعتُ حجراً آخر على الجهة الأخرى. أحطته بالحجارة، ثم عدتُ إلى السيارة، وأخذت مسدسه وبندقيّته، ووضعتهما إلى جانبه. غطّيته بالحجارة والصخور، ثم حملت الرمل بين راحتيّ لأملأ به الفراغات ما بين الحجارة. إنه هناك. أخوك تحت الجسر هناك.

هل تريدين معرفة أخباره؟ اسمعي، اسمعي. عدتُ إلى السيارة وجلست على مقعد القيادة. كان الزجاج الأمامي مضرَّجًاً بالدم، فحاولتُ مسحه بيدي إلا أنّ ذلك جعل الأمر أسوأ، فأضحى أسمك مع خطوطٍ عريضة. راح الدم يجفّ بسرعةٍ

ويمسي داكناً. لذلك عدت إلى كومة الرمال وأخذت بعضاً منها، وحاولت مسح الزجاج بها، فأمسى كل شيءٍ وحلاً أحمر الآن، كذلك النهر الأسطوري في أرضنا. جلّ ما وددته هو رؤية الطريق، وددت رؤية شيءٍ آخر إلى جانب تلك المدينة المشؤومة. أردتُ المغادرة فحسب.

نظرت ريا إلى عينيّ ثم أدارت كتفها قليلاً، لكنني أمسكت بيديها وقلت لها بصمت:

ـ دعيني أكمل أرجوك.

بالكاد أومأت، وشعرتُ بجسدها يرتخي بوهنٍ، وبركبتيها تنحنيان فتكادان تلامسان ركبتيّ.

ـ كسرتُ زجاج تلك السيّارة. ورجعت لأختار أكبر صخرةٍ أستطيع حملها، ووضعتها على غطاء محرك السيارة. عدت إلى داخلها، وأخرجتُ سترةً من حقيبتي ووضعتها على مقعد القيادة. ثم خرجت منها، ووقفت على الغطاء وحملت الصخرة ورميتها على الزجاج الأمامي فتهشَّم الزجاج إلى مليون قطعةٍ صغيرة.

أخذت سترتي عن المقعد، ولوّحت بها لأتخلّص من كل الحجارة الصغيرة. كنت محاطاً بعشرة آلاف ماسةٍ تبرق باللون الأخضر والأحمر. ضحكتُ. ثم انطلقت بسرعةٍ، فنفذت الريح إلى عينيّ. مضيت وتغلغلت الريح عبر قميصي وانهمرت الدموع من عينيّ، لكنني لم أكن أبكي. لفحت الرياح وجهي، وشعرت وكأنّ رأسي يغمّس في الماء مجدداً. أخذت نفساً وزفرت رائحة

الدم، ثم أمسى الدم أسمك على يديّ. لم أستطع أن أخبّأه؛ فقد كان أمام عينيّ، واستولى على الإطارات وعلى السيارة. كذلك كما بدأ يمشي بسرعة عبر الطرقات، يمرّ ما بين السيارات وشاحنات الديزل. كان الدم على يدي يجرّ السيارة يميناً ويساراً من دون سيطرة، لذلك كان ينبغي التخلّص منه.

قدت السيارة إلى طريقٍ صغيرةٍ مغبرة، وعبرت حقلاً أخضر قادني إلى البحر. تركت السيارة، وهرعت إلى الشاطىء الصخري ودست في المياه، ورحت أتخلّص من آثامي، ومن هذه الأرض المحترقة ومن أحبّائي. تحوّل لون البحر بنفسجياً، بلون العقيق اليمانيّ الذي ملأ الشاطىء يوماً. صرخ الدم أعلى من طيور النورس وأعلى من الغزاة القدماء. غمرت رأسي في الأمواج وغسلتُ شعري. فتهاوى الحصى إلى الأمام والخلف ورائي وأغلق البطلينوس صدفه.

جلست ما بين الأرض والبحر أتقيأ ما لم آكله، وأبصق المادة الصفراء التي انضمّت إلى زبد البحر لتتكسّر عند الصخور الهائلة.

عدت إلى السيارة بعد فترةٍ، وتخلّصتُ من الثياب التي كنتُ أرتديها. فتحتُ حقيبتي وارتديت ثياباً أخرى كنت قد وضّبتها. انطلقتُ بعيداً عن المكان ولم أفكر في جورج. رأيتِ؟ رأيتِ؟ جلّ ما وددته هو ركوب البحر وأمواجه.

ابتعدتُ عن ريا، فلم يبقَ لديّ شيئاً لأقوله. لم تستدر عنّي

ولكنني تركتها على الرغم من ذلك مع دموعها. نزلت الدرج ومنه إلى شوارع باريس.

مشيت نحو محطة القطار. كانت السماء تمطر، وكانت القطارات تصل وتغادر والركاب يمرّون.

سألتني السيدة عند شباك التذاكر:

ـ إلى أين أنت ذاهب اليوم يا سيدي؟

ـ إلى روما. إلى روما.

هذه الرواية

اليوم ندرك لما نالت كلّ هذه الجوائز وحصدت كل هذه الشهرة!

رواية كأنها عاشت بيننا.. في شوارعنا مهجورة ومكتظة بالعشاق أو القتلى.. اندسّت في أسرّتنا دافئة ومشرّعة للعاصفة.. توغّلت في خصوصياتنا وحميمياتنا من غير وجه حقّ..

جاءت بعد كل هذا الوقت لتكشف عن وجوهنا الحقيقيّة، لتعرّينا أمام أنفسنا وأمام الآخرين.. لتحاكم وتحكم علينا بلا رحمة.. يختلط علينا أسماء أبطالها وملامحهم وتصرّفاتهم المشينة أحياناً. يا إلهي كم يشبهوننا ويشبهون من نعرفهم ومن نعرف عنهم.. حتى لنحسّ أننا نحن في الرواية، نتحدّث بما فيها من حوار، ونتحرّك بما فيها من سيناريو ونتعانق ونقتتل.

رواية تكشف كل هذه الأسرار وهي تتحدّث ببساطة عن يوميات صديقين حميمين حتى القتل والخيانة. شهدا فصولاً من حرب لبنان البشعة، وهما يشبّحان في بيروت وضواحيها على رجالها ونسوتها وفتياتها القاصرات، ويتورطان في القتل فردياً وجماعياً، وهما يجولان مع السفلة في أجواء كل التعاطيات مباحة فيها!

رواية وكأن أحداً أفضى بكل شيء!!

شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٧٥٠٧٢٢ ١ ٣٥٠٧٢٢ ٩٦١ +
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٢٤٢٠٠٥

tradebooks@all-prints.co
www.all-prints.co

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر